سلسلة سفر الأسرار

الرحلة الأولى

رواية

أرض جوشن

ארץ גושן

(سر قبو الجماجم)

تأليف

د. أحمد المصري

فهرس الرواية

إهداء غير تقليدي.....٥
إهداء المؤلف.....٦
تنويه مهم.....٧
الجزء الأول (القاهرة ٢٠١٥).....٨
المشهد الأول..... ٩
المشهد الثاني..... ٢٣
المشهد الثالث..... ٣٣
المشهد الرابع..... ٤٥
المشهد الخامس..... ٥١
المشهد السادس..... ٦٦
الجزء الثاني (أواريس ١٦٤٨ ق.م).....٨٢
المشهد الأول.....٨٣
المشهد الثاني..... ٩١
المشهد الثالث..... ١٠٥
المشهد الرابع.....١١٥
المشهد الخامس.....١٣٠
المشهد السادس..... ١٣٧
الجزء الثالث (طيبة ١٥٧٣ ق.م).....١٤٨
المشهد الأول.....١٤٩

المشهد الثاني ١٥٧
المشهد الثالث.....١٦٨
المشهد الرابع.....١٧٨
المشهد الخامس.....١٨٩
المشهد السادس.....١٩٦

حقوق الملكية الفكرية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف، ولا يجوز تبادل
هذا الكتاب جزئيًا أوكليًا بطريقة غير شرعية؛
سواء من خلال إتاحته للتحميل على مواقع الويب
أوتبادله عبر رسائل البريد الإلكتروني، كما لا
يجوز نسخ جزء من النص بدون إذن مسبق منه.

أرض جوش

إهداء غير تقليدي

إلى أولئك الرجال الذين جاءوا برسالات المحبة

والسلام

.....

.

إلى موسى وعيسى ومحمد

.....

عليهم الصلاة والسلام

.....

إهداء المؤلف

إلى عائلتي..

إلى أبي وأمي...

إلى أخي المهاجر الأمريكي...

إلى كل من ساهم في نشر هذا العمل وإخراجه...

إلى كل محبي السلام حول العالم...

إليك- أنت- عزيزي القارئ.....

أهدي هذه الرواية

أحمد المصري

تنويه مهم

كل أبطال الرواية من وحي خيال المؤلف، وأي تشابه بينهم وبين الواقع محض صدفة.

الرواية هي مزيج من فانتازيا تاريخية دينية، تجمع بين الحاضر والماضي وبين الواقع والخيال.

الرواية مستوحاة من أحداث واقعية دينية تاريخية مثبتة علميًّا. جمعها المؤلف- فقط- ونظمها في قالب روائي خيالي، وهي بالضرورة تعبر عن الرأي الشخصي للمؤلف ولغيره ممن يتفقون على ذلك الرأي، لكن تبقى في النهاية مسألة رأي.

أحمد المصري

الجزء الأول

القاهرة ٢٠١٥ ميلاديا

קהיר
ה" תשע"ה

(1)

"سيداتي سادتي!! هنا قائد الطائرة وزملاؤه الملاحون! يرحبون بكم على متن الخطوط الجوية المصرية! ورحلتها المتجهة إلى مطار الخرطوم الدولي! علمًا بأن الرحلة سوف تستغرق ساعتين وثلاثين دقيقة تقريبًا! اليوم هو الأحد الموافق الثاني والعشرين من شهر مارس! والساعة- الآن- الثامنة والربع مساءً بتوقيت القاهرة! من أجل سلامتكم، نرجو التفضل بالاستماع لتعليمات السلامة التالية! الخطوط الجوية المصرية تتمنى لكم رحلة آمنة!!" .

وبينما كان قائد الطائرة يُلقي التحية على المسافرين، عبر المذياع، من مقصورة القيادة، استقبل يحيى زيدان اتصالًا هاتفيًّا من شقيقته الكبرى غادة. فأسرع بالرد عليها قبل الإقلاع وانقطاع الشبكة. بدا صوتها مرتعشًا، يحمل نبرة مرتجفة إلى حدٍّ غريب، في حين كانت تودِّعه بعبارات ملؤها القلق. لم تكن هذه هي المرة الأولى له التي يسافر فيها إلى خارج البلاد. وبالطبع، ليست المرة الأولى التي تطمئن فيها عليه قبيل إقلاع الطائرة. لكنها- ومع ذلك- كانت مختلفة تمامًا عما سبقها، أو ربما كان يحيى يظنها كذلك. سريعًا حاول يحيى تهدئة روعها غير المسبوق، بضحكة داعبة مجوَّفة، ليست كالعادة. بينما كادت غادة تجهش بالبكاء الحار، كما لو أنها لن تسمع صوته مجددًا، أخبرها أخوها بضرورة إنهاء الاتصال فورًا؛ استعدادًا لمغادرة الوطن، مخلِّفًا على جبينها قبلة حانية مغلَّفة بكثيرٍ من الشوق.

تحركت الطائرة على المدرج بسرعة منخفضة، حتى أن اقتربت من الارتفاع، ازدادت سرعتها بدرجة مخيفة تنزع القلوب، ثم طارت في سلام. لم

يكن الأمر مفزعًا لهذا الحد الذي تصوَّره يحيى، لكن ربما كان رهاب ركوب الطائرات الذي يصيبه في كل رحلة طيران، السبب في تسارع دقات قلبه على هذا النحو المبالغ فيه، ما كاد أن يتسبب في تصلب أطرافه، في حين فقد السيطرة على أعصابه. انتهى الهلع إذن، حينما شرع بفتح عينيْه التي أُغلقتا لا إراديًّا. عندها، بدا كل شيء على ما يرام. لقد ذهب- الآن- عنه الفزع، وارتخى جسدُه المتيبِّس، ليبدأ في الاستمتاع برحلته غير الاعتيادية.

إنه مساء يوم الأحد، الثاني والعشرون من آذار، عام ٢٠١٥. قد يكون ذاك القلق المريب أمرًا طبيعيًّا؛ نظرًا إلى أنها رحلة رسمية استثنائية. إنها المرة الأولى- بالنسبة إليه- التي يرافق فيها الوفد الوزاري المصري، المتجة إلى السودان؛ للتوقيع على وثيقة إعلان المبادئ العامة بشأن سد النهضة. حيث يتسنى له المشاركة في المؤتمر الصحفي، الذي سوف ينعقد بين رؤساء مصر وإثيوبيا والسودان، مباشرةً بعد وصول الرئيس المصري، صباح اليوم التالي. لكن الجريدة الحكومية التي يعمل بها يحيى اعتزمت إرسال فريقها الصحفي، برفقة مسؤولي الخارجية، قبل وصول الوفد الرئاسي بليلة واحدة على الأقل؛ للإعداد بشكل وافٍ لذلك القاء المرتقب. خلالها يتمكن يحيى من مراجعة جدول الزيارة الرسمي، الذي وزعته رئاسة الجمهورية على أغلب الصحفيين المشاركين. اطَّلع يحيى- قبل سفره- على البرنامج بشكل جيد، حيث سيعقد الرؤساء الثلاثة جلسة مباحثات مصغرة، ثم أخرى موسَّعة، تشمل كبار المسؤولين والوزراء. وخلال المؤتمر الصحفي سوف يُوقَّع على الاتفاق، الذي أثار العديد من الخلافات في الآونة الأخيرة بين دول حوض النيل، فبينما ارتأت كلٌّ من مصر والسودان أن بناء ذلك السد سوف يهدد أمنهما المائي، فيما يشكِّل خطرًا محدقًا بهما، كانت إثيوبيا ترى في بناءه حلمًا قوميًّا؛ لتوليد الكهرباء، وخلق الاستثمارات، وتحقيق النهضة الموعودة. بالرغم من أن خبراء

المياه والسدود النهرية المصريين، بالإضافة إلى عدد من الخبراء الأجانب، أكدوا- بما لا يدع مجالًا للشك- على أنه سيؤدي إلى بور العديد من الأراضي الزراعية وتصحرها. هذا إلى جانب تهديده المباشر للمصريين بالعطش وندرة المياه؛ ما قد يتسبب في زعزعة أمن البلاد واستقرارها.

لقد أُبلِغ الصحفيون مسبقًا أنه سيُعلَن عن قرارات جديدة غاية في الأهمية، في إطار بنود المبادئ العامة. كما اختيرت الموضوعات-بشكل محدد- التي ستناقش في المؤتمر. وقد شددت رئاسة الجمهورية على الصحفيين، بضرورة التزام المهنية، في طرح الأسئلة، منبِّهة بحزم على عدم تجاوز الأسئلة الموزَّعة عليهم. لذا كان يحيى مدركًا أن أي خروج عن النص المتفق عليه، لن تحمد عقباه، وعليه أخرج برنامج من حقيبته، وأعاد مراجعتها.

إنها أول مرة يُكَلَّف فيها يحيى بتوجيه أسئلة على رئيس الجمهورية، خلال مؤتمر صحفي حسّاس مثل ذلك. كانت شتى الأفكار تجول في خاطره بازدياد، في اندفاع مؤرقٍ، وكأنها تتدفق بقوة من أعلى قمة جبل كليمنجارو[1]. جاهد يحيى لإخماد الضجيج برأسه؛ لذا عمد لوضع السماعات بأذنيْه، بعد أن اختار الاستماع إلى بعضٍ من موسيقى كسارة البندق الهادئة لتشايكوفسكي[2]، المسجلة بشاشة العرض الصغيرة أمام مقعده. عندها وضع وسادة العنق خلف رقبته، باسطًا قديمه- قليلًا- إلى الأمام، في حين شعر بالحظ الجيد لحصوله على مقعد رجال أعمال- مريح للغاية- بمقدمة الطائرة. بدا له من المهم- الآن- التوقف- إلى حين- عن التفكير، في حين يقوم بعملية استرخاء ذهني، متغلِّبًا بذلك على ما يصيبه من رهاب.

(١) أعلى قمة جبلية في أفريقيا، والثاني عالميًا، حيث يكسوه الجليد طوال العام، رغم وقوعه في منطقة استوائية حارة ورطبة معظم السنة.

(٢) موسيقار روسي عالمي شهير.

لم يدرك يحيى أنه غفا طويلا إلا عندما أقضَّ مضجعه صوتُ رجل أفريقي يجلس بجانبه. كان صوته الأجش موحشًا، للحد الذي كاد يجعله يتقيأ عندما إنتبه له فزعًا. نظر إليه يحيى خلال فتحة صغيرة بين جفني عينيه الثقيلتين من الإجهاد. وبينما كان ذلك الرجل الأفريقي يحدق فيه متلاعبًا بفمه، ظل يحيى ينظر إليه واجمًا وكأنه لا يسمعه. عدة ثوان مضت قبل أن يفرك عينيْه بقوة، ثم أنزل سماعات الرأس عن أذنيه، فسأله في ضجر:

- **معذرة! هل تتحدث إليّ؟!**

إن ذرات لعابه الثقيلة كانت تتناثر بكثافة من فمه الكريه على وجه يحيى، وكأنما يتحلل الطعام بفمه بدلًا من معدته.

-**يا رجل! استيقظ! المضيفة تتحدث إليك منذ زمن! أنظر حولك!** قال له بالإنجليزية وهو ينكزه بكتفه. استدار يحيى بنظره، فوجد المضيفة إلى جانبه، وقد أرهقها كثيرًا طول الانتظار. بعد تنهيدة رقيقة، سألته ماذا يحب أن يتناول من اللحوم. اعتذر منها يحيى، قبل أن يخبرها برغبته في وجبة اللحم البقري مع قليل من عصير التفاح. لكن بأثناء ما كان يتأمل حسنها الذي يكفي ليطمئن الفؤاد ويملأ الروح بالسكينة، أفزعه ذلك الرجل الأفريقي- مجددًا- بصوته الغليظ، في حين يجيب المضيفة قائلًا: **أما أنا أرغب في وجبه اللحم المقدد مع بعض الفودكا، يا سيدتي.**

كان رجلًا شديد سواد البشرة، ممتلئًا إلى حد ما، ذا كرشٍ ممتدٍّ أمامه لبضعة سنتيمترات، ليس بالطويل، حيث بدت ساقاه قصيرتين، ذواتي ردفين كثيرَي الشحم واللحم. إن رأسه الضخم ذا الجبهة المربعة اكتنزت أسفله رقبة قصيرة تكاد تختفي، بينما يحمل في وجهه وجنتيْن بارزتيْن، وفكًا عريضًا، ضغطوا على عينيْه بشدة، فبدتا صغيرتيْن جدًا تكادان أن تُطمسا. لقد كان

يحدج يحيى بنظرة ارتياب دون أن يتفوه بكلمة، راسمًا على وجهه ضحكة سخيفة، برزت خلالها أسنانه الصفراء كشمس الغروب.

عندئذ، لمع في ذهن يحيى سؤالٌ، ساقه الفضول إليه، قاطبًا حاجبيْه، نظر إليه يحيى بحدة، صامتًا لوهلة، قبل أن يسأله دون ترحيب مسبق: ما اسمك؟! فأجابه الرجل السخيف بغلظة، وكأنما امتزج صوته بالشحم المتناثر في وجهه، قائلًا: اسمي دانيال! يمكنك مناداتي بـ دان! إذن أخبرني أنت، ما اسمك؟! أجابه يحيى في حين يدير وجهه متجنبًا رزاز لعابه المتطاير : أنا اسمي يحيى!

- نعم يحيى! أفهم! يعني جون بالإنجليزية! اسمٌ جميل لا شك! لدي أخ أصغر مني يحمل الاسم ذاته تقريبًا. قال دان ذلك، بينما يقوم بتنظيف فمه مستخدمًا سلّاكة الأسنان.

أسرع يحيى بالرد عليه قائلًا: ولكنني أقول لكَ يحيى ولست جون. ضحك دان بصوت عال ضحكة متقطعة، ثم استطرد قائلًا: وما الفارق، يا صديقي؟! كلها أسماء مختلفة بلغات متعددة لأصلٍ واحد! عقّب يحيى قائلًا: **بما كذلك! لكن أخبرني من أين أنت؟** فأجاب دان مُناكِفًا: **أووه، يا رجل!** ألا يبدوعليَّ؟! قال ذلك موسعًا ثغره، وكأنما يَهِم بالتثاؤب، حتى أسرد قائلًا:

- في الواقع! هذا أمرٌ معقدٌ نوعًا ما! فأنا متعدد الجنسيات! مع ذلك فإن موطني الأصلي يعود إلى شمال الهضبة الإثيوبية! أنا من قبيلة متجذرة العراقة والنبل. كان والدي يعمل حطّابًا ومزارعًا، لكن أجدادي اعتادوا الحِل والترحال، حيث كانوا يتنقلون كثيرًا بين الأودية الخصبة، وحول منابع المياه. دعني أخبركَ أمرًا! كان والدي متمردًا شرسًا على تقاليد قبيلتنا. فما كان يجوز له أن يتزوج بفتاة من خارج عِرقنا. ربما- ذلك- اعتقادًا منهم بأن اختلاط

الأنساب وامتزاج دماء القبيلة بأخرى غير أصيلة قد يتسبب في حل لعنة الآباء الخالدين في الملكوت.. وقد يتعرض عرقهم النبيل للاندثار والفناء عقابًا لهم على عدم الامتثال لحكمة الأجداد. مع ذلك، أصرَّ والدي على الزواج بالسيدة- والدتي- التي كانت- في واقع الأمر- سليلة إحدى القبائل الأخرى الشريفة التي كانت تحكم البلاد آنذاك.

صمت دان لوهلة، في حين احتسى رَشفة فودكا، ثم استكمل قائلًا:

- هل لكَ أن تتخيل كيف كانت عقوبة تجرئه على ذلك؟!

نظر إليه يحيى، في حين تبدّلت مشاعره السلبية تجاهه قائلًا:

- ربما يكون الطرد خارج حضن القبيلة كعقوبة قصوى؟!

ابتسم دان في استخفافٍ، ثم استطرد قائلًا: لقد عقدوا اجتماعًا طارئًا حضره شيوخ القبيلة أجمعين. وخلاله حكموا عليه بحرق جسده بعد فصل رأسه عن سائر البدن، وذلك كحكمٍ قاسٍ إن لَزِم موقفه بالزواج من والدتي!! لأنه- حسبما اعتقدوا- بات ملعونًا مطرودًا من أرواح الآباء الخالدة! وقد تنالهم اللعنة- أيضًا- إن سمحوا له بذلك! لذا وجب التخلص من روحه للأبد بالحرق! حتى إذا صار جسده رمادًا ينثرون ذلك الرماد على قمة الجبل، بعد أن تُمزَج ببعض بعضًا من دماء أقرانه من شباب القبيلة! حتى تتطهر روحه عند مثولها أمام الآباء في العالم الآخر. عندها لم يجد أبي بُدًّا من الهرب عبر حيلة بارعة لجأ إليها ليتمكن من الفرار! وبينما كان رجال القبيلة يعدون العدة لذلك في يوم مشهود أمام حشد هائل من أفراد القبيلة ليشهدوا عقابه! نجح والدي- بالفعل- في النجاة بروحه.

بدا يحيى مشدوهًا للغاية بتلك القصة الغريبة، وقد ارتسمت على وجهه- خلال حديث دان- علامات الجدية. كان دان يروي بحماس وكأنه

عاصر- بنفسه- تلك الأحداث العصيبة، وليست مجرد حكاية على لسان أبيه، بينما كان يَقصُّها عليه في صغره. لقد تغير صوت دان، فبدا خافتًا هادئًا كما لم يبدُ عليه من قبل. بالفعل استحوذ الحديث الشائق لهذا الأفريقي على لب يحيى كثيرًا، حتى شعر بالفضول لاستكمال روايته؛ رغم أنه- في بادئ الأمر- ما كان يروق له الحديث معه على أية حال.

يحيى: قلتَ إن والدكَ لجأ إلى حيلة ذكية مكَّنته من الإفلات من أيدي أفراد قبيلته في تلك الليله الحاسمة!! لكنكَ قطعت حديثك ولم تأتِ على ذكر كيف كانت تلك الحيلة! التي- فيما يبدو- وهبت لكَ- أنتَ- الحياة بعد نجاته.

دان: نعم!! أنت محق في ذلك!! فلولا ذلك لما رأيتُ نور الحياة. ولما جئتُ إلى عالمنا الكبير هذا!

يحيى: كما لو أنكَ لا ترغب في سرد المزيد عن تلك الليلة الصاخبة والمهمة في تاريخ والدك!

دان: لا. ليس بالضبط!! لكنني محتبس!! أرغب في زيارة دورة المياه!! هلّا سمحتَ لي بالمرور؟!

يحيى: **نعم! بالطبع! تفضّل.**

دان: **إذن. لتأخذ هذا الكتاب! اقرأ فيه حتى أعود إليك مجددًا! فإنني لن أغيب.**

تعجب يحيى كثيرًا لأمر هذا الرجل الأفريقي. كان الرجل ثرثارًا للغاية، حتى أنه كان يستفيض في الحديث دون توقف. كان متحدثًا لبقًا لولا رشاش اللعاب- ذاك- المتقطع من فمه. كان يتحدث كدبلوماسيٍّ محنكٍ أو سياسيٍّ مخضرمٍ، أو لربما كان كذلك فعلًا. ذلك ما كانت توحي به هيئته الوقور؛ فلقد

كان يرتدي بذلة سوداء أنيقة جدًا، في حين كانت تتدلى من رقبته ربطة عنق شديدة الحمرة، وحقيبته الجلد ذات الأزرار الذهبية اللامعة كانت تشبه إلى حد كبير تلك الحقائب الدبلوماسية التي كان يراها يحيى في لقاءاته الصحفية مع العديد من مسؤولي الخارجية. مضت لحظات حتى عاد يحيى لتجاهل أمره، في الوقت الذي كاد الفضول أن يقتله، بحكم مهنته كصحفي؛ لسماع المزيد من دان. على الرغم من أنه لم يثر أي فضول لديه في أول الأمر، إلّا أنه رغب- فيما بعد- في معرفة كيف تسنى لوالده الهرب، وما تلك الفكرة العبقرية التي ألمح إليها بإيجاز دون استطراد.

بعد عدة دقائق، تأخر دان كثيرًا. تساءل يحيى في سره: **ماذا يفعل هنالك كل ذلك الوقت؟! ربما أنه التقى بأحد أصدقائه على متن الطائرة، وتبادل معه أطراف الحديث؛ لأنه لم يكن من المنطقي بأي حال من الأحوال أن يبقى طيلة هذا الوقت بداخل دورة المياه!!** الأمر صار مريبًا إلى حد بعيد، بعد أن مضى على غيابه النصف ساعة؛ لذا شعر يحيى برغبة جارفة لتقصي أثره، ثم عدل عن تلك الفكرة، وقبع في مكانه، حتى همَّ بوضع سماعات الرأس على أذنيه مجددًا، ثم تردد مجددًا، فأنزلها عن أذنيه، حينما نظر إلى ذلك الكتاب الذي نصحه دان بقراءته قبل ذهابه.

كان الكتاب موضوعًا على المقعد فوق لحاف من الصوف خاص بكل مسافر على الطائرة؛ للتغطية أثناء النوم. حملق يحيى فيه طويلًا، ثم إذ به ينتزعه من مكانه، ويتمعن في استكشاف عنوان غلافه، الذي حمل اسم "**القوة البديلة**". أما على ظهره، فقد كُتبت نبذه مختصرة عما يدور بداخله، فكانت هذه العبارة التي توقف يحيى عندها كثيرًا: "ليس من العجيب أوالمستغرب أن نرى في حين ننظر إلى الأشياء، بل العجيب ألا نرى في حين نحن نبصر جيدًا!". استطرد المؤلف في وصف كتابه في بضعة أسطر، كان يتكلم فيها

عن كيفية تحويل الإنسان إلى ماكينة آلية، يمكنها أن تتقن وتبدع. تحدَّث- أيضًا- عن وسيلة تحويل العقل البشري إلى آلة رقمية، يُقدَّر لها ابتكار كل ما يراد لها أن تبتكره، إضافةً إلى التغيرات النفسية الحديثة التي طرأت على إنسان القرن الحادي والعشرين، وكيفية التحكم في مشاعره، عواطفه، أفكاره، رغباته، والتنبؤ بمستقبله عن بعد!.

في اللحظة التي كاد فيها يحيى أن يفتح الكتاب؛ لاستعراض فهرسه، كان دان يحط يده على كتفه، متسائلًا بتنمر مريب: يبدوأن كتابي المفضل لدي قد نال إعجابك كذلك؟! نظر إليه يحيى نظرة طويلة عابسة، في حين كان دان يحاول المرور إلى مقعده، ثم أعاد يحيى بصره إلى الكتاب مجيبًا: **يبدو كذلك!!.. لكن لا أكذب عليك! لم تتح لي فرصة من قبل للقراءة في مثل هذا النوع من الموضوعات! تبدوفرصة رائعة لأن أبدأ في تحويل مسار نوعية كتبي المستهدف قراءتها مستقبلًا! على كل حال، هو كتاب مثير للاهتمام حقًّا!.**

توقف يحيى للحظة عن الكلام، ولكي يرضي شهوة الفضول المتدفقة بداخله، سأل دان عن سبب تأخره كل تلك المدة، لكن دان انزعج كثيرًا من سؤاله، مما جعل يحيى يستاء بشدة منه؛ لأنه لم يكن يقصد إطلاقًا- بهذا السؤال- أي إحراج له. فيما بدا على دان أنه كما لو ودَّ الامتناع عن القول بأنه قد أصابه عسر هضم شديد. عرج دان عن السؤال ليقول: تعرف ما السر الذي يحمله هذا الكتاب بين طياته؟! بنظرة متعالية ألقى دان هذا السؤال على مسامعه، وبنظرة أخرى طامحة في المعرفة أجابه يحيى: وما هذا السر يا ترى؟! هذا الكتاب هو سر وجودي في هذا العالم الآن، وهو سر نجاة أبي من الحرق في العهد البائد! أجاب دان، في حين يلتقط كتابه بسرعة من يديّ يحيى، ثم

توقف عن السرد، وكأنما ينتظر يحيى ليبدي تعجبه، ويتساءل: **وكيف ذلك؟!** لكنه كان جليًّا رغبته في تغيير دفة الحديث؛ لذلك تعمد سؤال يحيى عن سبب توجهه إلى السودان. تمطّع يحيى قليلًا، ثم أخبره بأنه صحفيًّا يعمل لدى إحدى الصحف الرسمية في مصر، وأنه مسافر بغرض تغطية أحداث إبرام اتفاق المبادئ العامة المتعلقة بسد النهضة. فأسرع دان ليقول في تنمر صفيق: **هل تعلم بأننا سوف نقطع عنكم الماء؟** تبدلت ملامح وجه يحيى، فيما ظهر عليه الانزعاج من وقاحة ذلك الرجل، فأجابه: **ولهذا السبب، قررت إثيوبيا بناء سد النهضة؟ صحيح؟! ولكنكم تدَّعون عدم الإضرار بدول المصب. ودومًا تؤكدون على أن الغرض من بناء السد هوالتنمية في إثيوبيا والتي بدورها تتطلب توفر الكهرباء التي يمكن توليدها من ذلك السد العملاق!! يبدو أنها أكذوبة تحاولون ترويجها لتمرير بناء السد والحصول على تمويل له!**

ضحك دان ساخرًا من قوله. وفي حين هو يقهقه بسخفٍ، قال:

- إنها السياسة، يا عزيزي يا صديقي الجديد! لا تعرف الأخلاق!! ولكن أيضًا أريدكَ أن تكون منصفًا بعض الشيء حينما تتذكر أن النيل لنا! وأن ذلك هو حقنا الطبيعي في مياهه! فكما تعلم! أن النهر الأزرق يُشكِّل ما نسبته ثمانين بالمائة من مياه نهر النيل!! مع ذلك، فإن تلك المياه تصل إليه في الصيف فقط! خلال فترة الأمطار الموسمية على هضابنا! ما يعني- بلا شك- أننا منبع النيل الرئيسي! والذي وهب الحياة لكم على مدى التاريخ! ويعني- كذلك- أن إثيوبيا هي شريان مصر الحيوي، الذي إن انقطع فقدت مصر روحها ودماءها! وذلك يمنحنا- بالطبع- اليد الطولى على مصر وشعبها!

لم يتمالك يحيى غضبه، حيث أثاره كلام ذلك الرجل الوقِح؛ فانفعل بشدةٍ بالغةً، وراح يسترسل في قوةٍ منهمرة:

- عن أي حق تتحدث، أيها المراوغ الشنيع؟! هل نهضت إثيوبيا من غفوتها فجأةً لتدرك أنه لا بد لها أن تحظى باليد الطولى! ضاربةً بعرض الحائط ذاك التاريخ العريق الذي كانت مصر خلاله صاحبة السيادة على وادي النيل؟! ثم إن كان لكم رغبة في التنمية، فلماذا نمانع ونحن نتشارك في الحضارة؟! فقط ما يبدو واضحًا للعيان أنكم تخدعون شعبكم بحلم الاذدهار ومن وراء الستار تدبرون أمرًا خفيًّا بمباركة دول أخرى بالمنطقة غرضها إهلاك مصر وشعبها على المدى القريب! لكن! وحتى إن نلتم ما تصبون إليه! فإنني على يقين بأن للنيل ربًّا يحميه! ولن تفلحوا أنتم ومن وراؤكم في النيل من شعب مصر! وإن بدت مخططاتكم- الآن- تجري على قدمٍ وساق! فإنه- وفي المستقبل القريب- ستبوء بالفشل المحتوم! وسيُقضى عليها! لقد كانت مصر وستبقى تقطع أيادي من يحاول المساس بكرامتها وهيبتها! وأما النيل الذي تدَّعي أنه ملكٌ لكم! بحجة أنكم تتحكمون في منبعه! فدعني أخبركَ بأنه ليس بمنةٍ لكم علينا! وإنما الفضل يرجع إلى رب النيل الذي شق له طريقًا حتى يصل إلينا! ولا يزال جاريًا في عروق مصر منذ آلاف السنين. إن ذاك المطر المنهمر على هضابكم ما كان ليسقط لولا أن الله قدّر أن يهبه لمصر! ليحوّل صحراءها إلى حضارة عريقة! وليس بمقدور أحدٍ أن يحجبه عنا! ولن يكون ذلك أبدًا بأمر الله!.

توقف يحيى- فجأة- عن الاسترسال الغاضب، في أثناء ما كان دان يستمع بلا تأثر؛ ذلك عندما حدث أمرٌ مروعٌ قطع سيل الكلام.

"السادة الركاب! برجاء الالتزام بالجلوس في مقاعدكم! والتأكد من ربط أحزمة الأمان! لا داعي للقلق! حدث نقص مفاجئ في وقود الطائرة! مما سيضطرنا للهبوط في أقرب المطارات للشحن!".

ملأ الصراخ الشديد جنبات الطائرة، وصاح الجميع في هرج ومرج لا يمكن السيطرة عليه. كان الأمر مرعبًا جدًا، فيما ظن الركاب بحدوث عطل ما بالطائرة، في حين كان قائد الطائرة يحاول طمأنتهم بهذا الكلام لا أكثر. لذلك عمَّت الطائرة حالة غير طبيعية من الهياج والعويل. في تلك الأثناء، أُصيب يحيى بضيق حاد في التنفس، وشعر بالاختناق نتيجة لحدة الصراخ على الطائرة. ذرعت المضيفات الطائرة في محاولة بائسة لتهدئة الركاب وأطفالهم. مؤكدات عليهم بضرورة التزام الهدوء، واتباع الإرشادات في حالة حدوث أي طارئ. بدأ الأمر بنوبة صراخ حادة، لكن لاحقًا استكان الجميع، عندما شعروا أن الأمر ليس خطيرًا إلى هذا الحد، ولا يستدعي كل ذلك القلق، حيث الطائرة ما زالت تطير بسرعتها المعتادة دون أي تغيرات غريبة طرأت عليها. وفي تلك الأثناء، أغلق يحيى عينه، متوسلًا إلى الله لينجيه من ذلك الخطب الجلل، لكنه-بعدئذ- عاد فاتحًا عينيْه، ليجد دان ينظر إليه، وعيناه مليئتان بالثقة والهدوء التام، وكأن ما من أمر مزعج يدور حوله. لم يبدِ أي انفعال أو توتر، لقد ظهر مريبًا حقًّا، فيما كانت ردة فعله هذه مستغربة على نحو بعيد. تساءل يحيى في خاطره: **أي نوع من البشر هو ذلك الرجل**؟! أطال دان التحديق فيه، حتى قال له بكل استرخاء: أتعلم لماذا هدأ الركاب- الآن- بعد ذاك العويل الهائل؟! أجاب يحيى دون أن ينطق بكلمة، فقط أومأ برأسه، فيما أعنى أنه لا يعرف. فإذا بدان يطرق على ركبته مبتسمًا، بينما قال: لقد جعلتهم يهدأون ويؤمنون بأن الأمر ليس على هذا النحو من الخطورة! ولا يستدعي هذا الكم من الانزعاج! إنه ذلك السر الذي حدثتك عنه!

ما إن أنهى الرجل الأفريقي كلامه، حتى باغت يحيى ألمًا شديدًا في بطنه، على أثره شعر بالرغبة في التقيؤ. أمال رأسه إلى الأسفل محاولًا إفراغ معدته، ثم بشكل لا إرادي انهمر القيء من فمه. ثم رأى دمًا يخرج من فمه، وإذا بالدم

يفيض على الأرض، كأنه سيل منهمر. ثوان معدودة حتى غمر الدم أركان أرضية الطائرة بشكل لا يصدق. ما لبث أن تحول إلى بحر دماء يغرق الطائرة.

عاد الركاب إلى الهلع، حينما رأوا الدماء تحيط بهم من كل جانب بلا انقطاع.

وفجأة،،،

بدأت الطائرة تتهاوى بسرعة منفلتة. فقدَ خلالها قائد الطائرة التحكم بها. وفي حين يتأهب الجميع للحظة الموت المباغتة، تحدث أحدهم من كابينة القيادة- بصوت هادئ- عبر الميكروفون قائلًا:

"السادة الركاب.

أعتذر لكم بشدة! نعم أعتذر.

لقد كذبتُ عليكم!! أعترف! ولستُ بنادم!

أيها السيدات الفضليات والسادة الأفاضل! لقد خدعتكم!

حيث إنفجرت أحد مخازن الوقود.. ونشب حريق هائل في مؤخرة الطائرة.. بينما ينفلت زمامها! وما عاد ممكنًا السيطرة عليها. وها أنتم -جميعًا- تسقطون في الهاوية إلى الأبد.

أيها المغفلون السذج المغرر بكم، لقد وقعتم في الفخ، حين وثقتم في قائد رحلتكم حتى يصل بكم إلى بر الأمان، لكنه وعدكم فأخلفكم، وقادكم إلى شر الآجلة ولا شك، ليسوء وجوهكم، وما كان له عليكم من سلطان إلّا أن دعاكم فاستجبتم، فلا تلوموا إلّا أنفسكم وكفى، وعسى أن يكون ذلك هو أدنى ما تستحقون جراء حماقاتكم.

أيها السيدات والسادة، ليس عليّ- الآن- سوى أن أخبركم بأن الحياة جد

قصيرة. وربما تكون هذه هي نهاية الرحلة الموعودة. فاستعدوا للموت، لقد حلَّ عليكم برأسه التي تبغضون، لينتزعكم من أحبائكم وأهليكم، ويُورِدْكم بئس الهلاك المُخْذِل.

أيها الركاب الأعزاء.

أهلًا بكم في الجحيم.....".

(2)

هبَّ يحيى فزعًا عن وسادته. كان رأسه ثقيلًا للغاية، وكأن صخرة ما صلدة قد حطَّت فوقه. كان وجهه يتفصَّد عرقًا، للحد الذي وجد وسادته استحالت إسفنجة رخوة ثقيلة. مرتجفًا، نهض يحيى بسرعة عن فراشه، عندما دقت عقارب ساعة الحائط بغرفة نومه في تمام الساعة العاشرة مساءً. كان صوتها مزعجًا ما نزع النوم من جفونه تمامًا، وجافاه دون رجعة، بعد كابوس طويل، موحش ومؤرق للغاية، جعله يرتعد هلعًا، في حين يجاهد وحيدًا للنهوض. فمنذ زمن، بعد رحيل غادة إلى دار زوجها، ثم وفاة والدته- من أصل فلسطيني- بعد ذلك بأعوام قليلة، صار يحيى يقيم بمفرده في هذا المنزل المنطفئ، حيث اقتناه والده- الذي لم يعاصره- في مرحلة متأخرة لوالدته، التي لا تملك مصر أقرباءً سوى أختٍ وحيدة تعيش الآن بالإسكندرية. إن ما يعرفه يحيى من حكايات أمه، أنها جاءت لاجئةً في الستينيات مع والدتها إلى مصر، برفقة شقيقتها الصغرى، بعد زواجها الثاني من تاجر أردني، استقر به المطاف في مصر. أمّا أبوها الشرعي، فهو من عشائر التعامرة، وكان قد قُتل غيلةً، مطلع الخمسينيات، على يد أحد أفراد ميليشيات الهاغاناه الصهيونية؛ ما اضطر أمها إلى الفرار ببنتيها، من البادية، إلى مدينة مأدبا الأردنية، شرق البحر الميت.

كانت دقات تلك الساعة، المعلقة بغرفته، بمثابة المنقذ الذي أنجاه من الهلاك، أو ربما، كملاك الرحمة الذي أعاده إلى الحياة مجددًا. لكن على النقيض من ذلك، شعر يحيى- مؤخرًا- أنها باتت مصدر إزعاج شديد له،

فما عادت تَجْرِس إلا وتُفيقه من كابوس بشع. لم تكن على هذا النحو من النحس بادئ الأمر، عندما اقتناها قبيل عودته إلى مصر، من أحد متاجر بيع الخردوات في وسط العاصمة التايلاندية بانكوك. حدث ذلك خلال تجوله في منطقه السوكومفيت[1] ذات الطابع العربي. كان صوتها يروق له كثيرًا، فهي مصنوعة من طراز كلاسيكي نادر جدًّا، ذكَّرته بساعة الحائط، ذات البندول المتحرك، في منزل جدته القديم، والذي كان صوتها صاخبًا ورنانًا بقوة.

كان صاحب المحل التايلاندي قد اجتذب معه أطراف الحديث، بينما كان يحيى يجول بين أركان البازار العتيق، مُلقيًا نظرات متأملة على البضاعة المعروضة. لم يكن خلالها يفهم ذلك الرجل التايلاندي بشكل واضح وجلي؛ فقد كان يتحدث- بالطبع- اللغة التايلاندية، لكن إنجليزيته، الممزوجة ببعض مخارج الألفاظ الجنوب شرق آسيوية، كانت تشتت ذهنه. مع ذلك، لا يتذكر يحيى- تحديدًا- في أي موضوع كانا يتحدثان، لكن البائع التايلاندي كان يسوِّق له هذه الساعة على وجه التحديد. ما يتذكَّره- فقط- أن ذلك الرجل أخبره أن عمرها يتجاوز الثمانين عامًا على أقل تقدير. وكذلك أنها صناعة يدوية محترفة من عمل جده، الذي ورث هذه الحرفة عن أسلافه. كان بندولها ذا مرآة شديدة الصقل، ولها بريق خاطف جدًّا، حتى أنه عندما نظر فيها خُيّل له أنه رأى وجهه، وكأنه خارج لتوه من صالون الحلاقة. بدا فيها شعره مُشرقًا نضرًا، مبللًا إلى حد ما، رغم أنه لم يك كذلك على الإطلاق. في ذاك اليوم، رأى وجهه فيها كما لم ير نفسه في مرآة من قبل.

سأله البائع التايلاندي بكل ترحاب: هل أنت عربي؟ فأجاب يحيى: نعم،

(١) شارع سوكومفيت في بانكوك يعتبر القلب النابض لتلك المدينة حيث إنه يمتد من بعد منطقة بلونشيت حتى مدينة بتايا، ولعل ما يميز شارع سوكومفيت هو وقوع المنطقة العربية به، ويسمى كذلك بـ (سوي نانا)، ويوجد به المطاعم العربية والفنادق العالمية، كما يوجد كل شيء في تلك المنطقة بلافتات ولوحات عربية كونها منطقة عربية تخدم الزوار العرب.

أنا مصري. وهذه هي الزيارة الأولى لي لبلدكم الرائع والمذهل حقًّا. بوجهٍ باشٍّ مغلفٍ بابتسامة عريضة، علَّق الرجل قائلًا: إنها تايلاند الرائعة حقًّا، يا رجل، المتعددة الثقافات، هنا في هذه المنطقة بالتحديد توقع أنكَ تشعر وكأنكَ تتسوق في بلد عربي، أليس كذلك؟

يحيى مجيبًا: بلى أنتَ محق، أدهشني ذلك جدًّا، فكل شيء هنا ذو طابع عربي، المحال، المطاعم، تحمل أسماءً عربيّة. فعلى مقربة من هنا، استكشفت العديد من المطاعم التي تقدم أكلات يمنية، وسورية، وعمانية، وعراقية، ومغربية، وفلسطينية كذلك، حتى أنني لتوي أنهيت وجبة فطوري بمطعم مصري خالص. بدا ذلك رائعًا، لقد كنتُ مشتاقًا لتناول الفول والفلافل على الطريقة المصرية، وخلال ذلك سعدتُ كثيرًا بمقابلة بعض المصريين الذين يعملون في المطعم ويديرونه أيضًا، كانت تجربة مثيرة حقًّا. قال الرجل التايلاندي مضيفًا: بالطبع يتواجد هنا الكثير من الجاليات العربية التي تعمل هنا في بانكوك.

عقَّب يحيى قائلًا: نعم، ولقد جاءني مدير المطعم- المصري الأصل- الذي يحمل الجنسية التايلاندية لتحيتي. لقد تحدثنا قليلًا عن الأسباب التي دفعته للهجرة إلى تايلاند، وعن ظروف معيشته هنا، لقد أخبرني بأن زوجته المصرية متوفية، وأن لديه ابنتين تعيشان في مصر مع والدته العجوز. بينما هو قد أتى إلى هنا منذ سنين طويلة، ومؤخرًا استأجر هذا المطعم الذي أدرَّ عليه أرباحًا كثيرة حسبما قال. ومن اللافت ذكره بأن فتاتًا تايلاندية قد وقعت في غرامه، فعرضت عليه الزواج، فتزوجها، بينما ساعده ذلك في الحصول على الجنسية. لكنه الآن، وبعد وفاة زوجته في مصر بدأ يفكر مليًّا في العودة، وتصفية أعماله في بانكوك. لقد تغيرت ملامح وجهه حالما أتى على ذكر ابنتيْه الصغيرتيْن اللتيْن

صارتا في أمس الحاجة إلى وجوده بجانبهما. لقد اتشحت عيناه بالحزن، بينما يقول ذلك وهو كظيم.

البائع التايلاندي: حقًا، هذا شعور مؤسف للغاية لأي أب.

يحيى: مع ذلك، فقد استقتُ منه معلومات كُثر، فأخبرني بوجود العديد من المصريين العاملين بتايلاند. وبالفعل، خلال تجولي بهذه المنطقة حصلتُ على صور رائعة مع شباب عرب. هنالك قابلتُ شابًا فلسطينيًا لاجئًا هنا منذ أمد بعيد. وآخرَ سوريًا تقطعت به السبل بعد الثورة السورية منذ أعوام قليلة. وقد شاهدتُ هنا كذلك العديد من الخليجيين الذين اعتادوا على السياحة بتايلاند. إنهه بلد رائع حقًا. هنا، يجد السائح فرصةً عظيمةً لالتقاء كثير من البشر من جنسيات مختلفة في مكان واحد.

أجاب الرجل التايلاندي البشوش بكل ود: "**عظيم، تايلاند بلد منفتح يرحب بالجميع، لكن إن أمكن لي أن أسألك، هل أنت هنا بغرض السياحة أم العمل؟**. فأخبره يحيى أنه قَدِمَ بتكليف من رئيس مجلس إدارة الصحيفة التي يعمل بها، وقد وعز له بعمل تقرير صحفي مصور عن فرص السياحة للمصريين في تايلاند. بموجب اتفاق بين الجريدة وسفارة تايلاند بالقاهرة؛ يقضي بالتسويق للسياحة في تايلاند، عبر مجموعة من المقالات الترويجية المصورة، في الجريدة التي تحظى بعدد كبير لا بأس منه من القراء.

على الرغم من أن يحيى- أصغر إخوته ذا الثمانية والعشرين ربيعًا- لم يمضِ على عمله الجديد بالصحيفة سوى ثلاثة أشهر فقط، إلّا أنه حظيّ بإعجاب مجلس الادارة بعد عدة مقالات جلبت لهم المزيد من الإعلانات المدفوعة؛ مما أثر على زيادة مبيعاتها مؤخرًا. دائمًا ما كان يحيى يعتز بكفاءته التي ضمنت له النجاح؛ وغالبًا ما يصر على رفضه الاعتماد على واسطة أخيه

الأكبر- غير الشقيق- الوزير الأسبق؛ وما أعظمها من واسطة- لأي شاب في مثل عمره- تكفل له الوصول السريع إلى القمة، والقفز المتخطي على الآخرين، ممن يمتلكون الموهبة الأحق والفرصة الأقل. وعليه فقد أجرى العديد من المقابلات الصحفية مع عدد من شركات السياحة في تايلاند، كما حصل على تصريحات قوية من بعض الجاليات العربية. أثناء ذلك تعرف على صديق تايلاندي رائع، ساعده كثيراً على إنجاز مهمته، بينما نظم له برنامجًا مذهلًا؛ لزيارة العديد من أشهر معالم الجذب السياحي هناك، وبذلك تسنى له الحصول على الصور والتقارير المبهرة، التي كان يدفع بها إلى الجريدة أولًا بأول، ما جعله يمكث هنالك لمزيد من الوقت.

لم ينتبه يحيى إلى حاله، بينما يطيل النظر في مرآة ساعة الحائط شديدة الصقل، إلّا عندما رن هاتفه بصوت عال. ارتعش جسده، وكأنه لم يصحُ بعد. مسرعًا ذهب يحيى لالتقاط هاتفه ليرى من من المتصل، لكن الاتصال انتهى على الفور. أضاء هاتفه، فيما بحث في قائمة المكالمات الواردة عن آخر اتصال، فإذ به لم يجد أي مكالمة واردة قبل نحو دقيقة. شعر يحيى بالريبة من ذلك الأمر، فلقد سمع هاتفه يرن قبل لحظات، مع ذلك، فإن آخر اتصال وارد كان نهارًا. **عجبًا، كيف ذلك؟** قال يحيى إلى نفسه، بينما يدعك عينيْه بشدة. ظن أنه لا يزال نائمًا، حيث رأسه لا يزال ثقيلًا. ثم اغته دوارٌ وألمٌ فظيعٌ بمفاصله. بينما هو على تلك الحالة من الوعي واللاوعي لمح الوقت في هاتفه، فإذ به في تمام العاشرة والثلث مساءً.

- يا ربّي، كيف مر الوقت سريعًا هكذا؟ لم أنتبه البتة إلى الوقت بساعة الحائط طيلة تلك المدة التي كنتُ أحملق بها في حين أستعيد الذكريات. لا، لا أقوى على التركيز، آه، أشعرُ بعقلي يتخبط وكأنه مشوش للغاية.

هكذا تحدث يحيى إلى نفسه في فزع.

فورًا، ذهب يحيى ليغسل وجهه المرهق. لقد تأخر كثيرًا. كان عليه أن يستيقظ أبكر من ذلك، في الثامنة مساءً. حتى أنه تذكّر قيامه بضبط ساعة الحائط المزودة بمنبه لتدق في الثامنة تمامًا، كما خطط. ماذا حدث لها جعلها تتأخر ساعتين لتوقظه؟. أم يبدو أن القدر تعمد ذلك ليؤخره عن ميعاده. لم تعد هنالك فسحةٌ من الوقت، وعليه أن يسرع للتوجه إلى المطار في أسرع وقت ممكن. كذلك ظل يقنع عقله بأنه يجب أن يصرف عنه تلك الأفكار المتشائمة نتيجة حُلمه المروع. أخيرًا اقتنع أن ذلك يبدو منطقيًّا؛ نتيجه التوتر الشديد الذي يمر به بسبب تلك الزيارة الرسمية المكلف بها إلى السودان. لذا قرر أن ينفض عن رأسه غبار التشاؤم، فهمّ بالأسراع حتى لا تفوته الطائرة.

سكب يحيى الماء على وجهه بكل جهد، ثم تردد، حينما ساورهُ خاطرٌ بأن عليه الحصول- أولًا- على حمام ماء بارد ليستفيق. بينما ذلك الكابوس المرعب لا يزال يدور في خَلَدِه، راح يغسل أسنانه بالفرشاة، فوضع عليها القليل من المعجون، ثم بدأ باستعمالها. ثم شرع بتمشيط شعره، وبينما هو كذلك، استرق البصر إلى المرآة، فأطال النظر فيها. بعد قليل، بدأ يشعر أنه مسلوب الشعور بالزمن. لقد أحس الوقت ينتظر عند تلك اللحظة. فجأة، شعر يحيى بهبوط مفاجئ في ضغط دمه، فيما عيناه أصابهما شيءٌ من الزغللة، ويداه صارتا ترتعشان بحدة. خلال ذلك، أحس ببرودة في أطرافه، وكأنما ستتجمد كقطعة ثلج. ثم ارتأى أمامه- على نحو مفاجئ- دوامات هائلة، تدور حول بعضها في فلك عجيب. في تلك الأثناء، تسارعت ضربات قلبه، ما جعله يشعر كأنما يدور معها، بينما كل شيء من حوله يدور كذلك في أفلاك بعيدة، تسحبه رويدًا إلى ما لا نهاية. أضحت الدنيا تدور به، بينما

هو على هيئته، واقفًا أمام المرآة، متصلبًا في مكانه، ينازع ليسترد وعيه، مجاهدًا لتحريك قدميه اللتين باتتا وكأنما أحدٌ قد ثبتهما بالأرض بمسامير نافذة.

- لا أقوى على غلق عيني. لا أستطيع، لا أعرف ماذا يجري معي؟ لقد تأخرت كثيراً عن ميعاد طائرتي، لكن من الجيد أنني انتهيت مسبقًا من إعداد أمتعتي، لم يبقَ سوى حقيبتي الصغيرة، سأذهب لانتهي من وضع أوراقي ومتعلقاتي المهمة بها، لا، لن أنسى أخذ حاسوبي اللوحي الصغير معي.

كان قلب يحيى يخفق بتطرف، في حين يكتب تلك الرسالة إلى صديقه عادل.

مضطربًا، ارتدى يحيى ملابسه، وقد بدا كل شيء جاهزًا الآن. حتى تذَّكر فجأةً أن سيارته قد أصابها عطلٌ ليلة أمس؛ ولن يمكنه الاعتماد عليها لنقله إلى المطار. مسرعًا، فكر في الاتصال بصديقه عادل. جعل يبحث عن اسم صديقه في قائمة الأسماء الطويلة بهاتفه. بعد بحث مطَّرِد، وكأنه بات أثرًا بعد عين، وقع بصره عليه أخيراً. لكن الرقم يصعب الاتصال به. همس فؤاده في ارتياب: ما الخطب؟ خرج يحيى إلى الشرفة ريثما تعود الشبكة. ثم عاود الاتصال، بينما كان عادل يحاول مهاتفته. أجابه يحيى دون انتظار. بدا على حس عادل الانفعال الشديد، حيث أخبره بأنه يحاول الاتصال به مرات عدة منذ العصر، بينما- في كل مرة- كان يجد هاتفه مغلقًا. انتابت يحيى القشعريرة. أجاب صديقه بأنه لم يغلق هاتفه مطلقًا، وحتى عندما استيقظ من نومه لم يكن مغلقًا، بل كان مضاءً على الشحن. اندهش عادل كثيراً من كلامه؛ لذا راح يسأله مستنكرًا:صديقي، ماذا تقول؟! هل أنتَ في كامل وعيكَ؟ أقسم لكَ أنني اتصلت بك عدة مرات دون أي جدوى، وهاتفك دومًا يعطيني مغلقًا.

يحيى: عادل، من فضلك، أخبرني متى كانت آخر مرة اتصلت بها؟ أجابه عادل بنبرة متعجبة: **من نصف ساعة تقريبًا. بشيء من الفزع سأله يحيى مجددًا: عادل، اسمعني، انظر- الآن- في هاتفكَ، وأخبرني تحديدًا... بانفعال شديد قطع عادل سؤاله صائحًا: دعكَ- الآن- من هذا الجدال الفارغ الغير مجدي، فقط أخبرني هل نسيت ميعاد طائرتك أم ضرب النوم على أذنكَ؟! زملاؤنا المرافقون لكَ- جميعهم- قد وصلوا المطار لتوهم، وبينما هم في انتظاركَ اتصلوا بي وأبلغوني بأنهم لم يتمكنوا من الوصول إليك. يحيى، إن رحلتكَ في تمام الثانية صباحًا، والآن الساعة تشارف على الحادية عشرة، ماذا تفعل كل ذلك، يا صديقي؟! هل بكَ عارض؟! لقد أكدت- أنت- بنفسك على أن أوقظكَ باتصال مني، كما طلبت أن آتي إليك لأنقلك إلى المطار بعد أن أنهي عملي، فهل تتذكر ذلك؟**

يحيى مُتلجلجًا: نعم، أتذكر ذلك جيدًا، لكن لا أعرف ماذا حلَّ بي؟ تذكرتُ- فقط- لتوي أنني أكدتُ عليك ألّا تتأخر على؛ لأن سيارتي تعطلت بالأمس. أووه، لكنكَ لم تأتِ بعد. ثم أضاف يحيى مندهشًا: إذن، أخبرني أين أنتَ الآن؟ أجابه عادل معتذرًا بلطف: آسف بشدة، يا يحيى، كان عندي ضغط عمل كبير هذا اليوم، ولم أتمكن من الاستئذان للمجيء إليك، ثم إني كنتُ أتصل بكَ منذ فترة كي تأخذ ذلك في حسبانكَ. بنبرة حادة سأله يحيى مجددًا: الآن، أخبرني أين أنتَ؟! إنني أسألكَ.

عادل متنهدًا: أنا على الطريق الدائري السريع، وأمامي ما لا يقل عن ساعة تقريبًا حتى أصل إليك، هناك حادث ضخم بمنتصف الطريق، وقد توقف المرور بشكل تام الطريق على إثر ذلك، لا أستطيع التحرك نهائيًّا، السيارات كلها من حولي متوقفة، لقد علقت في مكاني يا يحيى. بغضب، قال

يحيى:ماذا تقول؟! ساعة كاملة؟! هل أنتَ تتهرب؟!

عادل منزعجًا: "أتهرب من ماذا؟! لا، أنتَ لستَ بأفضل حال، أقول لكَ الطريق مغلق، هل تفهم ذلك؟! أتريدني أن أخبركَ. انتظرني وأنا أعلم يقينًا أنني سأتأخر عليك؟ **تمالك يحيى أعصابه، ثم تساءل في ضجر: إذن، ما العمل الآن؟! لقد تورطت. أجاب عادل متحمسًا: هَدِّئ أعصابكَ، لا عليك، أعرفُ سائقًا بوسط القاهرة الآن، أغلقت معه لتوي، سأعيد الاتصال عليه- فورًا- وأخبره أن يُسرع إلى شارع القصر العيني، لا تقلق، سيكون بالعنوان في الوقت المناسب، لكن اسمعني، سأعطيه رقمكَ، لذا تأكد أنه متاحٌ، ليبلغكَ عندما يكون أسفل عمارتكَ.**

أثنى يحيى عليه كثيرًا، وحمد الله على ذلك. وأخبره أنه بصدد الاستعداد للرحيل، في حين أنهى التحضير لذلك. ثم قال له إنه سيهبط بالحقائب إلى الأسفل؛ ليكون في انتظار السائق. همَّ يحيى بإخراج حقائبه من غرفة المعيشة. على عجل، تأكد من أنه لم ينس أي شيء. ولطبيعته المسوسة- قليلًا- جعل يفتح الحقائب مجددًا؛ لفحصها؛ مستغلًّا بعض الوقت المتاح، حتى يصل السائق. كان يحيى قلقًا للغاية، يزرع المنزل يمينًا ويسارًا؛ للتأكد من أن كل شيء يمضي على ما يرام. بعدئذ، باتت الحقائب جاهزة أمام الباب. لكنه شعر برغبته في فنجان قهوة تركي يمنحه قسطًا وفيرا من التركيز. أسرع والجًا إلى المطبخ. سريعًا راح يعدّها، ثم انتظر أمام الموقد لحظات حتى غلت. خرج إلى الشرفة ليدخن قليلًا ، في حين يحتسي القهوة في الهواء الطلق. بطيئًا شعر بالسكينة عندما تنسَّم بعض الهواء العليل. إنها نسمات مارس الربيعية الدافئة، ما أروعها. ثم أرسل يحيى رسالة نصية إلى عادل يسأله هل تأخر السائق. فجاءه الرد بأنه في طريقه إليه في غضون عشر دقائق. أنهى يحيى تدخينه، واستعد للنزول. في تلك الأثناء، جاءه هاتف من رقم غريب، فأجاب

مسرعًا: **ألو.. أيوة حضرتك، أنا نازل فورًا.**

-'' **يا يحيى، أنا عادل، وهذا رقم العمل، لم يبق معي رصيد، السائق أخبرني أنه اتصل بكَ فأعطاه رقمًا خاطئًا، لا أعرف كيف الخطأ؟! لكن، هيا، أسرع، ربما هاتف السائق سوف يفقد شحنه كما أخبرني، وهو الآن ينتظرك بالأسفل، هيا شهِّل.**

انطلق يحيى فورًا إلى باب المنزل، ففتحه على مصراعيه، وجعل يخرج أمتعته، لكنه تذكَّر أنه ترك هاتفه على الكرسي في الشرفة. خاطب عقله بزهق: **تبًا لذلك التوتر اللعين الذي يفقدني صوابي.** ترك يحيى باب المنزل- هكذا- منفتحًا على مصراعيه، وأسرع إلى الشرفة لالتقاط هاتفه. ثم عاد مسرعًا؛ فإذ به يتجمد مكانه مصعوقًا. ذلك حينما اكتشف جثة ملفوفة- بالكامل- بكفن أبيض، مُلقاه أمام عتبة منزله.

- **مستحيل، مستحيل، هذا أمرٌ مستحيل.**

(3)

من نافذة ضيقة بين جفنيْه، أبصر يحيى نفسه يرقد ملتحفًا بغطاء شديد البياض. ببطء شديد وثقيل كذلك، أخذ يحيى يجاهد موسعًا حدقتي عينيه. حينئذ أدرك أنه راقد بغرفة فندقية بالمركز الطبي العالمي. رويدًا، وعى أن هنالك أشخاصًا يلتفون حوله، في حين ينظرون إليه بشغف، وقد امتلأت أعينهم بالقلق. لقد كانوا يتهامسون فيما بينهم بكلام لم يتضح إليه بادئ الأمر. تدريجيًّا، شعر يحيى بأنه يستعيد روحه وإحساسه بجسده؛ ذلك عندما حاول تحريك ذراعه، فكاد أن ينزع المحلول المعلق المثبت بوريده.

- **آه، كم مضى من الوقت، وأنا هنا؟! آآه، أحسُّ فيه بألم شديد في ساقي يمنعني من تحريكها.**

انتفض الجميع من حوله، فأمسكوا به حتى لا يحرك المحلول المعلق. بصوت متداخل متهدج، صدح الجميع قائلين: **يحيى، حمدًا لله على سلامتك.** اقتربت غادة منه بحذر، وقد اغرورقت عيناها بالدمع. وضعت يدها على كتفه، بينما تقول: **أخي العزيز، الحمد لله على قيامك بالسلامة، أخبرني كيف تشعر الآن؟**

خفض يحيى رأسه ببطء، فقبَّل يدها. ثم نظر تجاههما، وقال بصوت سقيم: **أنا لست بخير، ألم شديد بساقي يزعجني، أختي، ماذا حدث لي؟** حينها حاول يحيى مجددًا تحريك يده بانزعاج، فصاحوا جميعًا كي يهدأ.

عاد يحيى متسائلًا في هلع وريبة: **لماذا لا يجيبني أحد؟! ما الذي ألقى بي هكذا؟! أخبروني.**

قال عادل الذي وقف إلى يساره، محاولًا تهدئة روعه: **يحيى، هذا الانفعال خطر عليك.**

ازداد انفعال يحيى، وأراد تحريك قدميْه، محاولًا النهوض، فلم يستطع. فأخذ يصيح "**ماذا أصابني؟! أخرجوني فورًا الآن.**

أسرع عادل لاستدعاء الممرضة، في حين أجابته غادة محتضنةً رأسه: **حبيبي، أنتَ بخير، لا داعي لكل هذا الفزع الذي ينتابك.**

رجع عادل ومعه الممرضة، فأسرعت الأخيرة نحو يحيى. ثم غرزت حقنة المهدئ في المحلول المعلق. ثم قالت مبتسمةً: **كيف هو حالك الآن؟! تبدو أفضل من السابق، فقط، حافظ على هدوئك، فلا داعي للعصبية المفرطة التي تقوم بها.**

يحيى: أنا أتساءل، ولا أحد يريد إجابتي، لماذا أنا هنا؟

الممرضة: **أنت بخير، تعرضتَ لحادث بسيط، وقدر الله لك النجاة، وهذا يدعوكَ للرضا لا الغضب.**

قال يحيى مذهولًا: حادث؟! متى حدث ذلك؟! لا، لا بد أن أغادر هذا المكان البغيض، أنا لا أحب المستشفيات، ولا أطيق البقاء هنا هكذا. ثم استطرد قائلًا: **لكنني لا أقوى على تحريك قدمي، أشعر بألم فظيع بها، يبدو أنه كان حادثًا مروعًا. غادة، أرجوكِ، أخبريني أرجوكِ، هل بترت ساقي؟! لا أكاد أشعر بها.**

أنهت الممرضة دورها، وبينما هي تستعد للانصراف، قالت بكل هدوء: **لا تقلقوا، هذا من تبعات الغيبوبة، سيكون بخير، بعد إذنكم.**

وخرجت على الفور.

اقترب وليد- زميل يحيى بالجريدة- من يحيى، في حين قال: **ها، يا بطل، هل تشعر بتحسن الآن؟! لقد فزعنا عليك كثيراً، يا أخي. في وقت سابق، اتصل بي- زميلنا- عادل وأبلغني أنك أُحضرت إلى هنا في سيارة إسعاف، لم يكن هنالك وقت لمعرفة المزيد، كنت في العمل حينها، فاستأذنت مسرعًا، بعد أن أبلغت أستاذ وحيد بخبر حادثتك.**

قاطعه الأستاذ وحيد- رئيس التحرير- مازحًا بصوت ضاحك: **إذا لم تهدأ الآن سنذهب جميعًا، ولن يأتي أحد لزيارتك مجددًا.**

عادل مقهقهًا: **نعم، وستقبع ها هنا وحيدًا، أليس كذلك يا غادة؟** تنهدت غادة بعمق، في حين تمسح على رأس يحيى، قائلةً بصوتٍ شابه القلق: **بالطبع، لن أفعل، دعكَ منهم، إنهم يمزحون، أنا لن أتركَ حتى اطمئن عليك. ياه، أحمدُ الله كثيراً على أنه حفظه لنا سالمًا وأنجاه من ذاك الحادث البشع.**

مضت لحظات، شعر يحيى خلالها بالهدوء، وسكنت آلامه. أنزل يحيى يد أخته، ثم ضمّها بكِلتا يديْه، ثم قال معقبًا "**حفظكِ الله لي، أخبريني- يا اختي- كيف حدث ذلك؟** تلعثمت غادة، فنظرت إلى عادل، ثم قالت غامزةً: **سأترك عادل يروي لكَ.**

ثم طرق أحدٌ الباب فجأةً، فأسرع وليد نحوه ليفتح للطارق.

- السلام عليكم جميعًا، كيف حالكم؟

أجابت غادة: **طارق، تفضَّل، تعال.** ثم قدَّمته للحضور قائلةً: **هذا طارق، زوجي.** ولج الرجل، وصافح الجميع. ثم اقترب من يحيى، ملقيًا عليه السلام، فردّ يحيى عليه التحية. عاد طارق ليقول: **غمة وتزول، وستقوم لنا بألف سلامة بأمر الله. وتعود إلى حياتكَ وعملكَ بشكل طبيعي قريبًا.** فصاح يحيى- فجأةً- بصوت صارخ: **تذكرتُ، تذكرتُ.**

تبادل المحيطون النظرات بدهشةٍ، حتى أضاف يحيى قائلًا: **المؤتمر، الطيارة. لا بد أن أذهب إلى المطار في الحال. أستاذ وحيد، على أن ألحق بالوفد المسافر إلى السودان لحضور المؤتمر الصحفي كما أعددتُ لذلك.** قَطَبَ الأستاذ وحيد، في حين يقول متحيرًا: **لا، بل ستبقى هنا حتى تسترد عافيتك، ولا تشغل بالك بالعمل، الأمور تسير على ما يرام.**

صمت يحيى لوهلة، حتى علَّق بائسًا: **أتعني أنني لن يتسنى لي حضور المؤتمر الذي أعددت له كل عدة؟** ثم استدار يحيى ببصره إلى عادل، في حين يسأله عن الوقت. فعاد يحيى ليقول صائحًا: **الحادية عشرة مساءً! ستُقلع الطائرة بعد ثلاث ساعات.**

لم يجد عادل بدًّا إذن، فنظر إلى يحيى، وقال: **أنا لا أعرف بالتفصيل ما حدث في تلك الساعة الغامضة. كل ما أعرفه أن آخر مكالمة معكَ أخبرتَني أنك تستعد للنزول بحقائبكَ. بينما أكدتُ عليك بالإسراع.** تَبِعه رئيس التحرير قائلًا: **كانت طائرتكَ التي حجزتها لكَ الجريدة في تمام الثانية صباحًا، قبل الموعد بثلاث ساعات ذهب كل زملائك المرافقين لكَ إلى المطار، حتى أنهوا الإجراءات كلها، لقد أبلغوني أنهم كانوا في انتظاركَ حتى تأخر الوقت كثيرًا، واقترب ميعاد الصعود للطائرة، حينها تلقيتُ اتصالًا من المصور يخبرني أنهم يحاولون الاتصال بك دون جدوى. أغلقت معه على الفور، وتأكدتُ بنفسي أن هاتفك مغلق، لذلك أسرعت بالاتصال بعادل لأستفسر منه، فقال لي بأنكَ في طريقكَ إلى المطار، بل قال إنه من المفترض أن تكون قد وصلت بالفعل في اللحظة التي كنا نتكلم فيها.**

قاطعه عادل قائلًا: نعم، حدث. وأمّا السائق فكان لا يجيب هو الآخر. ما أثار الشكوك في صدري، وأصُبت بالحيرة والقلق. بعدها انتظرتُ قليلًا حتى

عرفتُ أن الوفد قد صعد إلى الطائرة عدا يحيى، عندها فكرتُ لربما أن عارضًا طارئًا قد تعرض له يحيى منعه من عبور منطقة الجوازات، لم يخطر ببالي مطلقًا أن مكروهًا قد حدث معكَ، ثم في تمام الثانية صباحًا جاءني هاتف من المركز الطبي يخبرني أن حادثًا وقع لأحد الأشخاص، وبفحص هاتفه عثروا على رقمي، حيث كان آخر اتصال أجراه المتوفي، وعندما استفسرت عن اسمه أخبروني عن السائق، تجمدت أطرافي ساعتها عندما وصفوا لي يحيى الذي حضر معه بسيارة الإسعاف، سألتهم فورًا ماذا حدث معه، فأخبروني بأنه في حالة سيئة وقد أمروا بإدخاله العناية المركزة حيث يكافح نزيفًا حادًّا بالمخ قد يودي بحياتك.

استمع يحيى إلى هذه الرواية المؤلمة في صمت مطبق، حتى قال بصوت حزين: **الآن فهمت، لقد نجوتُ من حادث بشع، بعد أن انفجرت الطائرة، وسقطتْ في الصحراء.**

لم يفهم أحد ما يقول، فيما اتشحت وجوههم بالغموض؛ فعقبت غادة قائلةً بهدوء: **حبيبي، اسمعني جيدًا، أنت لم تصعد للطائرة أصلًا، لقد انقلبت سيارة الأجرة على طريق المطار، ولقي صاحبها مصرعه على الفور، فيما قدّر الله لكَ عمرًا جديدًا، وأرى من الأفضل ألّا تعيد تذكُّر ما حدث.** عبس يحيى عبوسًا، وغمرته الدهشة من فاجعة ما يسمع، وجعل يُحِد النظر إليهم في رَوْعٍ. فيما لاحظوا عليه- جليًّا- سيماء اضطراب ما بعد الصدمة.

بعد لحظات قليلة، ارتعش هاتف يحيى، فأسرعت غادة بالتقاطه. نظرت خلاله، فوجدت مكالمة فيديو واردة من أشرف زيدان، الأخ الثالث غير الشقيق ليحيى وغادة، والمقيم مع زوجته المغربية، وأبنائهما في باريس. أشرف يعمل مستشارًا قانونيًّا مختصًّا بشؤون اللاجئين العرب، كما يتطوع بالعمل

خبيرًا حقوقيًّا مستقلًا بالأمم المتحدة معنيًّا بحقوق الإنسان في فلسطين. يُذكر أن ليحيى وغادة ثلاثة إخوة ذكورًا غير أشقاء من والدهم الحاج عبده زيدان الصرماتي[1]، بالإضافة إلى أختيْن أخريَيْن غير شقيقتين، انقطعت علاقتهما بهما منذ زمن. فيما مضى أخفى الحاج عبد هـ-عن أبنائه من زوجته الأولى- نبأ زواجه -في عمرٍ متقدم- بأخرى - ربيبة التاجر الأردني- تصغره كثيرًا. لقد ظل هذا الأمر مُخبَّأً لعقد من الزمن، حتى أتيحت له الفرصة؛ لإفشاء السر، بعدما توفيت زوجته الأولى. إن أشرف يعتبر أكثر إخوته قربًا ليحيى، بعكس أخيه الثاني مروان، الذي يدير مصرفًا حكوميًّا في الإمارات العربية المتحدة. وفي المقابل، فقد تعقّدت العلاقة بين أشرف وشقيقه الأكبر - وزير الآثار الأسبق- على إثر خلاف عميق قديم جدًّا حول علاقة غرامية، حيث وقف الوزير الأسبق حجر عسرة في سبيل زواج أشرف- أثناء دراسته للحقوق- بزميلة له -من عائلة مصرية نبيلة، ذات أصول يهودية، أشهرت إسلامها حديثًا- قد وقع في حبها، لكنه اكتشف-لاحقًا- أن شقيقه الأكبر الموتور- المحاضر بكلية الآثار وقتها- كان يحاول خداع تلك الفتاة، دون علم أخيه، لاستدراجها وإيقاعها في غرامه؛ محاولًا التستر خلف هوية مغايرة؛ للوصول إلى وثائق يهودية نادرة، وقلادة أثرية ثمينة، استولى عليها- خُلسةً- أبوها -تاجر الأنتيكات الثري ذو الأملاك- الذي تسبب في تهجيرهم قسريًّا من بنايتهم القديمة المتهالكة، الواقعة في حارة اليهود في حي الجمالية، مطلع ستينيات القرن الماضي؛ بزعم أنها آيلة للسقوط؛ لإقامة فندقٍ على أنقاضها. في الوقت الذي قرر فيه الشقيق الأكبر الانتقام منه، لم يأخذها أشرف- العاشق- بجريرة أبيها؛ فأنساه الولوع بها كل شيء، وأسقطه الوجد في شباكها، وأركعه الشغف تحت قدميها، لكنها- بالنهاية- هجرته، وسقطت- هي- في غرام شقيقه، الذي مكر بها أشد المكر.

(١) الذي يقوم بصنع الأحذية أو تصليحها في اللهجة العامية المصرية القديمة.

وبالرغم من ذلك، فقد غفر لها أشرف ما فعلته في حقه، وظل قلبه متعلقًا بها، في الوقت الذي بقيَ معاديًا لشقيقه أمد الدهر.

أبدى يحيى سعادة بالغة لاتصال أشرف به، وبعد أن أكد له بأنه يتماثل للشفاء، ولا داعي لنزوله مصر للاطمئنان على صحته، أنهى أشرف حديثه معه قائلًا: **أنا سعيد للغاية لاطمئناني على سلامتك، يا يحيى، وأسأل الله القدير أن يتم شفاؤك على خير، لكن لا تتردد أبدًا بالاتصال حالما تحتاج إلى أي مساعدة، وعما قريب سأحاول المجيء إلى مصر لزيارتك، أخي العزيز، إلى لقاء.**

بعدئذ، تنبه يحيى، فرفع يده مشيرًا لرئيس التحرير قائلًا: **أستاذ ممدوح، أخبرني من فضلك، ماذا عن المؤتمر الصحفي الذي يفترض أنه سيعقد صباح هذا اليوم؟ كيف استدركتم الموقف؟ وهل تمكنتم من حضوره؟** أجابه أستاذ ممدوح ضاحكًا: يا أخي، انشغل بصحتك، فهي الأهم لنا الآن، ولا تفكر كثيرًا، المؤتمر- بالفعل- سينعقد بعد لحظات، وكل شيء يجري على ما يرام، فقط لا أريدك أن تشغل فكرَك في مجريات الأمور بالعمل الآن، المهم أن تستريح حتى تتمكن من العودة إلى عملك في أقرب وقت ممكن، ولتعلم أننا جميعًا في انتظار عودتك على أحر من الجمر.

وبينما غادة تطّلع في هاتفها، إذ صاحت فجأة: **جماعة، انظروا، المؤتمر الصحفي ينعقد الآن في بث مباشر على اليوتيوب.** فاستمعوا جميعًا منصتين إلى خطاب الرئيس المصري، بينما يؤكد على التوصل إلى إعلان اتفاق المبادئ العامة، حول سد النهضة، بين دول حوض النيل الثلاث. ثم انتهى البث، بعد أن أمسك الرؤساء الثلاث بأيدي بعضهم البعض، في إشارة ما إلى الإعلام، على تحالف وطيد جديد. لقد بدا- على هذا اللقاء التاريخي المهم- أنه انتهاء

للأزمة الناشئة بينهم، وبداية انفراج لذلك الخلاف المحتدم.

استحسن رئيس التحرير ما جاء في اللقاء، فيما بدا على عادل الامتعاض، فقال معقبًا: **إن الكثير من بنود هذا الاتفاق تبدو مبهمة وغير ظاهرة. من الواضح أن مصر قد أقرَّت بحق إثيوبيا في بناء السد. فيما يعتبر تنازلًا صريحًا عن حقها في الدفاع عن أمنها المائي. سيد وحيد، إنه- فيما يبدو- بمثابة إطلاق إشارة البدء في أعمال بناء وتشييد هذا السد العملاق، أخشى ما أخشاه أن تكون مصر قد رضخت لضغوط إثيوبيا. وغضت الطرف عن المحاولات الخبيثة لتهديد أمن بلادنا، إننا نتعرض لخطر قومي داهم ووشيك. وربما سوف نكون على أعتاب فقر مائي وقحط شديد بنهاية العام ٢٠٢٠ عندما يبدأ العمل على ملء خزان السد. وهذا الاتفاق- أبدًا- لا أظنه سيكون الحل في إنهاء الأزمة..**

لحظات وعاد البث المباشر من جديد. ظهر خلاله الرئيس المصري يتحدث إلى أحد الصحفيين. انتزع يحيى الجوّال من يد غادة، ثم صاح قائلًا: **عادل، انظر، أليس هذا هو زميلنا مهاب؟** اقترب عادل منه، ثم أجاب: **بلى، إنه مهاب، زميلنا الجديد الذي وقع اختياركَ عليه ليسافر معكَ ويساعدكَ في كتابة التقارير**. ثم رفع عادل صوت الميكروفون؛ لينصتوا لحديث الرئيس المصري في حين يقول: **كونوا مطمئنين تمامًا.. في إثيوبيا.. في السودان.. في مصر. لقد اتفقنا، ليس هناك ضرر على أحد. مصلحتنا جميعًا مشتركة، ونحن نتكلم كدولة واحدة.** ثم وجه مهاب إليه سؤالًا: **سيادة الرئيس، هل يعني ذلك أن الأزمة قد انتهت؟** فضحك الرئيس المصري، بينما أجاب معلِّقًا: **ليس هناك أزمة أصلًا، مبروك.**

ثم توقف البث.

بعد لحظات، سُمعت جلبة غريبة بالخارج، تتزايد كلما اقتربت من الغرفة. وعلى نحو مفاجئ، اندفع باب الغرفة بقوة، فاقتحمها رجلان مفتولا السواعد، ثم انبثق عنهما السيد ممدوح زيدان، وزير الآثار الأسبق، في أبهة، يتبعه مدير المركز، وعدد غفير من الطاقم الطبي.

قفز الجميع عن مجالسهم، في حين فزع رئيس التحرير مرحِّبًا بقدومه. لم يشعرا- وليد وعادل- بأنه مرحب بهما، لذا أسرع عادل ليقول، في حين يطرق على كتف يحيى: **أعتقد أن وقت الزيارة المسموح به قد شارف على الانتهاء وعلينا المغادرة، لكن لا بأس، سأعود إلى زيارتكَ مساءً.** لكن يحيى صاح قائلًا: **عادل، من فضلك، انتظر، أرغب في التحدث إليك على انفراد.** بيد أن عادلًا بدا منزعجًا لوجود معالي الوزير، لذلك همس في أذن يحيى قائلًا: **لا بأس، سأنتظر في الخارج حتى يرحل.**

لم يبدُ على يحيى أي اهتمام بمجيء أخيه الأكبر. مؤخرًا، توترت العلاقة بينهما، على خلفية ادعاء يحيى له بأنه وراء التحريض على زميلٍ لهم، متسببًا في الزج به إلى غياهب الاعتقال، بتهمة الانتماء لجماعة محظورة. حدث ذلك بعد استقصاء صحفي بثّه في مقالة نشرتها الجريدة؛ جاءت على ذكر السيد ممدوح، زعم خلالها أنه متورط في التغطية على عملية سرّية لتهريب آثار، عبر حاويات دبلوماسية، حدثت إبان توليه الوزارة.

استقبل يحيى السيد الوزير بجفاء شديد، لاحظته غادة؛ التي ابتهجت أساريرها لمقابلته. حاولت غادة تلطيف الأجواء؛ لذا قالت مادحةً بصوت متذبذبٍ مضطرب: **لقد زارنا النبي، نوّرت المكان معالي الوزير، أليس كذلك، يا يحيى.** ثم تبعها زوجها قائلًا: **معالي الوزير، لا تبدو مختلفًا كثيراً عن طلتكَ بالشاشات، فقط، ما يبدو مختلفًا تلك الهالة من الهيبة التي تصحبكَ عند**

رؤيتي لكَ وجهًا لوجه لأول مرة. ثم ضحك بتكلُّف. أمسكَ يحيى بهاتفه غير مبالٍ، ثم اقترب منه الوزير قائلًا: **لقد جئتُ خصيصًا لأاطمئن عليك بنفسي، لا تقلق نهائيًّا، الجميع هنا في خدمتك ورعايتكَ.**

اخترق مدير المركز الجموع قائلًا: **بالطبع، معالي الوزير، إننا هنا ساهرون على راحته حتى يسترد عافيته.** ثم صاح بالممرضات، ليطّلع على تقرير يحيى الطبي، فعاد قائلًا: ممتاز، أصبحنا أفضل بكثير عما سبق، لقد أنقذه فريقنا الطبي من غيبوبة دامت ساعات.

علّق يحيى قائلًا بهدوء: **زيارة سارة معالي الوزير، أشكركَ لاهتمامكَ، أطال الله عمرك، وما أرانا بكَ سوءًا.**

لم تستمر الزيارة عدة دقائق محدودة، حتى انصرف الوزير الأسبق.

خرج الجميع من الغرفة، مودعين السيد ممدوح. ثواني معدودة، ثم ولج عادل الغرفة من خلفهم، عائدًا إلى يحيى، الذي بدا عليه الانشغال بأمرٍ مهم. سحب عادل مقعدًا لجوار يحيى، في فضولٍ جم؛ لمعرفة ما الخطب الذي رغب يحيى في التحدث بشأنه منفردًا إليه. لم ينتظر يحيى، حتى قال: **عادل، أنت أقرب صديق لي، وآخر شخصٍ تحدثتُ إليه قبل الحادث، إنني اتذكر ذلك جيدًا. حديثنا في ذاكرتي كأنه منذ ساعة، عادل، أرجوكَ، أنصت إلي جيدًا. أنا لا أتذكر كيف وقع الحادث بالضبط، بل حتى أنني لا أتذكر عن أي سيارة أجرة تتحدثون، ولا حتى سائقها الذي لقي مصرعه.**

توجس عادل رعبًا من كلامه، لكنه علّق هادئًا: **ربما هذا أمر طبيعي، يا صديقي، الحادث أصابكَ بنزيف على المخ.. وهذا على الأرجح يتسبب بمشاكل بالذاكرة ومراكز الإدراك عندكَ. لكن لا داعي للهلع، سوف تتماثل للشفاء سريعًا، بإذن الله.** قاطعه يحيى متضجرًا: **يا صديقي، أنا بخير، ولم**

أفقد الذاكرة. عادل، ما سأقصُّه عليك الآن ربما يكون دربًا من الجنون، هل أصابني الجنون حقًا؟! أخبرني، يا صديقي.

ذرفت عينا يحيى بعض الدمع، وتلألأت في حزن مريب. فاندفع عادل متعجبًا: **جنون؟! لا أنا لا أفهم شيئًا، لما تقول هذا الهراء السخيف؟! ماذا يستدعي ذلك؟** أومأ يحيى برأسه ممتعضًا، بينما يقول: **سأخبركَ، لقد تذكّرتُ أمرًا، وليس كما تقول إنني فقدتُ بعضًا من ذاكرتي، لكن الحقيقة، أنه ربما سوف تستدعيني الشرطة في أي وقت.** فصاح عادل مندهشًا: **الشرطة، لمَ؟! هل ارتكبتَ عملًا إجراميًّا دون أن يعلم أحد؟** وفجأة، انفجر يحيى باكيًا **وقال: لا، لا، أقسم لكَ، لستُ أنا.. ولا أعرف من القاتل.**

انصدم عادل لما يسمع، فقال: **يحيى، أرجوك اهدأ، أنا لا أفهم منك أي شيء. أخبرني بهدوء ماذا تقصد؟** فقصَّ عليه ما حدث:

"بعد أن أغلقتُ معكَ الاتصال، هممت بإخراج الحقائب. ففتحت باب منزلي على مصراعيه، ثم تذكرتُ- فجأةً- أنني نسيتُ شيئًا بالشرفة. تركتُ الباب مفتوحًا وأسرعت لجلب الهاتف، لكنني ما إن عدتُ حتى وجدتُ جثة ملفوفة بكفنٍ في إحكام، ملقاة قبالة الباب مباشرةً، أقسمُ لكَ، لقد رأيتها رأي العين.

فقال عادل مستهجنًا: **صديقي العزيز، ما تقوله دربًا من العبث، إنك- في واقع الأمر- تهذي نتيجة الصدمة، أوربما لا تعدو كونها ثمة هواجس بصرية أصابتكَ مؤخرًا من أثر القلق والتوتر المبالغ فيهما، والذي لاحظه عليك الجميع في الفترة الأخيرة. هذا غير معقول، ولا أريدكَ أن تفكر به، لأن ذلك سيرهقكَ ويزيد حالتكَ سوءًا. كل شيء سيمر، وستكون بخير عما قريب.**

لم يقتنع يحيى بذلك؛ لذلك عاد يردد: **عادل، أقسمتُ لكَ أنني لا أهذي،**

وأن كل حرف مما أقول ليس إلّا رأي العين، وما هي بأحلام يقظة، إنني أعي جيدًا ما أقول. أمسك عادل بكتفه في حنوٍ، في حين يقول مُهدِئًا له: **لا أظن أن هذا هو الوقت المناسب لذلك، وإن صدق حقًّا ما تقول، فمن المفترض- حتمًا- أن أحد جيرانك قد اكتشف تلك الجثة، وربما اتصل بالشرطة على الفور، وعليه فإن الشرطة كانت لتأتي- هنا- للتحقيق معك. أما وأن ذلك لم يحدث ولن يحدث، فاعلم أن ما تمر به مؤخرًا لا يرقى كونه إرهاصات وهواجس. لذا، فما عليك الآن فعله هو الهدوء التام. فيما لا تجعل أعصابكَ مشدودة دائمًا بكثرة التفكير، ولا تقلق، لياليَ معدودة وتعود إلى بيتكَ معافًا.**

نهض عادل من مقعده، وربط على قلب يحيى مودِّعًا:

- لا بد أن تعلم، يا بطل، أنكَ أهم صحفي عندنا في الجريدة. لذا، وجب عليك ألا تطيل غيابكَ عن العمل، هيا، في حفظ الله ورعايته.

ثم غادر على الفور....

(4)

في سرداب ضيق للغاية، بالكاد يستطيع المرء السير بداخله، وتحت تأثير ضوء خافت ممتد، يحتد مع التقدم نحو الأمام، ينبثق ضوؤه من مشكاة، فيها مصباح بنهاية الممر، يتوهج كشمعدان كبير متألق، تتلألأ شمعاته كنجمٍ دُرِّيّ، يسطع في الأفق الشاهق، كان يحيى يجر قدميه، ماضيًا في طريق لا يعلم نهايته.

حيث مصدر الضوء، على مرمى البصر، وجد نفسه يسلك ذلك النفق الغامض، الذي يكتنز عليه كلما عَبَرَ خطوة للأمام، مخترقًا حبال الضوء الزاخرة، المستقيمة كخيوط العنكبوت. ما جعله يشعر وكأنما يمضي في درب لا ينتهي. ناضل يحيى في المضي قدمًا بداخل السرداب المخيف، على أمل يسير أن يصل للمنتهى. مع الوقت، بدأ اليأس يتسلل إلى صدره الذي جعل ينتفض بحدة لاهثة، حتى أنه لم يكد يسمع أي أصوات سوى حسيس أنفاسه، وخفقات قلبه المتسارعة. في أثناء ذلك، لم يجد بدًّا من الاستمرار في المضي قدمًا، في حين لا يبلغ علمه كيف وصل لداخله.

كان العرق يتفصد بكثافة فوق جبينه، ثم فجأة انطفأ الضوء لوهلة قصيرة، لكنه عاد مجددًا، ثم عاود الكرة من جديد، حتى أضحى يضيء ويسرج مرات عدة في الثانيه الواحدة. في كل مرة يصاحب ذلك سماع أصوات مخيفة لخفافيش تزحف فوق رأسه دون أن يشعر بحركتها فعليًّا. ينبض القنديل المتوهج، بينما يتوالى- خلال ذلك- صراخ بوم مدوٍّ، ما أرغمه على وضع أصبعيْه في أذنيه؛ ليتفادى تلك الأصوات المخيفة، التي أرعدت فرائصه.

قطع يحيى شوطًا طويلًا بداخل النفق، دون أي جدوى لإيجاد مخرج قريب. اتضح أنه كلما ركض أكثر للأمام، اشتد الضوء واقترب مصدره. مع ذلك فهو ليس مؤمنًا بأن ذلك العذاب على وشك أن ينتهي. ساورته شتى الظنون. متى سيصل إلى نهاية الرحلة، وهل سينجو، وكيف سيعثر على المخرج. لا بديل إذن، لذا استمرَ بالركض رأسًا في اِسْتِحْثاث رهيب، في اتجاه الضوء البعيد؛ لعله يرشده إلى باب الخروج الكبير، آذنًا بانتهاء تلك المعاناة، وذلك الجحيم المتصل بلا انقطاع. وبينما كان يعدو بخطوات لاهثة، سمع صوتًا يناديه من بعيد. بدا للوهلة الأولى صوتًا أنثويًّا. كان حانيًا جدًّا، كأنه يهمس في أذنيه برفق. لكن صداه كان قويًّا وراعدًا. أسرع يحيى بالرد عليها صارخًا: **أنا هنا، ساعديني، أرجوكِ، أين أنتِ؟! أرشديني كيف الخروج من هنا أرجوكِ، ساعديني.**

انقطع الصوت الهادر لثوانٍ، حتى عاد من جديد مدويًا بنبرة أقوى وأشد، في حين تقول: **يحيى، ألا تراني؟! تعال، يا يحيى. أنا هنا. أسرع.. أنت تقترب.** ثم عاد لينقطع بعض الوقت، ثم اِرتد أقوى قائلًا: **يحيى، أُركض سريعًا.. لا تتوقف، اقترب... إنني أراكَ وأحرسكَ، تعال، يا يحيى، ادْنُ واقترب.** ثم توقف بعدئذ تمامًا. صرخ يحيى بصوت عويل متحشرج: **أرجوكِ، ساعديني، سأموت هنا وحيدًا. أرجوكِ.** ظل يحيى ينتحب بهلع، حتى وجد نفسه فجأة أمام باب حديدي ضخم، يتدلى فوقه سراج منير. كان ذلك الباب موصدًا بخمسة من الأقفال الضخمة المحكمة. كانت تحمل بقلبها مفاتيحها الخاصة. فطفق يدير كل مفتاح على حدةٍ، حتى إذا انتهى منهم جميعًا، اندفع الباب الشاهق بقوة إلى الوراء، فإذ به ينفتح على صرح مرتفع شامخ بلا سقف، ممتلئ بالكثير من العمدان الضخمة العالية، التي تكاد أن تناطح السماء فتلمس غمائمها الكثيفة.

بدا ذاك الصرح الضخم وكأنه قطعة معلقة في السماء. كان ممتدًا وشاسعًا لدرجة أن البصر لا يبلغ منتهاه. لم يكن هذا المكان محتشدًا بالبشر، بل رأى- هنالك- أشخاصًا هائمين يسيرون خلاله على مهلٍ، خافضي رؤوسهم في صمتٍ بليغ. لكن- على مقربة منه- شاهد مجموعات من البشر تتحلَّق في أماكن متفرقة.

كان هناك جمعًا من الناس يحتشدون أمام حائط شاهق، وضع البعض على رأسه قلانيس أرجوانية، فيما يرتدي آخرون طيالس بيضاء مطرزة بخيوط ذهبية. بدت رؤوسهم وكأنما تلمع بزينة خاصة. في حين يتدلى منهم ضفائر شعر طويلة جدًّا لامست الأرض. وقد تزينت صدورهم بقلائد ذهبية ضخمة وبراقة، تشع نورًا، وتتوهج ضياءً. كست أجسادهم سراويل سوداء حريرية، ذات ذيول طويلة للغاية، تغطي الأرض خلف ظهورهم، وتنجر وراءهم كلما تحركوا. كانوا يتمتمون بصلوات غريبة، فيما يحركون رؤوسهم إلى الأسفل بسرعات متفاوتة، وهم يقرأون من كتاب ضخم معلق في الهواء بلا سند، منفتح أمامهم، فيما يتجاوز طوله وعرضه عشرات الأمتار، يصدر عنه عسجدًا بديعًا كشفق الشمس الأحمر، ما جعلهم يشعّون ضياءً، كالبدر المضيء ليلة تمامه، فيما تتلألأ في ضيائه سراويلهم السوداء المنسدلة من أجسادهم، في مشهدٍ مهيب.

بينما كان يحيى يخطو في حيرة خلال ذلك المعبد الغامض، أخذ يلتفت يمينًا ويسارًا، وكأنما يستكشف خطبًا مريبًا. كان يلاحظ كل شيء من حوله بدقة متناهية. وفي أثناء ذلك، رأى تماثيل شتى، وأصنامًا كبيرة، بعضها لحيوانات، وبعضها الآخر لرؤوس بشر أو شياطين مذهلة. كانت منحوتة ببراعة محترفة، فيما كانت تشبه إلى حد بعيد تلك المنحوتات الخالدة لقدماء المصريين في

معبد الكرنك. عند أحدها، شاهد رجلًا قوي البنيان، شاهق القامة، عريض المنكبيْن، شديد بياض البشرة المقترنة بصفرة مقيتة، حليق الشعر، في حين كان يرتدي لباسًا ناصع البياض كالرهبان. لقد التف حوله ثلة من المتجمهرين، ينصتون إليه بإمعان، في حين كان يخطب فيهم بحماس. لقد رآهم يصنعون حوله حلقة بشرية، منجذبين لحديثه أينما انجذاب، منتبهين له أشد انتباه.

كان من الواضح أن ذاك الخطيب ذو شأن عظيم بينهم. لكن فيما كان يتحدث إليهم ذلك الرجل؟! لم يتسنَ ليحيى أن يقترب منهم ليسمع بشكل أوضح، في الوقت الذي كان صوت- ذلك الكاهن- منخفضًا للغاية، لكنه- في الوقت ذاته- حماسيًّا بشدة، حيث كان يلوِّح بعنف في اتجاهات عدة. يظن الشاهد القاصي أنه يصرخ فيهم بانفعال فظ، أو ربما يحذرهم من أمر ما جلل. في حين كان البعض يرفعون أيديهم، فيما يبدو عليهم الاعتراض على كلامه، وكان آخرون يتهامسون فيما بينهم، مصدرين جلبة حمقاء، لكن راحت الأغلبية تنصت له بإذعان شديد، مجلّين له إجلالًا، موقنين بصدق خطابه، يقينًا خالصًا، لا لبس فيه.

استمر يحيى يجول خلال ذاك الصرح العظيم، حتى رأي هنالك عددًا هائلًا من المسلمين يسجدون ويركعون. لقد عرفهم من تحية صلاتهم، في حين- هم- يكبّرون. كان عددهم بالغًا، لكنهم يصلون متراصّين، قدمًا بجانب قدم، بلا إمام يؤمهم.

قال يحيى في قلبه: **كيف ذلك؟! كيف لهم أن يصلوا جماعة بلا إمام؟! هذا أمرٌ عجب، يسجدون-هكذا- ويركعون معًا، في وقت واحد بانتظام متناسق، لكن بلا إمام يتبعونه، إن لأمرهم عجيب حقًّا.**

على مقربة منهم، رأى بضعة نساء بائسات، متجمعات بين عموديْن

شاهقيْن، تعلوهما لوحة معلقة في الهواء للمسيح بن مريم، تقطر دمعًا. كانت لوحة فنية شديدة البهاء والجمال، تحمل تفاصيل دقيقة لملامح المسيح وأمه، وقد رسمت في غاية البراعة والتصوير. كانت لافتة بحق، تجبر كل راءٍ أن يحدق فيها مليًّا، في حين يتأمل إتقانها، وألوانها المتناغمة، المنقوشة بتناسق عجيب. كانت تشع نورًا، في حين إطارها الذهبي يخطف القلوب. لقد تجمع بين هذين العمودين عددٌ محدودٌ من الخاشعات، يؤدين صلاة خاصة بهن، وقد وقف كبيرهن يحمل في إحدى يديْه شمعدان منير، به عدة شمعات تتوهج كالثلج، وفي اليد الأخرى، حمل صليبًا ذهبيا ثقيلًا، يدفع به إلى الأمام، راسمًا به، في حركات منتظمة وثابتة، صليبًا في الهواء.

لكن في آخر ذلك الصرح الكبير، في مكان منزوٍ وبعيد، رأى جمهورًا حاشدًا من الناس، يجلسون على أرائك فخمة، أمام فرقة موسيقية، تعزف لهم بعض المقطوعات الموسيقية المؤثرة فيما يبدو. كان حفل هادئ- إلى حد ما- لا صخب فيه. حتى أنهم- جميعًا- كاد يغلبهم النعاس، وكأنما تصيبهم غفوة رائقة بتأثير تلك المعزوفة البديعة. لقد تعرّف يحيى عليها. كانت عبارة عن موجات ألفا النقية عالية التردد، هادئة، ذات خواص استرخائية عالية. إنها تسكِّن الروح، وتصفِّي الذهن، فتنشِّط العقل. لقد لجأ إليها- أحيانًا- عندما يعاني من الأرق. كانت على رؤوسهم الطير، لكن ملامحهم تبوح بالغموض والحيرة. جلس يحيى في آخر الصف. نظر حوله، فوجد الجميع يَغُطّون في نوم عميق، مُطبقي الجفون، مائلين برؤوسهم إلى الأسفل، فيما بدا له أنهم في سبات خاطف. جلس يحيى يستمع إلى الموسيقى الصافية، ناظرًا أمامه في صمت مطبق. راح يفكر بعمق مشوب بالريبة، باسطًا كفيّه أعلى ركبتيْه. ثم انحنى برأسه قليلًا، فأغمض جفنيْه. فيما جعل جسده المثقل بالظنون يرتخي. شعر يحيى براحة في بدنه، وسكينة في جوفه. لحظات، وأحس أن جسده بات

مرخيًّا تمامًا، وعضلاته مهترئة على نحو ما. في حين بدأت روحه تتسرب من جسده بخفة ودعة؛ لتتحرر من أسر ذلك الجسد اللعين، فيما تنطلق برشاقة إلى الملكوت الشاسع، بينما جسده قابعًا مكانه في يبسٍ. لقد غمرته السكينة التامة. عندها، عاد يحيى ليسمع ذلك الصوت العذب الذي كان يناديه في النفق المظلم. عاد صدّاحًا مجددًا؛ لينادي عليه بلطف وحنو، هامسًا في أذنيْه بسلام، في حين تقول:

- **يحيى، يحيى، أين أنتَ، يا يحيى؟! هِيْ..**

(5)

ظلت غادة تنادي على يحيى لمدة طويلة دون أدنى استجابة. كان يحيى غاصًّا في نوم عميق. ما منعه الاستفاقة على أية أصوات محيطة به. أسرعت غادة إلى غرفة نومه، وطرقت باب غرفته عدة مرات دون فائدة. كان مواربًا قليلًا، فانبعث داخلها قلقٌ شديدٌ على أخيها. دفعت الباب ببطء بيدها، حتى انفتح على مصراعيه. دنَت من سريره كثيرًا، فوجدته مستلقيًا على ظهره، مائلًا برأسه قليلًا ناحية اليسار، وقد سقط غطاؤه على الارض. عاودت غادة الكرة مناديةً عليه. ثم مسحت على جبينه، لكن ظنّت أن به سوءًا، فامسكت بيده لتفصح نبضه، الذي بدا طبيعيًّا، فطفقت توكزه بشدة حتى يفيق. ثم صاحب به وهي تُهدهده: **يحيى، يحيى، هيا انهض، لقد أحضرت لك الطعام.**

انتبه يحيى أخيرًا لنداء أخته، ففتح عينيْه، لكنه انفزع فزعًا شديدًا، صارخًا: **أين أنا؟! ماذا حدث؟** ظل يرددها بهستيريا بالغة، حتى هدأ، بعدما أسرعت غادة بإحضار كوب ماء دافئ له. حيث أدركت أنه كان يواجه حلمًا ثقيلًا. كان جبينه ساخنًا بشدة، لكن عندما هدأ، أدرك أنه على فراشه في منزله، في حين قد غادر المستشفى.

سألت غادة: **أخي، هل أنت أفضل الآن؟**

رد يحيى: **الحمد لله أنا بخير. أفضل من السابق. لكن ما زال ينتابني ألمٌ رهيبٌ في ساقي، كما يداي ثقيلتان لا أقوى على تحريكهما، أشعر بالضعف العام والهذال، أرغب في النهوض، لكن لا أستطيع أن أتحرك، لقد ضقت ذرعًا بمكوثي على فراش المرض.**

قالت غادة: إنها مسألة وقت فقط، وستعود كما كنت، أوصيكَ بالصبر والغذاء السليم حتى تستعيد عافيتك، فأنتَ الآن تحتاج إلى طعام صحي كما أوصى الطبيب. لقد نزفت- بغزارة- يا أخي. ولن يعيد دمكَ سوى التغذية السليمة. ثم توقفت غادة فجأة عن الكلام، ثم صكت وجهها صائحة: **الطبيب، الطبيب بالخارج، يجلس مع عادل، لقد تركتهما دون ضيافة. سأذهب الآن لعمل عصير ليمون للضيوف ثم أعود لأُدخل الطبيب للكشف عليك.**

في صالة الضيافة، كان يتحدث الطبيب مع عادل عن حالة يحيى، وكيفية تماثله للشفاء. حاول الطبيب طمأنة عادل على وضع صديقه الصحي. مع ذلك، عبر عادل له عن عدة مخاوف وهواجس تتعلق بيحيى. حيث أخبره أنه يتعرض مؤخرًا، وقبيل الحادث، إلى كوابيس مرعبة متكررة. لذا قصَّ عليه رؤية يحيى لجثة ملفوفة بكفن أمام عتبة داره قبل الحادث. في الوقت الذي يقسم فيه يحيى أنه كان يقظًا تمامًا، وأنه يتذكر جيدًا تلك المشاهد في ليلة الحادث العصيبة. استمع الطبيب في إنصات تام، لكنه- وبهدوء- حكم على ما سمع أنه نوعٌ من الهواجس البصرية والسمعية الحادة الناتجة عن الحادث، والإصابة البالغة التي تعرض لها دماغه، فحتمًا أن الاصطدام الخطير أثر على مراكز إدراكه، ما تسبب في اختلال ذاكرته- عرضيًّا- ولكن بشكل طفيف. وقد أكد لعادل أن تلك الحالة لن تدوم طويلًا، وستتلاشي تدريجيًّا. لكن عادل صمم مكررًا على مسامع الطبيب أن ما حكاه يحيى لا يتعلق البتة بالحادث. بل إن تلك العوارض سبقت الحادث بعدة أيام، حتى أن رئيس التحرير عرض عليه الحصول على إجازة مرضية، وإعفائه من السفر، لكن يحيى رفض رفضًا قاطعًا، وأصر على رغبته في حضور المؤتمر. كما أكد عادل للطبيب أن ذاكرة يحيى لم تتأثر، لكنها صارت أكثر تشويشًا عن السابق. فما يعانيه يحيى من هواجس باتت تلازمه منذ زمن. ظل الطبيب صامتًا للحظات، حتى أنهى

عادل كلامه، فاستعد الطبيب لإقناعه بنظريته، لكن غادة دخلت عليهما حاملةً كأسيْن كبيرتيْن.

قالت غادة: **هل تسببت في قطع حديثكما؟!**

أجاب الطبيب: لا.. على الإطلاق.. كنا نتحدث عن حالة يحيى المرضية، وأنه لا داعي للقلق المبالغ فيه. فهو الآن في وضع أفضل وبحالة مستقرة.. واليوم سأعيد الكشف عليه.

قال عادل: غادة، من فضلكِ، لدي سؤال يؤرقني للغاية منذ ذلك الحادث المروع، وهذا السؤال يدور في ذهني ويشغلني كثيراً.

سألت غادة : وماذا تنتظر؟! اسأل فورًا، وأفرغ ما عندك، عساني أجيبك إن امتكلتُ الجواب، ويستريح بالك.

قال عادل: نعم، حقًّا أتمنى ذلك، تعرفينَ كم هي متانة الصداقة وأواصر المحبة التي تجمع بيني وبين أخيكِ.. وتعلمين -كذلك- أن يحيى في مثابة الأخ، ولا أحب رؤيته في مكروهٍ أبدًا.

قالت غادة : بالطبع، أعلم، وأسأل الله لكما مزيدًا من المحبة، لكن لا داعي للإطناب، ادخل في الموضوع مباشرةً دون مقدمات.

قال عادل: سأفعل. أنا أريدكِ أن تعودي بذاكرتكِ إلى ما قبل الحادث بيوم أو يومين بالأحرى.

قالت غادة : عادل من فضلكَ، لا تقلقني، أخبرني مباشرةً، ما الذي ترغب أن تقوله؟!

عادل مستطردًا: "صباحًا، قبل الحادث بيوم. جاء يحيى إلى العمل باكرًا قبل موعده، تناولنا الفطور معًا. فيما لم يمكث طويلًا، فقد أخبرني أنه سيغادر

العمل قبل الظهر عائدًا إلى منزله، متحججًا بأن لديه عدة أمور يجب التحضير لها قبل الاستعداد للسفر، وذكر- أيضًا- أنه بصدد الذهاب إلى صالون الحلاقة أولًا، فيما يرغب بالحصول على قسط كافٍ من النوم قبل السفر، فقد كان يشعر بالإجهاد والإرهاق الفائقيْن، لذلك أكّد عليّ أن أرن عليه في تمام الثامنة مساءً لإيقاظه، بينما طائرته في الثانية صباح اليوم التالي.

قالت غادة : نعم، أعلم كل هذا، لقد أخبرني يحيى أنه قابلكَ بمقر الجريدة، وحكا لي عن يومه، على مائدة الطعام، بينما نتناول الغداء معًا، كان معنا طارق وقتها، ومن ثم ودّعناه، ورحلنا.

قال عادل: لكن، هل لاحظتِ عليه- يومها- أية أمور غير معتادة؟!

ردت غادة: مطلقًا، بل كان طبيعيًّا للغاية.. مرحًا جدا وكثير المزاح، كان ذا مزاج جيد، يضحك معنا أغلب الوقت، في حين تحدثنا كثيرًا في أمور عدة، كانت تبدو عليه علامات السعادة الغامرة، حسبما قال بنفسه، إن تلك المأمورية سوف تكون بمثابة أهم نجاح مهني حتى تاريخه، في حين ستضع قدميه بثبات على سلم الترقيات. لقد اعتبر يحيى أن تكليفه بتلك المهمة تعد- في حد ذاتها- نقلة مهنية في نوعية الأحداث التي يتقصاها، لقد قال ذلك بالحرف، فيما بدا فخورًا.

كان الطبيب ينصت إلى كل كلمة، حتى قطع يحيى حديثَ غادة، عندما سمعتْ صوته مناديًا، فقامت إليه. عم الصمت لبرهة، حتى بتر عادل رأس ذلك الصمت المجوف بتنهيدة عميقة، فقال للطبيب مازحًا معه: **ألم يعجبكَ العصير؟! والله أحضر لكَ غيره.** ضحك الطبيب برصانة، ثم قال محفزًا عادلًا، في حين يضرب بودٍّ على فخذه: **هيا بنا، دعني أذهب للكشف عليه.. سيحين ميعاد عيادتي الخاصة، ويجب أن أنتهى بسرعة. لا وقت كافيًا لدي، هيا بنا.**

نهض عادل، وقاد الطبيب نحو غرفة يحيى، حتى ولجا، فألقيا عليه السلام، ثم جلس جلس الطبيب إلى جوار يحيى. أمسك بيده، في حين يقول بلطفٍ: **عظيم، أراكَ أفضل اليوم.. لقد تحسنتَ كثيرًا، كانت حالتكَ سيئة خلال اليومَيْن الأولَيْن، لكنكَ تُبلي بلاءً حسنًا.**

قال يحيى : الحمد لله، كَثُرَ فضلكَ علي، أيها الطبيب، لكن أخبرني من فضلكَ، كم أحتاج من الوقت كي أتمكن من العودة إلى العمل؟ فأجابه الطبيب ضاحكًا: **في الواقع، أنا طبيب ولستُ منجِّما، لكن على كل حال، لن تحتاج كثيرًا بإذن الله. دعني أولا أقيس ضغطكَ، ثم سأجيب عن كل أسئلتكَ.**

قالت غادة : لا تتعجل الشفاء، يا أخي، كل شيء بقدر وميعاد محددَيْن، ليس علينا سوى التبتل إلى الله فيعجّل لكَ بالشفاء.

قال عادل: غادة معها حق.. ثم إنكَ تماثلت- فعلًا- للشفاء بشكل ملحوظ، حتى أنه بمقدوركَ- الآن- الذهاب بمفردك دون مساعدة لقضاء حاجتك، أليس كذلك؟!

رد يحيى: بلى، نحمدُ الله، لكنني اليوم أشعر بتعب شديد، فلا استطيع تحريك ساقي.. بهما ثقل وكأنهما متصلبتان متيبستان. حتى أصابع قدمي، أيها الطبيب، بها تنميل فظيع.

قال الطبيب: لا تقلق، هذا ربما يكون نتيجة البقاء فترة طويلة على الفراش، فذلك قد يتسبب في ضمور مؤقت بالعضلات وضعف بسيط لعصب القدم. لذا سأكتب لكَ على هذه الحقنة المقوية للأعصاب. وسوف تتمكن من السير على قدميكَ في وقت قصير للغاية، بأمر الله.

قال عادل: **هل هذه حقنة وريدية، يا دكتور؟**

أجاب الطبيب: لا.. بل عضلية. لم يعد هنالك من داع للمحلول الوريدي،

فقط قدموا له حساء الدجاج مع الخضار، ولا مانع من بعض الفاكهة، ويستمر على هذا العلاج حتى يشعر بتحسن ملحوظ.

قال يحيى: أشكركَ جزيل الشكر، يا دكتور، إن شاء الله تعالى، عند تماثلي للشفاء التام، سآتي لعيادتكَ لأشكركَ بنفسي على متابعتكَ لي واهتمامك البالغ، فوالله لم تقصِّر في شيء.

قال الطبيب: لا شكر على واجب، يا رجل، نحن عائلة واحدة، فزوج أختكَ هو ابن عمي، كنتُ أود مقابلته اليوم، لكن ربما منعه العمل، عفوًا أضطرُّ للمغادرة، عن إذنكم.

فأثنت غادة كثيرًا على زيارته، واصطحبه عادل حتى باب المنزل.

رجع عادل إلى الغرفة، فطلب منه يحيى أن يساعده على الوقوف على قدميه. كان يحيى يرغب في التمشية قليلًا أو الجلوس بالخارج في صالة الضيافة؛ لأنه ضجر كثيرًا من البقاء مستلقيًا على فراش المرض لمدة طويلة. كما رغب في استخدام حاسوبه الشخصي أو مشاهدة التلفاز، وتصفح الأخبار. في البداية، لم يحبذ عادل هذا الطلب، لكنه وتحت ضغط يحيى وإصراره، رضخ أخيرًا لمطالبه، فأمسك بيده، في حين كانت غادة تلتقط ذراعه الأخرى، محاوليْن إقامة ظهره، وإنزال قدميه المتيبستين على الأرض. حتى رفعه عادل، حيث أمسك به من خصره ليمكنه من الضغط على قدميه، لكن يحيى بمجرد أن وطأت قدماه الأرض لم يستطع أن يصلب طوله، فكاد أن يسقط، لولا أن غادة تشبثت به؛ فمنعته من السقوط. بصعوبة بالغة، جاهد يحيى بجرّ قدميْه على الأرض ببطء، ضاغطًا عليهما قليلًا، حتى تمكن -عادل وغادة- من إخراجه إلى الصالة الخارجية. ثم أجلساه على الأريكة الكبيرة، فوضعا وسادة كبيرة خلفه ليسند رأسه إليها، ثم جلسا ليستريحا بعد هذا المجهود.

قالت غادة: يحيى، أنت لا زلت لا تستطيع الضغط على قدميك بشكل طبيعي. يجب عليك ألا تتحرك كثيرًا حتى لا تسوء إصابتكَ. كنتُ أتمنى أن أبقى معكَ، لكن يجب علي الرحيل بعد قليل، للعودة إلى أبنائي وزوجي. ما زال أمامي مشوار طويل للعودة إلى المنزل، إنها- كما تعلمون- ليلة الخميس. لذا ستكون الشوارع مزدحمة في مثل هذا التوقيت. ربما المسافة من ميدان التحرير حتى مدينة نصر ستأخذ وقتًا طويلًا.

قاطعها عادل على الفور قائلًا: **غادة، لا تتعجلي، انتظري عشر دقائق، وسوف أصطحبكِ معي لأوصلكِ إلى بيتك. سيارتي معي، لا تقلقي، لكني سأعود مجددًا للبقاء مع يحيى هذه الليلة.** عارضته غادة بشدة على هذا المقترح، وأصرت على الرفض، فشكرت عادل كثيرًا لذوقه المفرط، وأكدت له أنها ستستقل سيارة أجرة، فلا حاجة لأن تحمله هذا العناء، لكن عادل بدا مصممًا على عرضه، وأقسم عليها ألا تعترض، مذيلًا كلامه بأنه مضطرٌّ أساسًا للنزول؛ لمقابلة صديق له بينهما ميعاد مسبق، دون أن يطيل البقاء معه، وسيعود إلى يحيى دون تأخير. عند ذلك، بدا على غادة الاقتناع، فرحبت بتلك الفكرة. ثم استعدا للرحيل، في حين كان يحيى- في تلك الأثناء- منشغلًا بحاسوبه، ولم ينتبه إلى حديثهما، حتى انتهيا من جدالهما، فأخبراه باستعدادهما للمغادرة، وألقيا عليه تحية الوداع، متجهيْن نحو الباب، عندها رن جرس الباب فجأةً. تعجبت غادة كثيرًا، فتساءلت: **يحيى، هل تنتظر أحدًا؟** أسرع عادل ليفتح وهو يقول: **ربما يكون أحد أصدقائنا في الجريدة.**

ثم عاد مهرولًا، في حين يقول: **هناك سيدة بالخارج تسأل عليك وتريد الدخول.** أجاب يحيى متعجبًا: **سيدة؟! من تكون؟! دعها تدخل إذن.** ثم صاح يحيى من مقامه قائلًا: **تعالي، تفضلي بالدخول.** ذهب عادل لإحضار المرأة

التي ظلت واقفة على الباب. عندما رآها يحيى صاح: **كارمن، أهلًا وسهلًا. تفضلي بالجلوس.** حاول يحيى النهوض لمصافحتها، لكنه لم يستطع، فبادرت هي بمصافحته وهو جالس، فطلبت منه أن يبقى مستريحًا. ثم جلست على مقربة أمامه، في حين بقي عادل وغادة صامتين متعجبين. أراد يحيى أن ينهي تعجبهما فقدمها لهما قائلًا: **أود أن أعرفكما بجارتي وصديقتي كارمن.** فرحبا بها، لكن سرعان ما استأذنا للرحيل، وانصرفا مشحونيْن بالحيرة من أمر تلك الفتاة التي تحمل سيماء أجنبية.

قال يحيى : **مرحبًا، كارمن، كيف حالك؟ متى عدتِ من أمريكا؟!**

أجابت كارمن: لقد وصلتُ منذ ثلاثة أيام فقط. أخبرني حارس العقار أنكَ أصبت في حادث على طريق المطار. أتذكرُ أنكَ أخبرتني بموضوع سفركَ إلى السودان لتغطية أحداث إبرام اتفاق سد النهضة الإثيوبي، لكن أخبرني ماذا حدث معكَ؟!

قال يحيى متنهدًا: كنتُ أستقل سيارة أجرة عندما اصطدمت بأخرى وانقلبت رأسا على عقب، كان ذلك في طريقي للمطار استعدادا للسفر. وبالطبع، لم أتمكن من حضور المؤتمر الصحفي. لقد ضاعت عليَّ فرصة العمر.

قالت كارمن: لا أظن ذلك، أنت صحفي نابغ وناجح، ومثل تلك الظروف لن تفت في عزيمتك ولن تنال منك، بل يجب أن تزيد إصرارك على النجاح، وتخطي العقبات.

ابتسم يحيى حتى بانت نواجزه، ثم قال: **هذا إطراء بليغ منكِ، يا كارمن. لا أستحقه.**

راشيل: بل تستحق، لكن طبيعتكَ المتواضعة لا تميل لمثل هذا المديح البسيط. علَّق يحيى قائلًا: **أشكركِ على كل حال، يا صديقتي العزيزة. إنكِ إن**

تنعتينني بالتواضع فهي بلا شك صفة حميدة. وذلك من كرم أخلاقِكِ.

يُذكر أن كارمن لا تتحدث العربية بطلاقة؛ ذلك لأنها ولدت بولاية بنسلفانيا في الولايات المتحدة، لأب قبطي أرثوذوكسي، وأم أمريكية بروتستانتية. وقد قضت جل عمرها في أمريكا، وتخرجت في جامعة لويزيانا الامريكية، بعد أن أتمت دراستها في علم المصريات. كانت كارمن- نظرًا إلى أصولها المصرية وملامحها الشرقية- مولعة بالحضارة المصرية القديمة أشد الولع. حتى قررت الانتقال للعيش في مصر؛ كي يتسنى لها الانتهاء من رسالة الدكتوراه التي تعمل عليها، حيث أرسلتها جامعتها في بعثة تعليمية إلى مصر؛ لإتمام بحثها عن السند التاريخي لنبي التوراة يوسف، وزمن وجوده في مصر، حين كان يشتغل حينها بمنصب كبير الوزراء، ووزيرًا للخزانة العامة للبلاد آنذاك. وقد انضمت كارمن إلى فريق بحثي يضم عدد من علماء المصريات الأجانب، الذين يسعون لإثبات فرضية وجود قبر لنبي التوراة يوسف في أحد المواقع بمصر.

قال يحيى: **لا أعرف كيف يمكنني ضيافتك، لكنكِ لستِ بضيفة على أي حال، تستطيعين ضيافة نفسك بنفسك بلا أدنى شك.**

قالت كارمن: **نعم أعلم، وبالمصري ترغب أن تقول (البيت بيتك).** ثم ضحكت، فضحك يحيى بصوت مرتفع ضحكة طويلة، ثم قال **مازحًا: صرتِ تتمكنين من التقاط كثير من المصطلحات المصرية العامية. هذا لافت للانتباه، ليس لأنكِ تحملين جينات مصرية وحسب، بل لأنكِ تحاولين إبراز شخصيتكِ المصرية أغلب الوقت طوال فترة مكوثكِ هنا، أكثر بكثير من شخصيتكِ التي تكونت في أمريكا، هذا في وجهة نظري يعني أن حنينكِ إلى وطن آبائك يتدفق بداخلك، أليس كذلك؟!**

قالت كارمن: بلى، لكن الأمر أعظم من ذلك، يا يحيى، الأمر لا يتعلق

بمجرد كونه وطن أجدادي، فمصر ليست أمرًا يعنيني وحدي، ولست الوحيدة في هذا العالم المتسع التي تستهويها أسرار تلك الحضارة العظيمة، الضاربة بجذورها في أعماق التاريخ البشري والإنساني. إن حضارة مصر واحدة من أهم وأعرق الحضارات القديمة التي يقف أمامها العالم أجمع إجلالًا وتوقيرًا. بل لا يزال الكثير من العلماء عاجزين عن فك الكثير من شفراتها السرية؛ راغبين في اكتشاف المزيد من أسرارها وألغازها. مصر هي بمثابة الأم لكل الحضارات القديمة. كما أن النيل الذي يقطعها طولًا هو هبتها العظيمة الذي وهب لها تلك الحضارة الخالدة منذ آلاف السنين، كما ذكر ذلك المؤرخ الإغريقي هيرودوت. إنها- بلا شك- لا تزال تبهر الجميع.

بدا على يحيى الاهتمام بكلام كارمن، فأنصت إليها جيدًا إلى كلامها، الذي اصطبغ بالحب الدفين لهذا البلد. ثم عقب قائلًا: **حقًّا، يا كارمن، كلامك صحيح بلا شك.**

قالت كارمن: **لقد أحضرت لك بعض الهدايا من أمريكا.** لمع وجه يحيى، فأسرع يقول: **هدايا، كم أحبُّ المفاجآت، لكنني على كل حال أشكركِ كثيرًا. يكفي زيارتكِ هذه وسؤالكِ عليّ، ويكفي أنكِ قد عدتِ إلى وطنكِ الثاني بسلام.**

كانت كارمن خفيفة الظل، دمسة الأخلاق. إنها فتاة سوداء الشعر، ذي اللمعان البرّاق الساحر، حنطية اللون، نجلاء، حوراء العينين، ذات جسد نحيف متناسق وفتان. كانت أمريكية الطباع شرقية الجمال، ذات شخصية قيادية قوية ومستقلة للغاية. إنها تحب دراستها وتقدس عملها؛ فيما تبذل قصارى جهدها لإنجاز رسالة الدكتوراه المهمة بالنسبة إليها. هذا بجانب عملها في القسم القنصلي بالسفارة الأمريكية بوسط القاهرة، في إدارة الاستعلامات

لخدمة المواطنين الأمريكيين المقيمين في مصر، حيث تستقبل استفساراتهم، تجيب عن أسئلتهم، وتنظر في شكواهم.

قال يحيى: **هل كان لديكِ عمل اليوم؟**

ردت كارمن: لا، لم أبدأ عملي بعد، منذ أن عدتُ إلى القاهرة. لكنني سأعاود عملي يوم الإثنين المقبل.

قال يحيى: لكني أعلم أنكِ تذهبين إلى العمل يوم الأحد، فهو ليس عطلة رسمية في مصر بالطبع؟

قالت كارمن: نعم، بالطبع، لكنني لن أذهب هذا الأحد، لدي مقابلة مؤجلة عدة مرات مع صديقة لي. وقد حددت معها يوم السبت القادم للقاء.

قال يحيى: **يبدو عليه لقاءً مهمًّا نوعًا ما.**

قالت كارمن: ليس بالأهمية القصوى، فهو ليس لقاء عمل على الإطلاق، بل هو لقاء إنساني بين أصدقاء قدامى لا أكثر.

قال يحيى: هل لي أن أعرف طبيعة هذا اللقاء؟!

ضحكت كارمن، في حين تقول: نسيتُ أنكَ صحفي. بالطبع، يمكنني إخبارك.. إنها صديقة لي منذ الطفولة من أصول قبطية أيضًا. فهي من أعز صديقاتي وأقربهن إلى قلبي، حيث قضينا معًا ردحًا من زمن صبانا، متزاملتيْن ومتلازمتيْن في كل شيء، سواء فيما يتعلق بلهونا أو دراستنا. لكنها بعد تخرجها في الجامعة، قررت أن تأتي إلى مصر، واهبةً نفسها للرب. فاعتزمت الرهبنة، وبالصدفة البحتة رأيتها في القنصلية ذات يوم، وتذكرنا بعضنا البعض، فقد مر زمن طويل على آخر لقاء بيننا. كانت صدفة رائعة حقًّا. كنت سعيدة- بشدة- لرؤيتها في ذلك اليوم، ثم تواعدنا بلقاء آخر.

عاد يحيى ليسألها مجددًا بشغف: **هل ستذهبين إلى مقابلتها في الكنيسة؟ أنا أعلم أنكِ لا تحبين الذهاب إلى الكنيسة.**

قالت كارمن: لكنني سأذهب هذه المرة. إنها صديقة رائعة، تقيم في مصر منذ سبعة أعوام، حيث تمكث بدير سانت كاترين بجنوب سيناء، في بيت خاص بالراهبات. لقد أخبرتني أنها في قمة السعادة بإقامتها بذلك الدير، بدت فخورًا بقرارها الذي اتخذته.. كما أخبرتني أنها تمضي أوقاتًا عظيمة هناك، حيث الوادي المقدس الذي كلم الرب فيه موسى، وألقى عليه ألواح التوراة من السماء.

قال يحيى دهشًا: **دير سانت كاترين؟! ظننتُها تقيم- هنا- في القاهرة في أحد الأديرة الكبيرة، هذا يعني بأنكِ سوف تسافرين إليه.**

قالت كارمن: بالطبع، سأسافر السبت صباحًا، وأعود مساء الأحد. صمت يحيى قليلًا، ثم انتبه مرة واحدة، فقال: **كارمن، هل تعلمين كم أطوق منذ زمن لزيارة ذلك المكان الرائع؟**

أسرعت كارمن معقبةً: وما يمنعك؟! دعنا نذهب معًا، فالنسبة إلي سوف أستغل تلك الزيارة في بحثي الجديد، ومن ناحية أخرى ستبدو فرصة غاية في الجمال لاستكشاف مصر عن كثب والغوص في تراثها القديم وثقافتها الدينية والتاريخية المتنوعة. بدا يحيى متعجبًا إلى حد ما، فصمت قليلًا.

ثم أسردت كارمن قائلةً: انظر، يا يحيى، سأوضحُ لكَ، إنني منشغلة ببحث تاريخي عن أرض الخروج الأعظم، كما جاء ذكرها في التوراة، عن مدينة قديمة تدعي (أفاريس) في أرض كان يطلق عليها (جوش) تقع بصحراء شمال شرق مصر، إن تلك المدينة يرجح العلماء أن تؤدي أعمال الحفريات فيها إلى اكتشاف مقبرة يوسف بن يعقوب التوراتي، وهذا البحث قام به- مسبقًا- العديد من

علماء المصريات، دون أن يتوصلوا إلى أي اكتشاف جديد يدعم فرضيتهم أن جوش هي الأرض التي ترعرع بها يوسف عندما قَدِمَ إلى مصر عبر قافلة كانت عائدة من بلاد الشام.. وكذلك هي الأرض- حسب التوراة- التي أرسل يوسف إلى أبيه وإخوته أن يدخلوها آمنين، بعدما صار فيها كبيرًا للوزراء آنذاك.

أردف يحيى قائلًا: **تعرفين، إنه كذلك ما نؤمن به، فهي متقاربة تمامًا لذات القصة التي أخبرنا الله عن يوسف في القرآن الكريم.**

فقاطعته كارمن مؤكدة على كلامه: نعم، أعلمُ ذلك جيدًا، لكن ما يهمني من الناحية العلمية أن مثل هذا الاكتشاف سيكون عظيمًا للغاية في دعم الرواية الدينية لهذه القصة تاريخيًّا. إن كانت الرواية التي في القرآن أو في العهد القديم. وهذا سيثبت بما لا يدع مجالًا للشك أن يوسف وأهله العبرانيين من بني إسرائيل- بالفعل- قد استوطنوا أرض جوش أمدًا طويلًا يناهز القرنيْن من الزمن، بل وقد تمكنوا من الوصول إلى مناصب قيادية مهمة وبالغة الحساسية كانت قاصرة في ذلك الزمان على قبط مصر القديمة، قبل أن يخرجوا منها هاربين من العنصرية الدينية والاضطهاد العرقي في عهد موسى الذي بعثه الرب إلى قومه لينقذهم من الكرب العظيم حيث أمرهم بالخروج جماعة من أرض جوش بعد أن أذن لهم فرعون مصر بذلك، حينها وعدهم موسى بالخلاص من هذا البلاء الذي لا يقاوم.

أراد يحيى أن يقاطعها، لكنها أسهبت قائلة بصوت هامس: أعلم ما يجول في خاطركَ، وما تريد أن تسألني بشأنه، إنكَ تريد أن تعرف كيف سأستغل زيارتي هذه- إلى صديقتي الراهبة- في بحثي، أليس كذلك؟ أومأ يحيى مذهولًا من حدسها منقطع النظير، فغمرته ابتسامة عريضة، بينما يقول: **بلى، هو بالفعل ما أردتُ طرحه.**

ضحكت كارمن بزهو، مدفوعة بمشاعر الثقة: اسمعني، إن صديقتي الراهبة ليليان قد عُرف عنها منذ الصغر شغفها بعلوم ما وراء الطبيعة، حيث كانت تمارس رياضة اليوجا، الاسترخاء الروحي، جلسات الصفاء الذهني، وتجديد موجات ألفا الدماغية. كانت فتاة مبهرة للغاية، حتى أنني ما زلت أذكر لها قصة مذهلة عجيبة، عندما كنا في الخامسة عشر من عمرنا. في أحد الأيام، حدث لصديقة لنا في المدرسة خطبٌ كبيرٌ، حيث توفي والداها إثر حادث مروع، دخلت الفتاة على إثر الصدمة في حالة نفسية وعصبية بالغة الوقع، فتوقفت عن الذهاب إلى المدرسة. وذات ليلة، جاءت ليليان لتخبرني بأنها رأت صديقتنا في المنام تصرخ طالبة المساعدة، وكان صراخها يدوّي في أذنها حتى بعد ما استيقظت من نومها. كما رأتها تحاول قتل نفسها بالوقوف في منتصف طريق سريع.

امتلأ شغفًا بمعرفة المزيد عن هذه القصة، فأسرع يقول: **أكملي من فضلكِ.** فأردفت كارمن قائلةً: **لم ننتظر حتى الصباح، فذهبنا على الفور إلى منزل تلك الفتاة حيث كانت تعيش مع جدتها. وعندما سألنا عنها أخبرتنا جدتها أنها قد انتحرت بالأمس، وقد كتبت رسالة تخبر فيها عن نيتها في الانتحار. وبالفعل، وجدوا جثتها على الطريق بعد أن اصطدمت بها سيارة على الطريق السريع في بلدتنا الصغيرة، تمامًا كما رأت ليليان.**

انتاب يحيى الرعب، فقال: كم هذا عجيب حقًّا، لقد تنبأت بالمستقبل على ما يبدو، على حد علمي، فإن مثل تلك النعم لا يَمُن الله بها إلّا على أشخاص قليلين للغاية، هم أشخاص نورانيون زهريون على درجه كبيرة من القرب والاتصال بالذات الإلهية، وعلى تواصل غامض بالعوالم الخفية الأخرى. هذا أمر غريب، يبدو أن صديقتكِ- ليليان- يمكنها بالفعل التنبؤ لكِ عن سر

عظيم يقودكِ إلى اكتشاف عظيم، يكون بمثابة الجائزة الكبرى لبحثكِ. هزت كارمن رأسها بإيماءة خفيفة مؤكدة على كلامه. حتى قالت: **ربما، لمَ لا؟** ابتسم يحيى قائلًا: **على الرغم من أن ذلك يبدو مستبعدًا أو ربما صعبًا للغاية.. إلّا أنها تبدو- كذلك- فرصة عظيمة لزيارة دير سانت كاترين المقدس.**

قالت كارمن متسائلة: أفهم من ذلك أنكِ تود السفر معي؟

رد يحيى: نعم، بالطبع، لكن كما ترين فإنني ما زالت لا أستطيع الحركة بشكل طبيعي، وربما لن يتسنى لي السفر معكِ السبت المقبل.

قالت كارمن: لا بأس، ستتمكن، وربما ستكون- أنتَ- سببًا جديدًا لتأجيل هذه الزيارة إلى السبت الذي يليه. عساه أن يكون آخر تأجيل. دعنا ننتظر هذا حتى الأسبوع بعد المقبل، حيث هناك عطلة رسمية لمدة ثلاثة أيام للاحتفال بأعياد القيامة وشم النسيم.

ابتهجت أسارير يحيى كثيرًا، فأثنى عليها كثيرًا لهذا الموقف الرائع، ثم استأذنت كارمن بالانصراف.

(6)

كانت تسير على أرض صخرية صلدة وقاسية، لكنها كانت شعرت وكأنما تبدلت الأرض من تحتها، واحتالت قطعة سجاد "زوالي" من الحرير الخالص الباكستاني الصنع. أحست نفسها قد لامست الفراغ الكامن بين باطن قدميها وسطح الأرض. ممتدة للغاية يداها إلى الأمام، حتى صارت ترتفع رويدًا رويدًا نحو السماء. أسلمت راحتَي كفيها نحو صفحة السماء، ثم اتسع الفراغ الكامن بين لوحتَي ذراعيها، وانحنى ظهرها الخاشع المبتهل ببطء إلى الأمام، وببطء أكثر كلما ازداد الهواء ساكن الفراغ تحت قدميها، حتى أضحت ترتفع، وترتفع، وتعلو بروحها وجسدها معًا، وكأنها صارت تقف على بساط الريح، ثم انحنت كما الركوع، وباتت تشعر وكأنها أخف من ريشة نعام أو كملاك سارح في الأفق الأعلى.

"ربنا الذي في السماء، أبانا وخالقنا وصانعنا من العدم، حتى تعيدنا من العدم من جديد، تقدس اسمك الذي في السماء والأرض، وتبارك ملكوتك الذي علا كل الملوك، أنقذنا من الطاغوت.. وأعتق أرواحنا من أسره وسلطته.. حرر قلوبنا من كيد سحره ومكر صنعه ودهائه.. أنزع عنه وجهه الكاهنوتي الخادع، ولتكشف لي- يارب- عن وجهه الطاغوتي المارد.. جِئْتك خاطية ومعي قرباني إليك.. أفتدي به روحي التعسة.. فلتتقبل يارب أضحيتي، كما قبلتها من عبدك إبرام، وأسْمَعَني الشوفار[1].. رِكز كبش الفداء، فِدْيتك العظيمة لروح إشمائيل، البارُ بأمه الجارية المصرية.. عندما كان وحيد إبرام، البكرُ الذي أحبه والده، فوعدته بأن تورثه الأرض المقدسة جنبًا

(١) وهونوع من البوق المصنوع من قرن الكبش، ويعد إحدى أقدم آلات النفخ الموسيقية في العالم.

إلى جنب مع أخيه الأصغر إيزاك ابن الحرة، والأرض يرثها عبادك الصالحين، فلتقبلني، يا رب، في الصالحين، ولتجعلني أرثُ ملكوتك الأبدي كما وعدتنا، ولتطعمني شرائح التفاح المقدس المغموس بالعسل، وهذا خبزي، كفافي وقوت يومي. قد أطعمتُ به مسكينًا من أبنائك، لتسقط عني كل الخطايا والآثام.. وأنول غفرانك، فتعطني الأسباب كما أعطيتها كاهنك الخادم البار الأمين أنطونيوس، فلتنعم عليّ بفضل هباتك التي أنعمت بها عليه.. فكنت تكشف له عن وجه الطاغوت اللعين الحاقد على الإنسان بن آدم.. وكنت تفتح له عينه الثالثة.. وتريه من المستقبل ما تشاء.. وأعطيته من البركات والكرامات ما لم تعطِ لغيره .. أبي الذي في السماء، أعطني عطاءً بلا حدود، واجعلني من المقربات الصديقات والشهيدات.. فتلرزقني- يا خالقنا- شهادة القديسة العظيمة الملاك كاترين.. التي ضحّت بحياتها من أجل ملكوتك، ومن أجل إعلاء كلمتك.. وافتدت الدين بروحها ودمها.. اللهم أنزلني منزلة القديسين والأربعين شهيدًا.. أبي الذي في السماء.. لتتنزل علينا رحماتك.. وبقدس اسمك المبارك.. أجب مسألتي، التي سألتها إياك.. وأبدًا- يومًا- ما رددت دعائي ولا خذلتني، آمين".

بينما كانت الراهبة ليليان تصلي في مقام النبي هارون-في منتصف طريق وادي الأربعين المؤدي إلى جبل موسي- سمعت طرقًا على باب الصومعة، فأنهت صلاتها على عجل، وتقدمت نحو الباب لمعرفة من الطارق. فتحت ليليان الباب، فوجدت كارمن في وجهها. كانت مفاجأة شديدة الروعة، فتعانقتا بحرارة فائقة، فيما رحبت ليليان بيحيى، وكذلك، بالمرشد البدوي الذي أوصلهما إلى مكان اعتكافها الخاص. فيما ألقى يحيى التحية على الراهبة، وهنأها بعيد القيامة المجيد. شكرته ليليان، فردت عليه التهنئة، ثم أغلقت باب الصومعة، واصطحبت يحيى وكارمن، في جوله تاريخية رائعة،

لجبل موسى المجيد، ودير سانت كاترين المقدس.

قالت ليليان: صديقتي العزيزة، مرحبًا بكِ في الوادي المقدس طوى، كم هي غالية عليّ كثيرًا تلك الزيارة المفاجئة. أخبريني، كيف كانت إذن رحلتكما إلى هنا؟

أجابت كارمن: لقد كانت ممتعة بشكل لا يوصف، أخذنا طائرة إلى مطار شرم الشيخ الدولي، ومن ثم استقلينا سيارة خاصة حيث أوصلتنا إلى هنا مباشرة. مناظر الجبال هنا تبدو كلوحة فنية مبهرة. لقد كنت أنتوي المجيء قبل سفري إلى أمريكا، لكني أجلتها حتى عودتي إلى مصر، ثم انتظرت حتى تماثل جاري وصديقي المقرب- يحيى- للشفاء، لنتمكن من المجيء معًا، حيث رغب في القدوم معي.

قال يحيى: **نعم، وإنني لن أنسى لكِ- يا كارمن- حرصك على انتظاري حتى أتمكن من السفر معكِ وزيارة هذا المكان البديع.** وفي حين يتفقد يحيى ببصره منظر الجبال الشاهقة من حوله، إذ لاحظ تلة صخرية أمام مقام النبي هارون، بدا عليها كما لو تم نحت تمثال لعجل عليها، فأسرع يتساءل: **أود أن أسأل عن تلك التلة. هل تلاحظون عليها نحتًا في صورة عجل؟!**

أجابته ليليان قائلة: حقًّا، إنه عجل السامري، فعندما عاد موسي من فوق الجبل. ألقى ألواح التوراة التي تلقاها من الرب فوق قمة هذا الجبل. وقد غضب غضبًا شديدًا حينما وجد قومه يسجدون لصنم عجل صنعه لهم السامري- من ذهب أهل النيل- يُصدر صوت خوار، فحطَّم هذا الصنم تحطيمًا، ثم أخذ حفنة من الرمل وألقاها على الجبل، فتشكلت صورة هذا الصنم على الصخر كما ترى، لتبقى شاهدة على فعلتهم تلك الشنيعة في حق الرب الذي أنقذهم من القهر وخلصهم من العبودية. تعجب يحيى قائلًا:

عجبًا، أعلم تلك الواقعة فقط ذكرت في القرآن أيضًا. كم هو عجيب حقًّا مدى توافق سير الأولين في القرآن والعهد القديم، فعندما تتشابه الروايات يشير ذلك إلى أن المصدر واحد والراوي الأعظم الذي أخبرنا عنها واحد في جميع الأديان. بدت ليليان مصدِّقةً على كلام يحيى، فاستكملوا سيرهم في طريق وادي الأربعين، متجهين نحو دير سانت كاترين.

بينما هم في طريقهم ماضون، إذ أوقفتهم ليليان فجأة صائحة: **هل يرغب أحدكما أن يتمنى أمنية فيحققها له الرب؟** فأجابها يحيى قائلًا: **بالطبع، ومن لا يرغب في ذلك، لكن كيف؟** فأشارت ليليان إلى صخرة ضخمة، وعقَّبت: **إذن ما عليك فعله هو أن تحمل حجرًا صغيرًا، وتقربه من فمك ذاكرًا الأمنية التي تريدها سرًّا، ثم تقوم بإلقائها على تلك الصخرة البعيدة. فإن وقعت عليها فاعلم أن الله قد استجاب لدعائك.** انبهر يحيى كثيرًا، فبدا شغوفًا، وبدأ بالتنفيذ، ثم سدد الحجر نحو الصخرة، فأصابها تمامًا، وأسقطه فوقها مباشرة، فأشار بيده بعلامة النصر. ابتسمت كارمن، فقالت مازحة: **إذن هل لنا أن نعرف ماذا كانت تلك الأمنية التي يبدو أنها ستتحقق؟!** ضحكوا جميعًا، وتابعوا السير.

أخذت ليليان تصف لهم الطبيعة البيئية الخاصة بهذا الوادي المقدس، فأخبرتهما عن تنوع الحياة البيولوجية، حيث هناك العديد من أنواع النباتات النادرة، التي لا وجود لها في أي مكان آخر في العالم. أشارت إليهما على شجرة شاي الجبل، التي لها فوائد طبية هائلة، وكذلك، تعرفوا على شجرة الهنيدة، التي تستخدم في علاج المغص الكلوي، كما أن ليليان تستخدمها بدافع تخليص الجسم من الأملاح الكلوية. كانت هنالك- أيضًا- نبتة تسمى بخص الجبل التي تنبت بداخل أحد الكهوف. ثم صاحت ليليان فجأة مشيرةً إليهما على

كهف صغير بقلب أحد الجبال الموجودة في المنطقة، وأسردت قائلةً: **هذا الكهف يسمى بمغارة الغولة، وهو الذي ينمو بداخله نبات خص الجبل. تحكي إحدى الأساطير البدوية أن طفلًا عمد إلى الولوج بداخله، فقابلته الغولة، وأرادت قتله، فطلب منها قبل أن تقتله أن تلعب معه لعبة، فسألته ماذا تكون هذه اللعبة؟ فأخبرها أن تضع السكين تحت عنقه، فإن قال لها استسلمت تركته، ثم يفعل هو كذلك. حتى وضع الطفل السكين تحت عنقها فذبحها، إن البدو يتداولون تلك القصة فيما بينهم لترهيب أولادهم عن الدخول إلى ذلك الكهف الوعر.** تعجبت كارمن من تلك الحكاية، فأسرعت تقول: **قصة مرعبة حقًّا، يبدو فيها الطفل ماكرًا، لكن لِمَ يريد البدو تخويف أولادهم بهذا الشكل؟** أجابتها ليليان قائلة: يكمن السر في ذلك إلى أن هذا الكهف الضيق به ممر ضيق شديد الوعورة، بحيث لا يتمكن من الولوج بداخله إلّا طفل صغير. إن ذلك السرداب الغامض- كما يروي البدو- يتسع كلما أوغل المرء بداخله، حتى يصير نفقًا كبيرًا يؤدي إلى مغارة كبرى بداخل الجبل تحتوي على عيون آبار مياه جوفية هائلة تتدفق من باطن الجبل.. في حين تجري هذه المياه الضحلة بين الصخور مشكِّلة وادٍ مغلق مستتر بداخل هذا الجبل الغامض، لقد سمعتهم يقولون إن هذا الوادي المغلق به ممرات عديدة ضيقة تقود إلى إحدي الغرف المغلقة منذ سنين بداخل كنيسة الدير، لكنه خطير للغاية، على حد زعمهم، ولا يمكن لأحد أن يخاطر بالدخول إليه، لأنه لن ينجو بأي شكل من الأشكال، كما أن هناك ممرات أخرى ربما تقود إلى أنفاق عميقة أسفل تلك الجبال الشاهقة متصلة جميعًا فيما بينها، وربما- كذلك- تؤدي إلى باطن الأض أو إلى أماكن أخرى لا علم لأحد بها.

توقفت ليليان عن الحديث لوهلة، وسط ذهول كارمن ويحيى؛ لما سمعاه عن ذلك الكهف الغامض. حتى طلبت منهما ليليان الاستمرار في السير.

عادت ليليان تستطرد محدثةً عن طبيعة وادي سانت كاترين البيولوجية، فقالت: **كما يوجد هنا العديد من الحيوانات النادرة بالعالم مثل: حيوان الوعل النوبي، وحيوان الوبر الصخري المهدد بالانقراض، وكذلك الفأر الشوكي.** ثم أشارت إليهما على مكان مغطى تمامًا بالصخور، فقالت: **هذه المصيدة كان يصنعها البدو للإيقاع بالنمور الجبلية، لكن الآن يسكنها بعض الفئران الشوكية الجبلية التي تتغذى على بعر الإبل، كما تلاحظون. يوجد هنا الكثير من بعر الإبل ما يعني أن الفئران الجبلية قد حملته إلى هذا المكان لتعيش عليه.**

ثم تابعوا السير مجددًا، قبل أن تصيبهم الشمس بإنهاك شديد. لقد راقت لكارمن كثيرًا تلك الطبيعة الصحراوية الصخرية الهادئة، التي لا مثيل لها في أي مكان آخر في العالم، وذلك السكون الساحر الذي يخطف الأفئدة والأبصار، فيما تمنَّت في نفسها لو أن تعيش في هذا المكان وللأبد، بعيدًا عن الضوضاء، وزحام المدن الصاخبة. فطفقت تحدق في الجبال الشاهقة، حتى لاحظتها ليليان، فقالت لها: **تلك الجبال الشاهقة يقول الجيولوجيون أن عمرها حوالى ٦٥٠ مليون سنة. وقد كانت في بادئ الخليقة أرضًا مستوية، حتى ارتفعت تلك الجبال نتيجة لحدوث خسف أفريقي عظيم، في كينيا تحديدًا، أدى ذلك الخسف إلى شق البحر الأحمر وخليجي السويس والعقبة، فتشكلت تلك الجبال على إثر ذلك الخسف العظيم.**

يُذكر أن دير سانت كاترين الواقع بجنوب سيناء المصرية، يقال عنه إنه أقدم دير في العالم. فهو يعد مزارًا سياحيًّا كبيرًا، تقصده أفواج هائلة من جميع أنحاء العالم؛ بغرض الحج. وهو معتزل ديني، يديره رئيس الدير، الذي هو- بدوره- هو أسقف سيناء، والذي- كذلك- لا يتبع أي بطريرك أو

مجمع مقدس. مع ذلك تربطه علاقات وطيدة ببطريرك القدس؛ لذلك فإن اسمه يُذْكر في قداسات الدير. على الرغم من أن الوصاية التاريخية على الدير- بالأحرى- كانت لفترات طويلة للكنيسة الأرثوذوكسية الروسية، إلّا أن رهبان وأغلب كهنة الدير من الأرثوذوكس اليونانيين، فهم ليسوا عربًا أو مصريين، شأنهم- في ذلك- شأن كنيسة الروم الأرثوذكس بالقدس، التي يسيطر عليها اليونانيون من عهود طويلة. وبذلك فإن أسقف سيناء يدير إلى جانب دير سانت كاترين العديد من الكنائس والمزارات المقدسة الأخرى الموجودة بسيناء.

تابعوا جميعًا السير ماضون في طريقهم، حتى وصلوا إلى باب الدير، وهو المدخل الوحيد له. كان باب الدير العظيم على ارتفاع ثلاثين قدمًا، وقد صُمم لحماية الدير من الغرباء والدخلاء. طرقت ليليان باب الدير، ففتح لها عم رمضان، حارس الدير، وأدخلهم على الفور. عندما رأى يحيى الدير لأول مرة، شعر بسكينة طارئة، وراحة قلبية هائلة، حتى أنه راح يصف مشاعره بقوله إن ذلك المكان يشع طاقة نورانية إيجابية رائعة. زعم أن المرء ما إن يلجه حتى يتملكه الهدوء والصفاء، وكأن لا شيء يشغل تفكيره، ربما بالغ أيضًا عندما قال بأنه جعله ينسى جميع همومه ومشاغله. بعدئذ، توجهت بهما ليليان إلى غرفة الانبا استيفانوس اليوناني، رئيس الدير وأسقف سيناء؛ لتحيته. اجتمع بهم الأنبا لبعض الوقت، ثم توجهوا جميعًا برفقته إلى كنيسة الدير الكبرى، المعروفة باسم كنيسة الأربعين شهيدًا. فدخلوها جميعًا. وللوهلة الأولى، أخذت كارمن تجوب في جنبات الكنيسة العريقة، التي بنيت في عهد الإمبراطور غستنيان، الذي أمر ببناء ذلك الدير في القرن الخامس الميلادي؛ تمجيدًا للمكان المقدس الذي تجلى فيه الرب إلى النبي موسى، بعدما انتشرت المسيحية في جميع أنحاء الإمبراطورية، وباتت ديانتها الرسمية.

كانت الكنيسة المذهلة تتكون- في داخلها- من اثني عشر عمودًا صخريًّا ضخمًا، في حين كانت توجد على كل عمود أيقونة رائعة. تلك الأيقونات تؤرخ للأربعين شهيدًا، الذين قُطعت أعناقهم، لارتدادهم عن عبادة الأوثان. كان هؤلاء الشهداء من جنود الإمبراطور الوثني عم القديسة كاترين، وقد دفع بهم إليها لإقناعها بالحياة الدنيوية، في حين أقنعتهم هي بالحياة الربانية، فاعتنقوا المسيحية، فأمر الإمبراطور الروماني بقطع بعض رؤوس المتمردين، فيما تمكَّن الآخرون من الهروب حتى هذا الدير، مستقرين به في نهاية المطاف، وبعد وفاتهم بُني هذا الدير، فأمر الإمبراطور غستنيان بتخليد ذكراهم على تلك الأعمدة التاريخية البديعة.

تابع الأنبا إستيفانوس كلامه قائلًا: لقد سُمي هذا الدير باسم كاترين تخليدًا لذكرى تلك القديسة التي استشهدت نتيجة التعذيب الوحشي. كانت القديسة كاترين من عائلة أرستقراطية وثنية، حيث وُلدت في الإسكندرية في ١٩٤ م. كانت تُسمى- حينها- بزوروسيا، كانت جميلة ومثقفة، رغبها الكل لجمالها الفائق، لكنها رفضت الجميع. وآمنت بالمسيحية. كان ذلك أثناء اضطهاد الإمبراطور مكسيمنيوس لأتباع الديانة الناشئة آنذاك. وبعد مرور حوالى ثلاثة قرون، ظهرت رفاتها المقدسة في حلم أحد رهبان الدير على قمة أعلى جبل بسيناء، ألا وهو هذا الجبل، حيث نقل مَلَكان عظيمان جثمانها إلى هنا، وعندما صعدوا إليه، وجدوا رفاتها بالفعل. فنقلوها إلى داخل الدير، حيث وضعت في هذا الهيكل المسمى بقدس الأقداس، لقد تغير اسم الدير عدة مرات، من القديسة هيلينا مرورًا باسم العذراء مريم، وأخيرًا حمل اسم سانت كاترين، حتى أصبح يعرف باسمها منذ القرن الحادي عشر وحتى الآن.

كانت الكنيسة التاريخية تحتوي على هدايا نفيسة من ملوك وأمراء، ما

جعله- بالفعل- يمثل قطعة من الفن التاريخي المتعدد، فهناك الفسيفساء العربية، والأيقونات الروسية واليونانية، واللوحات الجدارية الزيتية، النقش على الشمع، وغير ذلك من الآثار الثمينة. كما يحتوي- إلى جانب كل هذا- على أقدم مكتبة مخطوطات في العالم، قيل إنها ثاني أكبر مكتبة في العالم للمخطوطات، بعد الفاتيكان، من حيث المساحة، كما تحوي نزلًا للزوار وبرجًا أثري مميزًا للأجراس، في حين يقوم على خدمة الدير بعض أفراد البدو.

خرج الزوار من كنيسة الأربعين شهيدًا، بعدما اطلعوا على جزءٍ من تاريخها العريق، ثم توجهوا إلى كنيسة أخرى صغيرة بداخل الدير. عندما دخلوا إليها، بادرت الراهبة ليليان بالحديث فقالت: **تلك هي كنيسة القديسة هيلينا، وقد بنيت بجوار شجرة العليقة المقدسة، التي يمكن رؤيتها من هذه النافذة.** ثم بدؤوا في الصلاة، عندها أخبرهم يحيى برغبته في الاستئذان للصلاة في مسجد الدير.

خرج يحيى من الكنيسة الصغيرة ذاهبًا بمفرده إلى المسجد الواقع بداخل الدير، الذي بُني- في مرحلة لاحقة- بأمر من أحد حكام مصر في العصر الفاطمي. كان يحيى ممتلئًا بكم هائل من المشاعر الفيّاضة، فعندما تدخل إلى ذلك المكان المقدس تشعر برغبة جارفة في البكاء؛ لتطهر روحك من دنس الحياة الدنيوية، وتسمو بها إلى قدس الحياة الروحانية. توضأ يحيى، ثم صلّى ركعتيْن بداخل المسجد، ولمّا انتهى، عاد- على الفور- إلى رفاقه بداخل كنيسة القديسة هيلينا، المجاورة للمسجد، لكنه وجدها واقفين خارجها، أمام شجرة العليقة المقدسة. هناك سمع الإنبا استيفانوس يقول: **إنها شجرة العليقة المقدسة التي اشتعلت نارًا دون أن تحترق لترشد النبي موسى عن وجود نار في هذا الوادي. فذهب موسي على أثرها ليأخذ منها قبسًا للتدفئة، لكن ما**

إن وصل إليها، حتى ناجاه الرب، فأمره أن يخلع نعليه، لأنه بالوادي المقدس طوى، ثم أمره بالعودة إلى أرض جوش، والذهاب إلى فرعونها، ليدعوه إلى الله، وليحرر بنى إسرائيل من العبودية والذل. العجيب أن بعض العلماء حاولوا- بالفعل- زراعة هذه الشجرة في أماكن أخرى في العالم لكنها لم تنبت، حتى حاول فريق آخر من العلماء زراعتها في مكان قريب من الدير، لكن كانت المفاجاة أنها نبتت في صورة شجرة أخرى. ما يدل على أنها من معجزات الرب التي خصّ بها واديه المقدس.

تابع الزوار السير متفقدين الوادي المقدس، وسط صمت وذهول يحيى وكارمن، اللذيْن بدا عليهما الشغف والاهتمام بأمر ذلك المكان الضارب بجذوره في التاريخ، حتى وصلوا جميعًا إلى بئر موسى، فقالت ليليان: **أتعلمان ما هذا؟! إنه بئر موسى الذي أسقى منه موسى بنات النبي شعيب الذي كان يعيش هنا. وعندما علم النبي شعيب بأمره، توسم فيه الخير، فقرر تزويجه إحدى بناته، ولذلك مكث هنا موسى أربعين سنة بعد هروبه من أرض جوش، حتى كلمه الله وأمره بالعودة.** شعرت كارمن بعظمة هذا المكان المقدس، الذي يحتضن في قلبه الأديان السماوية الثلاثة، في صورة ترمز بالوحدة والتقارب بينهم. قالت كارمن في عجب: **لو أن العالم بأسره اجتمع للتوحيد بين الأديان، ما استطاعوا أن يفعلوا كما فعل هذا الدير، الذي يحوي بداخله دعوة الأديان الثلاثة مجتمعة.**

أنزل يحيى الدلو إلى داخل البئر، كما فعل النبى موسى من قبل، ثم رفعه محملًا بالماء، فشربوا جميعًا، ثم دعاهم الأنبا استيفانوس لتناول عشاء عيد القيامة معًا. عندما انتهوا، أهداهما الأنبا خاتمًا فضيًّا يحمل اسم القديسة كاترين، بمناسبة العيد، ترحيبًا خاصًّا بهما. في حين أخبرهم أن ذلك الخاتم

سوف يحمل لهم البركة أينما ذهبوا. ثم دعتهم ليليان لحضور قداس عيد القيامة، والاحتفال بالعيد، قبل الخلود إلى النوم، ومن ثم الاستعداد في صبيحة عيد القيامة المجيد لصعود جبل موسى قبل شروق الشمس، ولقد وعدتهما بمفاجأة غير متوقعة في نهاية الرحلة.

قبيل شروق الشمس، استيقظت الراهبة ليليان، فتوجهت إلى غرفة الزوار؛ لإيقاظ يحيى وكارمن. على الفور استعدوا جميعًا للحج صعودًا إلى جبل موسى. توجهوا إلى سفح الجبل، حاملين خلف ظهورهم حقائب ثقيلة، متزودين بطعام، وشراب، وأغطية تقيهم البرد القارس على قمة الجبل. تمهدوا للصعود عبر طريق الرهبان، وهو الطريق التقليدي الذي يسلكه السياح؛ لإثبات جدارتهم للصعود إلى قمة الجبل. عبر سلالم التوبة. بدأ الجميع في الصعود في عزم وإصرار، وبمشقة بالغة اجتهدوا للصعود، الذي يأخذ نحو ثلاث ساعات أو أكثر وصولًا إلى قمته، وثلاثٍ أخرى للهبوط. لكن ليليان أخبرتهم بأن الصعود سيكون أيسر من النزول عنه؛ حيث في النزول مخاطر جمة، وقد تكون تكلفة السقوط- من فوق إحدى الصخور الضخمة غير المنتظمة- هي أرواحهم؛ لذا عزموا الهمة حتى يتمكنوا من النزول عن الجبل قبل غروب الشمس.

في أثناء صعودهم سلالم التوبة، وجدوا بابًا صغيرًا، فقالت لهم ليليان: **دعونا نعبر الآن هذا الباب، إنه باب الاعتراف.. وقد بناه الراهب الشهيد اسطنانوس ليكون بوابة الحجاج للاعتراف بالذنوب والخطايا. لذا أسألكم التوبة وطلب الغفران من الرب.** بعدئذ، استكملوا الصعود، حتى وصلوا إلى باب الغفران. عندها قالت لهما ليليان: **مبارك عليكما. غفر الله لكما وبارك في عمركما.** ثم عاودوا الصعود، وقد بدأ يبدو عليهم التعب والإرهاق الشديديْن،

فأخذوا قسطًا من الراحة، قبل أن يستجمعوا قواهم لمواصلة الحج. أخيرًا، وصلوا إلى قمة الجبل، فحمدوا الله كثيرًا، وأثنوا عليه، شاكرين أن أنعم عليهم بالوصول إلى قمته. بقوا- هنالك- على قمة الجبل ثلاث ساعات. أدّوا خلالها الصلاة، وتبتلوا إلى الخالق بالدعاء، ولمّا انتهوا، استعدوا جميعًا للنزول، قبل أن تغرب فوقهم الشمس، فيستصعب عليهم الوصول إلى الدير، في الظلام الدامس.

عاد الجميع إلى الدير بسلام، قبيل الغروب مباشرةً، فاجتمعوا بالأنبا استيفانوس؛ لتناول الطعام، عشية يوم شم النسيم، الفرعوني الأصل. وفي خلال تناولهم للعشاء، دار بينهم هذا الحوار:

قال الأنبا: حمدًا لله على سلامتكم. كيف كانت رحلة الصعود إلى قمة جبل موسى، أيها المباركون؟!

يحيى: كانت شاقة للغاية، لكنها رائعة. لقد شعرتُ بالطاقة والقوة التي منحتني العزم والإصرار على تحمل تلك المشقة حتى الوصول إلى القمة.

كارمن: "أمّا أنا فعاجزة عن وصف مشاعري، إنني سعيدة بشدة للمجيء إلى هنا، وسعيدة أكثر بالالتقاء بكِ مجددًا، يا ليليان. ليليان: بل أنا أكثر منكِ سعادةً، يا عزيزتي. فها نحن نلتقي من جديد ونتناول الطعام معًا كما اعتدنا من قبل عندما كنا صغارًا.

قالت كارمن: «حقًّا، وكأن عمرًا طويلًا مضى دون أن أشعر به.

قال يحيى: أووه، يبدو أنكما تحبان بعضكما البعض كثيرًا.

قال الأنبا: **أدام الرب محبتهما وجمع بينهما في الجنة، لكن أخبراني ماذا تخططان بعد ذلك؟ هل ستبقيان معنا حتى نهاية الأسبوع؟ أم تنويان الرحيل غدًا؟** فأجابته كارمن قائلة: **للأسف الشديد، إننا مضطران للعودة إلى**

مصر، حيث لدى كِلِيْنا عمل صباح يوم الثلاثاء المقبل. فأنا أعمل في قنصلية سفارة الولايات المتحدة بالقاهرة، ويحيى- كذلك- عليه العودة إلى عمله بالجريدة. لذا، فسوف نستعد للرحيل غدًا مساءً، بمشيئة الرب. ثم عقّب يحيى قائلًا: **بالفعل، علينا المغادرة مساء الغد. لقد حجزنا طائرة إلى القاهرة، وسوف نغادر مباشرة بعد الغروب إلى شرم الشيخ.**

بدا على ليليان عدم الرضا عن قرار رحيلهما السريع، فقالت: رغم أنني أرغب في بقائكما، لكن سعدتُ بكما كثيرًا، وأتمنى أن تكررا تلك الزيارة مجددًا. لكن حينها، عليكما أن تُعِدّا نفسيكما للبقاء معنا أسبوعًا كاملًا على الأقل، فليلتان غير كافيتين لشحن الروح بالطاقة الإيجابية المنبعثة من هذا الوادي المقدس.

فأجابتها كارمن قائلة: نعم، أنتِ محقة، يا ليليان. الآن فقط أيقنت أنكِ كنتِ على صواب عندما قررتِ الرهبنة، واعتزمتِ المكوث هنا.

قال يحيى: **كما لو كنتِ- يا كارمن- تودين أن تفعلي مثلها.** فعم الضحك عليهم جميعًا، حتى انتهوا من عشائهم. عندها تذكر يحيى تلك المفاجأة التي وعدتهما ليليان بها، فطفق يسألها عنها، حتى أجابته قائلةً: **نعم، لم أنسَ. دعونا نذهب إلى غرفة الجماجم المغلقة، للعلم، هذه الغرفة غير متاحة لجميع الزوار. لكنكما لستما زوارًا عاديين، لقد صرنا عائلة واحدة. فهل أنتما ترغبان في ذلك؟** هز كلٌّ من يحيى وكارمن رأسيْهما، بعد أن نظرا إلى بعضهما البعض، قائلين في صوتٍ واحد: **نعم، بلا شك.**

اصطحبتهما ليليان، حتى دخلوا إلى غرفة الجماجم المقدسة. عندما ولجوا شعرت كارمن بالرعب الشديد، في حين تسارعت نبضات يحيى؛ ذلك لما اتسمت به تلك الغرفة -الواقعة أسفل كنيسة خاصة لإقامة الصلاة، وتأبين

رهبان الدير- من رهبة خاطفة. بالقرب من السقف، كان هنالك نوافذ واسعة، تتسلل منها خيوط الشمس، التي تتكسر فوق الجماجم، فتخلف ظلالًا من القدسية لذلك المكان. قطعت ليليان خوفهما قائلةً: **هكذا هي عادة رهبان الروم الأرثوذوكس، فبعد موتهم بفترة، يتم نبش القبر وإخراج الرفات، ثم توضَع في هذه الحجرة، حيث توضع الرؤوس في مكان مخصص، والأذرع في مكان خاص، والأرجل -كذلك- في مكان آخر مع ما تبقى من عظامهم.**

كانت تلك الجماجم متراصة فوق بعضها البعض بشكل هرمي، وكان في وسط الغرفة هيكل عظمي كامل للراهب اسطنانوس. إنه الراهب الذي شيّد بوابات التوبة. كان هذا الهيكل العظمي يرتدي كامل ملابسه الكهنوتية، كما يوجد في الغرفة- من وجهة نظر الرهبان- نوع خاص من العظة والعبرة بنهاية الإنسان.

بدت ليليان غير مرتاحة قليلًا، ما لفت انتباه كارمن. ولمّا سألتها عن سر ذاك الشعور الغامض، طلبت ليليان أن تتحدث إليها-على انفراد- خارج الغرفة. اعتذرت كارمن ليحيى، فيما خرجت وراء ليليان. انتظرت ليليان لحظة، حتى قالت بنوع من الريبة: **كارمن، أنصتِ إلي جيدًا، سأخبركِ أمرًا عجيبًا اكتشفته في تلك الغرفة.** طلبت منها كارمن أن تشي بما في قلبها دون تردد، فأسردت ليليان قائلة: **منذ شهور مضت، رأيتُ بالمنام أنني التقط قلادة سحرية غامضة بداخل قبو الجماجم، وعندما نهضتُ فزعةً، أسرعت إلى داخل القبو، حيث وجدتُ ذات القلادة التي رأيتها، انتابني الخوف، لذا سألت عنها أحد الرهبان الذي يعيش هنا منذ زمن، فأخبرني بأمرها.** سألتها كارمن: **وماذا أخبركِ ذلك الراهب الهَرِم إذن؟** أسرعت ليليان تجيب، بينما تتلفت يمينًا ويسارًا: **قال لي إنه منذ سنين عدة جاء بها إلى الدير أحد المسيحيين، كان أمره**

مريبًا حقًّا، لكنه أخبر الراهب أنه اشتراها من أحد الرجال، وأراد إهداءها إلى الدير، فيما بدا أنه يعلم سرها، لكن ما أراد أن يخبر عنها المزيد، ومن حينها وهي مهجورة بداخل قبو الجماجم المتكسرة، لكن ما أثار هلعي مؤخرًا، أنه عاودني كابوسٌ بشعٌ، رأيتُ فيه رجالًا ملثمين مدججين بالأسلحة يطرحونني أرضًا بينما أرادوا انتزاعها من يدي، إنها تلك القلادة، وأنا أخشى على إبقائها معي، ولا أأتمن عليها أحدًا غيركِ، لذا أريد إبقاءها معكِ حتى أتيقن أنه مجرد كابوس لا أكثر، ومن ثم سأستعيدها منكِ. ارتعدت فرائص كارمن، وانتابها فزعٌ مقيتٌ. فراحت تقول: **وهل تضمنين أن تبقى بأمان معي؟**

قالت ليليان برجفة في يدها: **نعم، أنا على يقين بذلك، وكما نحن واقفتيْن هكذا، رأيتُ ذلك بالمنام، وأنا أعطيكِ إياها، وقد قبلتِ الأمر.** تناولت كارمن القلادة من يد ليليان، فانقبض صدرها، ثم قالت: **إذن، هيا بنا لنعود إلى يحيى.**

استأذنت ليليان فجأة للعودة إلى الكنيسة، لكنها أخبرتهما بعودتها سريعًا، وطلبت منهما الانتظار بداخل الغرفة، وعدم الذهاب إلى أي مكان آخر. أخذا يحيى وكارمن يتفقدان الغرفة بفضول متناهٍ. ثم نادت كارمن على يحيى قائلةً: **يحيى، تعال هنا بسرعة.** أسرع يحيى إليها، فوجدها تشير إلى باب حديدي كبير. طلبت منه أن يفتحه، فلم يتردد يحيى نهائيًّا، وأطاعها؛ حيث كان الفضول يحركهما. عندما فتحه يحيى بكل يسر، وجدا الباب ينفتح على غرفة أخرى، لكنها أضيق من تلك الغرفة التي يتواجدان بها. كانت الغرفة مظلمة للغاية، وكانت ثمة شعلة بجانب الباب، وبجانبها قليل من الجازولين. أوقد يحيى الشعلة، فأضاءت لهما الغرفة. لم يجدا بدًّا من اقتحامها. كانت فارغة إلى حدٍّ كبير، لم تكن تحوي أي شيء على الإطلاق، عدا عن بعض الصلبان

الحجرية مبعثرة فوق التراب. فقال يحيى: **إنها غرفة دفن، علينا الخروج احتراما لقدسية الموتى**. فجأة صاحت كارمن: **من هنا.. لندخل من هذا الباب.** وجدت كارمن بابًا آخرَ منفتحًا، بنهاية الغرفة، فدخلا إليه. كان ذلك الباب يقود إلى قبو ضيق. ولج يحيى إليه أولًا، ثم تبعته كارمن. كانا خائفيْن بشدة، لكن شعورهما بالفضول كان يتعاظم، فتابعا اقتحام القبو، الذي كان يعج بمخطوطات مجهولة، وأيقونات للقديسين والرهبان الذين عاشوا في الدير منذ زمن. لكن ما جعلهما يترددان بالولوج أكثر، هو مشهد العظام والجماجم المهولة الطافية فوق التراب. كانت ثمة عظام أخرى مندثرة في التراب تحت أقدامهما؛ لذا كانا يحاولان تفاديها. اجتازا بيسرٍ مسافةً ليست قصيرة بداخل القبو، لكن قدم يحيى تعثرت بإحدى تلك العظام، فسقط جاثمًا على وجهه، فانطفأت الشعلة، وغمر الظلام المكان. حينها أدرك يحيى أنه ليس لديه مزيد من الجازولين، فتبدل الفضول بالرعب، وقررا فورًا العودة من حيث أتَيا في ذلك الظلام الدامس. استدارا إلى الوراء، وطفقا يتحسسان الجدران، محاولَيْن عبور الظلام، والعودة مجددًا. لكن في ظل ما كان يَصْعُب عليهما رؤية أي شيء، عبرا قبوًا آخرَ يتفرع من الأول، ظانّيْن أنهما في طريقهما إلى الخروج.

وفجأة، تعثرت كارمن هذه المرة بأحد الأحجار، وقد صارت تقود يحيى في العودة، فانزلقت قدماها، وسقطت. ساعدها يحيى للنهوض، وبينما يجذبها بيده، إذ تحركت الأرض من تحتهما، ثم انهارت فجأة، فسقطا في جرف كبير.

الجزء الثاني

أفاريس 1648 ق.م

אוארס

ב" קי"ג

(1)

لم يدرك يحيى وكارمن أنهما ارتكبا حماقة شديدة، إلّا عندما وجدا نفسيهما قد سقطا في هوةٍ عميقة في باطن الأرض، ربما تجاوز عمقها المائة متر تحت سفح هضبة سانت كاترين، في حين كانت تحيطها الصخور الضخمة من كل جانب. كان يحيى- الذي استرد وعيه بعد ساعات من السقوط الهائل- يحاول الضغط على صدر كارمن لتستعيد وعيها، حتى تنحنحت- أخيرًا- مصدرة صوت سعال حاد ومتتابع، فاستفاقت، ومن ثم فتحت عينيْها. اكتشفت كارمن هول ما حدث معهما، فأخذت بالصراخ الشديد. في تلك الأثناء، حاول يحيى أن يرغمها على التوقف من دون جدوى، فصاح في وجهها قائلًا: **اهدئي أرجوكِ، علينا أن نحتفظ بقدر من الهدوء حتى نحسن التفكير في هذه المصيبة التي ألمّت بنا. يجب أن نفكر مليًّا في كيفية الخروج من هذه الحفرة العظيمة. انظري حولكِ.. حاولي أن تجدي معي أية طريقة للخروج من هنا. ربما نجد سلمًا، أو عسانا أن نتسلق تلك الصخور للصعود إلى الأعلى. أرجوكِ، يا كارمن، انهضي، وفكري معي، يجب أن نخرج من هنا سريعًا وإلّا سنموت.**

لكن كارمن جعلت تنتحب بحرقة، في حين تصرخ قائلةً: **لن ننجو، سنموت هنا.. سنموت هنا، يا يحيى. لا يمكننا الخروج. إنها حفرة عميقة للغاية، كيف سنخرج منها؟ لا أريد الموت، لا أريد الموت، يا يحيى.** أمسك يحيى بكتفيْها، ومخَّضها بشدة، قائلًا: **لا لن نموت. عليك أن تكوني مؤمنة أننا لن نموت. ثقي في الله الذي أبقانا حييين. ثقي أن الله سوف يرشدنا إلى الخروج، ثقي أنه سينجينا، يا كارمن. أرجوكِ تحلي بالبأس، فنحن لا نملك-**

الآن- سوى الأمل أن نتمسك به، أرجوكِ. لم يتمالك يحيى مشاعره، فأجهش بالبكاء، في حين يضم كارمن إلى صدره. مضت لحظات معدودة حتى عمَّ عليهما السلام، وبدآ في التركيز.

أخذت كارمن تُلقي نظرات ثاقبة في المكان من حولها، ثم نهضت فجأة، في حين تقول هامسةً: **أنا اسمع صوت مياه جارية. أنصت، هل تسمع ذلك معي؟** أمعن يحيى الإنصات، حتى قال: **نعم، معكِ حق، إنها حقًّا تبدو كذلك، لكنني لا أستطيع تمييز الصوت بدقة.** استعادت كارمن قواها، ومضت متجهةً صوب ذاك الصوت، محاولةً تتبع مصدره، فيما مضى يحيى خلفها. كان المكان شديد الرطوبة، فيما كانت الأرض طينية رخوة، مكسوة بعدة صخور بارزة، منغرزة في باطن الأرض، في حين لم يكن المكان شديد الظلام، بل بدا مضاءًا نوعًا ما، وكأنه يستمد بعض ضوئه من القمر، ما عنى لهما أنهما ربما يكونا قريبيْن من السطح، أو ربما هناك ثغرة قريبة ينفذ منها ذاك الضوء، وربما- كذلك- كان ضوء النهار؛ حيث بدا لهما- في أغلب الظن- أنه قد مضى على وجودهما في تلك الحفرة ردحٌ طويلٌ من الزمن.

حاول كلاهما تلمس الطريق حيث مصدر ذلك الصوت الصادر من مكان قريب. انحنيت كارمن مستعينة بالصخور من أسفلها لتحسس الطريق، فيما أخذت تحاول العبور بينها، في حين راح يتبعها يحيى متخطيًا الصخور الزَّلقة. جعلا يتحركان- هكذا- على مهلٍ، بحرص شديد، متفاديْن أن تزل أقدامهما فينزلقان. بعد جهدٍ شاق وجدا- هنالك- كهفًا صغيرًا يعلوهما، فصاحت كارمن **"يحيى، انظر فوقكَ إلى ذاك الكهف بالأعلى. لا يبدو عليه حالك الظلمة، دعنا نصعد إليه، ربما يقودنا إلى المخرج.** لم تبدُ فكرة سديدة ليحيى في بادئ الأمر، لكنه لم يكن لديه خيارٌ آخرٌ، فاضطر إلى الانقياد وراء زعمها،

رغم أنه سألها أن يحاولا العثور على مخرج آخر قريب، لكن كارمن أصرت على رأيها؛ معللة قولها بأن ذلك الصوت يصدر من مكان مرتفع. ألحَّت كارمن بإصرار، فلم يجد يحيى بدًّا من مخالفة رأيها، حتى عزما على الصعود في اتجاه الكهف. بعد عدة محاولات عسيرة، اقتربا- أخيرًا- من أحد أركان الحفرة العظيمة، فأمسكت كارمن بإحدى الصخور البارزة، وحاولت الصعود عليها، لكنها وجدت صعوبة بالغة في تسلقها؛ كانت شديدة الانحدار، وربما تزلّجها يؤدي إلى السقوط المميت، فنزلا عنها، وانتقلا للبحث عن درج آخر أيسر؛ يوصل إلى ذلك الكهف المرتفع. حتى رأيا-عن بعد- درجًا آخرَ صخريًّا، بدا منحوتًا بشكل طبيعي، فيما يقود مباشرةً إلى أعلى الكهف، دون الحاجة إلى التسلق المعرض للمخاطرة.

صعدا معًا الدرج بمنتهى الحذر، حتى وصلا -أخيرًا- إلى مدخل الكهف. بمجرد أن عبرا بوابته، طفقا يستمعان إلى ذاك الصوت الهادر مجددًا، ولكن بدا لهما أكثر وضوحًا من ذي قبل، وكأنه يقترب أكثر، فولجا بداخل الكهف. كان عبارة عن نفقٍ متسعٍ بباطن الارض، كما كان هناك ضوءٌ خافتٌ ينبعث عن نهايته، فصاحت كارمن تقول: **هيا، يا يحيى. دعنا نمضي بداخل النفق، حيث ذاك الضوء. يبدو أننا ربما نعثر على المخرج. لقد اقتربنا من مصدر الصوت.**

لم يكن يحيى يملك همة كارمن نفسها للمضي قدمًا في ذلك النفق الطويل، لكنه اندفع وراء حدسها الجارف كالسيل، حيث بدا عليها من اليقين بأن ذلك النفق سوف يرشدهما للخروج ما جعله لا يبدي أي اعتراض، وهل هنالك من اعتقاد آخر يمكنه أن يتعلق به، في حين يختنق صدره كالغريق الذي يتمنى أن يتعلق بأهش قشة علّها تنقذه. ظلا البائسان يسيران قُدمًا، مُنْحنيي القامة، داخل نفق الكهف الممتد، حتى توقفا عند نهايته، فوجدا

منحدرًا خَطِرًا غارزًا، في أسفله فجوة عظيمة، بها شلال ماء صغير، يتدفق من الأعلى على الجانب الآخر. صاح يحيى قائلًا: **لا يمكننا النزول عن هذا المنزلق اللزج، علينا العودة، وإلّا ستتكسر عظامنا فوقها**. لكن كارمن كانت عازمة على إيجاد وسيلة للهبوط. فقالت في تصميم: **ليس أمامنا سوى التشبث بهذه الحافات البارزة**. لم تتردد كارمن، فجثت على ركبتها، ثم راحت تُدلِّي قدمها بحذرٍ. تمسكت بمخالبها جيدًا بإحدى الحافات. في المقابل، بدأت النزول باتزان، حين وطأت بأصابع إحدى قدميْها على حافة أخرى بالأسفل. كان من الصعوبة بمكان تسلق منزلقٍ صخريٍّ شديد الانحدار هكذا، لكن جرعات الأدرينالين المنقذفة بدم المرء الباحث عن النجاة من الموت الوشيك، تكفي لأن تجعله يخاطر بحياته، هاربًا من الموت إلى الموت؛ متمسكًا بأقل القليل من الأمل الكافي للنجاة. لذا راحا يتسلقان المنحدر نزولًا إلى قعره العميق. لكن قُرب الوصول، انتابت ساق يحيى رجفة شديدة، فزَلَّت، وانزلقت. بات معلّقًا، متمسكًا بقوة بحافة الصخر، فصاحت به كارمن: **يحيى، تشبث جيدًا**. لكنه فقد السيطرة، فانسابت أصابعه عن الحافة، فهوى، جارفًا كارمن معه، فسقطا مرتطميْن بالصخور القاسية.

نجى يحيى من السقوط المهلك، لكنه أدرك أن كارمن- التي سقط فوقها- تنزف بشدة من ساقها. صرخت كارمن في ألم فظيع، فخلع يحيى قميصه، وربطه فوق النزيف ليوقفه. صاحت كارمن: **إنني أتألم بشدة، لا يمكنني الضغط على ساقي**. أسندها يحيى، حتى وصلا إلى قعر الشلال المائي المنجرف. كانت المياه تتدفق خلال صخور مسامية حصوية بارزة، مخترقةً واديًا ممتدًّا، يقود إلى ممر ما، مع ذلك شعرا بالإحباط والقنوط، فقال يحيى يائسًا: **لقد عثرنا- إذن- على مصدر الصوت.. لكننا لم نجد أي مخرج. لقد انتقلنا من حفرة إلى أخرى أعظم منها. يبدو أنه لا مفر لنا من الموت، ماذا**

سنفعل الآن؟! أجابته كارمن بيقين قائلة: **لا، يا يحيى، لا تحزن، إننا سننجو بمشيئة الرب، ساعدني على المرور فوق هذه الينابيع.** اتَّكأت كارمن عليه، ثم استطردت قائلةً: **إن هذه المياه التي تتدفق من أعلى تعني أننا في قعر خزان جوفي محصور بجوف الأرض، وهذا يَدُلّنا على أنه يتوجب علينا أن نسلك نفق هذا الخزان المنحدر كي نصل إلى سطح الأرض.** أجابها يحيى وقد تمكن منه التعب: **"أظنُ كلامكِ صحيحًا، إنه حوض بئر ارتوازي انسيابي. يبدو أننا محصوران بين طبقتيْن صخريتيْن مقعرتيْن، من المحتمل أنه يوجد هنالك مخرجًا بنهاية هذا الخزان.** بدت على كارمن بهجة الأمل، فقالت: **يا إلهي، يبدو أننا لم نفقد الأمل، وبالطبع، ربما يكون ذاك المخرج أقرب بكثير مما نعتقد.** عقب يحيى قائلًا: **بلا شك، هذا الماء المنساب يقع تحت ضغط كبير، في حين ينتهي الماء المضغوط تلقائيًّا في مخرج ما بوادٍ فوقنا مباشرة، من الأجدر بنا سلوك هذا النفق إلى نهايته، هيا بنا، يا يحيى، ساعدني لنسرع، لكن احذر جيدًا هذه الصخور.**

لم يأخذ يحيى وقتًا مليًّا للتفكير، كان من الضروري استغلال الوقت قبل أن تنفد طاقتهما. كانت إصابة كارمن بالغة، ومع زيادة الجهد المبذول بدأت تشعر بانخفاض ضغط دمها، لكنها تحاملت حتى يعبرا النفق المائي. بعد مرور وقت طويل، بدأ ينفد صبرهما، دون إيجاد أي منتهى لذلك النفق. انتابهما شعورٌ غامرٌ بالإحباط، قبل أن تتعثر قدم يحيى بين مسام الصخور الصلبة، لكن كارمن حالت دون انزلاقه، فانحشرت قدمه بين الصخر. جثت كارمن على ركبتها ببطء شديد، محاولةً إفلات قدمه، وبينما تجاهد لخلع حذائه؛ فسحب قدمه خارجها، آلمتها ساقها بشدة، فصرخت قائلة «**أشعرُ بكسر في ساقي، لا أقوى على الوقوف، إنها تؤلمني بشدة.** حاول يحيى انتزاع قدمه المحشورة، لكنه لم يستطع، فهمَّ بمساعدة كارمن على النهوض. لملمت كارمن

آلامها، فتشبثت بيد يحيى، ونهضت منتحبةً من شدة الألم. أضحى واضحًا أنه لا حل أمامها سوى دحرجة هذه الصخرة بعيدًا عن قدمه. الصخرة ثقيلة جدًّا، وعصية على الدفع، ومع ذلك حاولت كارمن دفعها، بقليل مما بقي لديها من قوة، حتى تمكنت- أخيرًا- من تحريكها بقدرٍ يكفي لإخراج قدم يحيى.

بعدئذ، أخبرها يحيى أنه من الضروري تحمل المشقة، واستكمال السير بداخل نفق حوض البئر. لم يكن الأمر سهلًا على الإطلاق، لكنهما نجحا بالفعل، حين اكتشفا انعطافة بنهايته. قادهما الأمل إلى ممر آخر عرضي طويل، كان من اليسير عبوره. استشعرت كارمن اقتراب الفرج، عندما لمحت شعاع شمس يخترق ذلك النفق، ما جعلها تصيح في بهجة بالغة: **يحيى، هذا الشعاع يعني أننا على مقربة من السطح. لقد نجونا حقًّا، أنا لا أصدق.** بدا يحيى أقل تفاؤلًا، على الرغم من أنه لاحظ- بالفعل- شعاع الشمس يخترق النفق من بعيد، فقد جعلته عزيمته المثبطة لا يرغب في الاندفاع وراء سراب أمل خادع. لكن اتضح له- أخيرًا- أنه لم يكن سرابًا، فأراد أن يصب جم تركيزه على المضي خلف بوصلة الأمل اليسيرة المتبقية، فأخذت كارمن تصيح به في عزيمة **هيا، أسرع، يا يحيى، إننا نقترب من النجاة، هيا.**

في النهاية، وصل الصديقان- رابطا الجأش- إلى تجويف صخري رملي متسع وكبير. كان فارغًا تمامًا، وخاليًا تقريبًا من الماء. كانت أرضه مليئة بالحصى الصغيرة المفتتة، وبأعلاه، اكتشفا منفذ الضوء، حينها صاحت كارمن مبتهجةً: **هناك في الأعلى، انظر فوقك، يا يحيى، المخرج فوقنا تمامًا.** نظر يحيى أعلاه، فشعر بصحة زعمها.

بسرعة مفرطة من الحماس، حاولا البحث عن طريقة للصعود، فما كان عليهما إلّا أن طفقا يجلبان الصخور الكبيرة والمتوسطة الحجم، ثم جعلا

يضعانها فوق بعضها البعض، في تراصٍّ عجيب، حتى كونت إلى حدٍّ ما يشبه الدرج يمكن صعوده. صعدت كارمن المصابة أولًا، بعناية يحيى، ومن ثم صعد تبعها، حتى ارتفعا إلى فوهة منفذ الضور الكبيرة، فوجدا ممرًّا ضيقًا، مشحونًا عن آخره بضياء النهار. حينها أجزما على قرب انتهاء معاناتهما، فأخذا يعبرانه، مخترقيْن الأشعة المتعامدة عليهما، حتى اقتربا من نهايته، فصار ذلك الممر يضيق عليها أكثر فأكثر، لدرجة أن أجسامهما الواهنة ما عاد يمكنها عبور ذلك الكهف. لذا حاول يحيى النبش في الرمال، فيما راحت كارمن تفعل مثله. أدركا أنه من اليسير على جسديهما النحيفين الزحف خارجًا إلى فم الكهف؛ لذا قرر يحيى أن تحاول كارمن الزحف أولًا، في حين يقوم على مساعدتها بدفع قدميْها إلى الخارج، ومن ثم عندما تخرج كارمن تسحبه إلى الخارج. وبوضعية الجنين، بسطت كارمن ذراعيها فوق الرمال الناعمة، وأخذت تزحف بكل قوتها، مستعينة بطاقة يحيى لدفعها.

أخيرًا، نجحت كارمن في الخروج، واندفع خلفها يحيى زاحفًا، في حين أمسكت كارمن بيده من خارج الكهف، وراحت تسحبه بقوة، حتى خرج يحيى أيضًا. في تلك اللحظة التي يتوقف عندها الزمن، دفعهما شعور السعادة الغامرة مع عدم تصديق نجاتهما إلى البكاء المنهمر، فطفقا يصرخان حمدًا لله على أن أمهلهما فرصة جديدة للعيش.

لكن تلك الفرحة العامرة لم تدم طويلًا، فكانت المفاجأة أنهما حينما نظرا حوليْهما، وجدا نفسيْهما في قلب صحراء جرداء شاسعة، تحيط بهما الرمال الصفراء القاحلة من كل جانب، في حين لم يعثرا على أي أثر لوجود الدير على مقربة منهما، في حين حتى لم يجدا هنالك أية معالم لثمة جبال على مرمى بصرهما، في ذلك المكان الغامض النائي. عندها خيّم عليهما الذهول الجلل،

وخالجهما شعورٌ بالريبة من النجاة، فصرخت كارمن بصوتٍ شاحب، مشوب باليأس:

-ربّاه، هل نحن في كابوس مزعج؟! إننا لم ننجُ بعد.

ثم سقطا مغشيين عليهما.

(2)

"لا أعرف لماذا قد نزلت بنا في عهد توتيمايوس[1] صاعقةٌ من غضب الإله. فقد تجرَّأ قومٌ من أصل وضيع، من الشرق، على غزو بلادنا. كان مجيئهم أمرًا مفاجئًا، وقد تسلَّطوا على البلاد بقوة، في غير صعوبةٍ ما، وبدون نشوبِ واقعة حربية.. وبعد أن تغلَّبوا على الرؤساء، أحرقوا المدن بوحشية، وأزالوا معابد الآلهة، وساروا في معاملة الأهل بكل قسوة، فقتلوا بعضَ القوم، وسبوا نساءً وأطفالًا آخرين. وفي نهاية الأمر، نصَّبوا واحدًا منهم، يُدعى ساليتيس، ملكًا عليهم، فاتخذ مدينة منف مقرًّا له، وفرض الضرائب على الوجهين القبلي والبحري، وترك له حاميات في الأماكن التي كانت أعظم صلاحية للدفاع، وقد أمَّنَ جناحه الأيمن بوجه خاص؛ لأنه كان يتنبَّأ بما عساه أن يحدث من اغتصاب الآشوريين، بمهاجمته عندما تزداد قوتهم في المستقبل، ولمّا كُشِف له في أرض جوش عن مدينة حسنة الموقع، تُسمى أفاريس، تقع على الجهة الشرقية من فرع بوبسطة، عمل على بنائها من جديد، وحصَّنَ جدرانها، ووضع فيها حامية، بلغ عددها نحوًا من مائتي وأربعين ألف رجل، مسلحين؛ لحماية حدوده، وكان قد اعتاد زيارة هذا المكان كلَّ صيف؛ لتوزيع الجِرايات، ودفع أجور الجنود، من جهة، وكذلك ليُلقِي عليهم دروسًا مهمّة في فنون الحركات الحربية؛ ولأجل أن يقذف الخوفَ في قلوب الأجانب من جهة أخرى، وبعدئذ اتخذها عاصمةً لمملكته الجديدة.[2]

(١) ملك من الأسرة الثالثة عشر، سقطت منف في عهده، على يد ساليتيس، فرعون الهكسوس، مؤسس الأسرة الخامسة عشر حوالى عام ١٧٥٦ ق.م. واستنتج د.علي فهمى خشيم في كتابه (رحلة الكلمات، الرحلة الأولى، ص 122) أن ساليتس (شلاتيس) = (المشلشل) وهو سنان بن علوان أو(الضحاك بن علوان).

(٢) عن المؤرخ اليهودي يوسيفوس، نقلاً عن المؤرخ المصري القديم مانيتون عام ٢٠٠ قبل

بعد سنين عديدة، كانت مملكة جوش المترامية الأطراف على موعد مع عهدٍ ظلاميٍّ من الاستبداد والقهر. فبعد أن توطدت أركان المملكة الناشئة للفراعنة الهكسوس المتتابعين، أُغلق على أهل القبط في يد مولى قاسٍ، يتسلط عليهم، ملكٍ رابعٍ جديد، يقال له السيد خيان، رب الجنود. فصار في أرض القبط خمس مدن، تتكلم بلغة كنعان، وتحلف لرب الجنود، يُقال لإحداها مدينة الشمس. أمر الملك الوثني الجديد باضطهاد دين بني يعقوب، بعد أن كان لهم شأنٌ عظيمٌ في زمن يوسف، خلال عهد الملك بنون[١]، ثاني الفراعنة الهكسوس. لكن بعد استيلاء خيان على عرش أرض جوش، عمل على استعبادهم في الحقول، وتسخيرهم في الخدمة الإلزامية بالجيش، وإجبارهم على ترك دين أبيهم إبراهيم.

عندئذ، تذكر بنو إسرائيل نبوءة يوسف، بأنه سيأتي يومٌ قريبٌ، تجف فيه المياه من البحر، ويجف النهر العظيم ويبس، وتنتن الأنهار وتضعف، وتجف سواقي أرض القبط، ويتلف القصب والأَسَل[٢]، والرياض على النيل، على حافة النيل، وكل مزرعة على النيل تيبس وتتبدد ولا تكون، والصيادون يئنون، وكل الذين يلقون شَصًّا[٣] في النيل ينوحون، والذين يبسطون شبكةً على وجه المياه يحزنون، ويُخزى الذين يعملون الكتان الممشط، والذين يحيكون الأنسجة البيضاء، ويكون كل العاملين بالأجرة مكتئبي النفس.

الميلاد عن حقبة (حقاوخاسوت) الملوك الرعاة أوالهكسوس.

(١) سماه بذلك مانيتون، وهي نفسها (با نون)، (با) = أداة التعريف فى المصرية القديمة = (ال)، نون = الماء (الفيضان)، وهذا يعني أن (بنون) = الماء (الفيضان)، انظر د.علي فهمى خشيم: (آلهة مصر العربية)، المجلد الأول، ص١٦٦، ولقب (بنون) يقابل معنى (الريان) وهو(الوليد بن الريان) ثاني الفراعنة الهكسوس الذين حكموا مصر!

(٢) نباتٌ ذو أَغصانٍ كثيرة شائكة الَأطراف من الفصيلة الَأسَلية، ينبت في الماء وفي الَأرض الرّطبة، وتُصنع منه الحُصرُ والحبال.

(٣) حَدِيدَةٌ مَعْقُوفَةٌ يُصَادُ بها السَّمَكُ.

في ذلك اليوم، ستكون أرض جوش كالنساء، فترتعد، وترجف من هزة يد رب الجنود التي يهزها عليها، وتمتلئ أرض المشرق رعبًا منه.

ذات يوم، بينما خيان في مجلسه، إذ تكلَّم متكلمٌ عمّا يتناقله بنو إسرائيل عن جدهم إبرام، أن غلامًا سيولد، يكون زوال ملك الفراعنة الهكسوس على يده، وما أكَّد ذلك الخبر، رؤية رآها الملك بنفسه. رآى أن نارًا خرجت من الشرق، ثم توجهت نحو أرض جوش، فالتهمتها بالكامل، وأحرقت قصره. فجمع معبري الرؤى، الكهنة، والسحرة، فسألهم. قالوا له: **ما نظن تلك الرؤية إلّا كما يقول بنو إسرائيل، غلامٌ يُولد منهم، يكون زوال ملكك على يده.** فصدرت أوامره، بأن كل مُوَلِّدة تأتي برأس طفل ذكر من بني إسرائيل لها هدية. فاستمر القتل فيهم، حتى أضحوا أذلاء، كثُرت بناتهم، وقل رجالهم. فأوصته حاشيته بأن يكون عام يُقتل فيه المواليد الذكور، وعام لا قتل فيه؛ خشية أن ينقرض رجالهم، ولا يجد من يخدمهم. وفي العام الذي لا قتل فيه، تحمل زوجة عمران، ابن يصهر، بن قاهث، بن لاوي، بن إسرائيل، ذكرًا اسمه هارون. ثم تُفاجأ بأنها حبلى، في العام الثاني مباشرةً، الذي يُقتل فيه الأولاد، لكنها لا تدري أذكرًا تحمل أم أنثى؟ انتظر الناس، وكلما اقتربت ساعة الولادة يزداد همها. فلمّا أنجبت، وضعته ذكرًا. لكن الرب أنزل في قلب المُولِّدة حبَّه، فضمته إلى صدرها، وقالت: **لا والله، لن تُقتل.**، فتركته. حتى أوحى الله إلى أمه أن ترضعه، ثم وضعته أمه في سفط[1] مطلي بالحُمَر[2] والزفت، بين الحلفاء على حافة النهر، ثم وقفت مريم - أخته- من بعيد تنظر ما عسى أن يكون. فلمّا نزلت، آسيا العاقر، زوجة خيان، وحفيدة الفرعون الأسبق

(١) سلّة (سبت) من البردي (خروج ٢: ٣) صنعتها أم موسى وطلتها بالحمر والزفت حتى لا يتسرب الماء إليها, ووضعت فيها ابنها, وسلمته لابنتها مريم لتضعه بين الحلفاء النامية على شاطئ النيل.

(٢) هو نوع من القار المعدني شبيه بالقطران الشديد ويتحول إلى زفت إذا ما جمد تمامًا، ولا زال يُستعمل أيضًا إلى اليوم في طلاء المراكب.

بنون؛ لتغتسل في النهر، رأت الولد في السفط، فرقَّ له قلبها، وقالت: **هذا من أولاد العبرانيين.** ثم قالت لها مريم: **هل أذهب وأدعو لكِ امرأة مرضعة من العبرانيات لترضع لك الولد؟** فقالت لها ابنة الملك: **اذهبي.** فذهبت الفتاة وودعت أم الولد فصارت مرضعة بأجرة. وربته ابنة الملك على يد معلمين مهرة في جميع فنون أرض القبط التعليمية والدينية. حتى كبُرَ، واشتد عوده. لكن بعد مُضي أربعين سنة، اضطر موشيه إلى الهرب جنوبًا، حيث أرض مدين، ومكث هنالك أربعين عامًا.

استفاق يحيى عندما سُكِبَ على وجهه الماء، وعندما فتح عينيْه، وجد حوله رجالًا يلبسون زيًّا غريبًا، فانفزع منهم كثيرًا، وأسرع يصرخ فيهم: **من أنتم؟!** أجاب أحدهم: **حابي سيس**[1]**، هل أنت بخير الآن؟ لقد وجدكَ بعض الجنود مغشيًّا عليك في الصحراء.. وكانت معكَ فتاةٌ من العبرانيين؛ كان مغشيًّا عليها أيضًا. قام الجنود ببل فمكَ، ثم اصطحبوك إلى دارك.** ثم أسهب ساخرًا: **يبدو أنكَ ذهبت إلى الخلاء لمضاجعتها. إنها إسرائيلية مثيرة حقًّا، رغب الجنود في مضاجعتها أيضًا. لكنهم أعادوها إلى قومها لتولّي شأنها.** لم يستطع يحيى تمالك أعصابه لسماع ذلك الهراء، فصرخ في وجههم قائلًا: **من أنتم؟ وما ذلك اللباس الذي ترتدونه؟! أين أكون؟ أنا لا أعرفكم.** حاول أحد الجنود تهدأته، لكنه استشاط هلعًا، فلم يستطيعوا السيطرة عليه، حتى دخلت سيدة طاعنة في السن، فأسرعت إليه قائلةً: **ابيس، ربيبي العزيز، حمدًا للإله بعل الذي نجّاك من الهول العظيم. لقد أخبروني أنهم وجدوكَ فاقدًا للوعي بصحراء جوش، أقصى شرق أواريس، طمئني، يا بني، كيف حالكَ الآن؟** طار عقل يحيى، وجن جنونه، فصار يمسك بالأشياء من حوله ويقذفها في كل اتجاه في اضطراب، هَلِع صارخًا: **بالطبع هذه مزحة سخيفة،**

(١) إسم يعني إبن الإله حابي (إله النيل).

لا إنني أحلم، إنني ما زلت أحلم، أريد أن أصحو من تلك الغفوة اللعينة. فراح يدب رأسه بصاري الفراش صائحًا: **أنا لا أعرفكم، لا أتذكركم، يجب أن أفيق من هذا الكابوس السخيف. أنهوا ذلك الآن، الآن. ابتعدوا عني، اغربوا جميعًا عن وجهي.**

بهدوء، تابعت السيدة نانيس ذلك، ثم قالت للجنود في فطنة: **من فضلكم، أيها الجنود، اذهبوا أنتم الآن، ودعوه حتى يصير بحالة جيدة.** خرج الجنود من الدار، بعد أن ألقوا على المرأة العجوز تحية عيد شمو[1]، وقد أخبروها أن الملك سوسرن رع -خيان، الإله الطيب ابن الشمس- سوف يعد حفلًا حاشدًا في وسط المدينة، بجوار القصر الملكي، عند معبد الإله ست المُشيَّد حديثًا، بعد أن ينتهي من افتتاحه، وتقديم القرابين للآلهة. ونوّه الجنود على أن الإله الطيب سوف يُلقي خطابًا مهمًّا على عبيده، وبعدها سيتوجه صوب أطراف أواريس؛ لتفقد العمل في تشييد الحصون الجديدة حولها، وأكدوا عليها ضرورة الخروج للاحتفال، ووجوب خروج حابيس مع الجنود؛ لتأمين موكب الملك، ولقد حذروها أيَّما تحذير، إن لم يحضر حابيس الموكب، فإن كبير الجند سوف يخبر الملك، والسيدة نانيس- بلا شك- تعلم يقين العلم، كيف يكون عقاب الإله الطيب. لذا أكدت لهم أنها ستجبره على الخروج لتأمين موكب الملك، لكنها توسلت إليهم لاستدعاء الطبيب، بايوم؛ لمداواة ربيبها المكلوم؛ كي يتسنى له حضور الاحتفال. أبدى الجنود موافقة، وخرجوا فورًا مسرعين.

بعد لحظات، هدأ يحيى، وبدأ يتدارك الموقف الجديد، وأخذ يفكر في حكمة فيما حدث معه، حينها عزم النية على التعامل مع الوضع المستجد

(١) عيد شم النسيم المصري القديم. وهو يعتبر بداية فصل الحصاد والنماء والخير، ويرمز إلى تجدد الحياة واستمرار الوجود.

بشكل طبيعي؛ حتى لا يرتاب أحد في أمره، فينكشف خبره؛ لذا كان لزامًا عليه أن يتقمص أمام الجميع بتلك الشخصية التي يدعونه بها، فينسى- تمامًا- اسمه القديم.

بعد ساعات وجيزة، جاء طبيب المدينة الأشهر، بايوم، ليجري كشفًا طبيًّا على حابيس. أعطاه الطبيب بايوم مشروبًا من العرقسوس، المخلوط ببعض الأعشاب الأخرى؛ لإخفاء مرارته، وذلك لتخفيف حدة العصبية والتوتر. طمأن الطبيبُ السيدة نانيس على ابنها، مؤكدًا لها أنه يتمتع بحالة صحية جيدة، تمكنه من حضور الحفل الملكي، ثم انصرف الطبيب مسرعًا؛ ليرافق الملك، حيث يجب أن يكون متواجدًا، بصفته أمير كتبة البلاط الملكي.

في الظهيرة، خرج حابيس برفقة مربِّيَته، السيدة نانيس. كانت الشوارع تعج بالمحتفلين، في الطرقات، الأزقة، والأسواق. الجميع نفروا من بيوتهم إلى الحدائق والمتنزهات، وعلى شواطئ النيل الخالد، يرتدون لباس العيد الجديد، ويتبادلون التهاني بقدوم فصل الحصاد. كانت الفرحة والابتهاج بالعيد تغمرهم جميعًا، والفتيات قد تزين بعقود من الياسمين، والحر بيك[1]، فيما يحمل الأطفال سعف النخيل، المزين بالورود وشتى الألوان المبهجة. كان العوام قد لونوا البيض، ثم نقشوا عليه الدعوات والأمنيات للعام الجديد، بعدها جعلوا يجمعون البيض المنقوش، ووضعوه في سلال من سعف النخيل، وعلقوه في شرفات المنازل، وعلى أغصان الأشجار في الحدائق. كان ذلك يتم في ليلة العيد، بعد غروب الشمس، وبعد سطوع إله الشمس رع، بأشعته الحمراء على الوادي الخصيب، التي توزع البركة على البسيطة بأسرها، يتناولون البيض؛ لتتحقق أمنياتهم، ثم يبدأ العيد. في هذا اليوم تتجدد الطبيعة بنسائم الربيع، وألوان الزهور، ويتَّشح الناس بكل مظاهر الزينة والجمال، ويستمر الاحتفال

(١) الملانة وهي الحمّص الأخضر الذي ينتشر كثيرًا في أعياد شم النسيم في مصر.

طوال اليوم، من شروق الشمس، وحتى مغربها. وفي خلال اليومن، كان الناس يقيمون حفلات الترفيه مثل: الرقص على أنغام الناي، والمزمار، والقيثارة، تصاحبها دقات الطبول والدفوف، مع الأغاني والأناشيد الخاصة بهذا العيد.

وبينما كان حابيس يسير في الطريق مع السيدة العجوز، إذ سألها عن وجهتها، فأجابته قائلةً: **سأذهب عند نساء العائلة في البيت الكبير، حيث سنتوجه جميعًا إلى شط النيل المقدس، قبل أن نشد الرحال إلى ساحة الاحتفال، المجد للإله حابي الواحد، خالق النيل المجيد. تعلم، يا بني، إنه ذاك الشريان المتدفق في بلادنا يمثل عند الآباء الحياة وبداية الخلق، نعم، سأخبركَ مما علمتْنيه أمي، فعندما كان العالم عبارة عن محيط أزلي أو لجة مائية كبيرة، ليس له نهاية،برز الإله الخالق من المياه، وخلق العالم بإرادته، فأصدر كلمة نطق بها لسانه، فكان مَنْ أمر الخلق بأن يكون.. فكان الخلق. وما هذا النهر الخالد، يا بني، سوى فيض من ذلك المحيط الأزلي الذي بدأ منه الخلق.. لذلك في هذا اليوم المبارك، نذهب إلى شاطئ النهر، ونفترش الأرض، حيث يحملنا جب السخي[1] وتغطينا نوت الحنونة[2]. ونتناول أطعمة العيد الكثيرة، فقد حملتُ معي البيض رمز بداية الخلق، والبور[3] رمز الحياة، النماء، والخير، إلى جانب الخس المقدس عند الإله مين[4]، والذي يكتمل نضجه في هذا اليوم، ومعي كذلك الحر بيك المقدس، يا لروعة حباته التي تشبه رأس الصقر، فينضج ويمتلئ- كذلك- في مثل هذا اليوم من العام، ليكون بمثابة إعلان عن قدوم الربيع. وبالطبع، لم أنسَ البصل الأخضر الرائع، لطرد الأرواح الشريرة وقهر الموت، وللتغلب- أيضًا- على العديد من الأمراض**

(١) وهو إله الأرض عند المصريين القدماء.

(٢) إلهة السماء عند المصريين القدماء.

(٣) وتعني السمك المملح.

(٤) وهو إله التناسل والإخصاب عند المصريين القدماء.

والأسقام. ياه، يا ربيبي العزيز، كم منحنا الله من عطاء لا يعد ولا يحصى.

بدا على حابيس الامتعاض من مجرد ذكر البصل الأخضر. لاحظت السيدة نانيس ذلك عليه، فاستطردت قائلةً: **بني، أعلم كم تكره البصل. لكن هل سمعت بنبأ الملك والطفل الوحيد؟** أومأ حابيس مُنكرًا، فقال: **وما تكون تلك القصة، أيتها الأم الحنون؟!** فسردت له قائلةً: **يُحكى أنَّ، أحد الملوك كان له طفل وحيد محبوبٌ من جميع عامة الشعب، وأن ذاك الأمير الطفل علَّ بمرض عضال؛ أفقده القدرة على الحركة، وتعرض لشلل تام في أطرافه. وعجز الأطباء، والكهنة، والسحرة على علاجه، فلزم الأميرُ الفراشَ عدة سنوات؛ لم تقم خلالها أية احتفالات أو أفراح بالعيد، مشاطرةً من الشعب للملك في أحزانه.. وكان أطفال المدينة يقدمون القرابين للإله في المعابد في مختلف المناسبات، طالبين الشفاء. وذات يوم، استدعى الملك الكاهنَ الأكبر للإله أمون، فأخبره أن مرض الأمير الصغير يرجع إلى وجود أرواح شريرة تسيطر عليه، وتُقعِده عن الحركة بفعل السحر. فأمر الكاهن بوضع بصلة تحت وسادة الأمير لتكون تحت رأسه عند غروب الشمس بعد أن قرأ عليها بعض التعاويذ، وعند الصباح شقَّها ووضعها فوق أنفه ليستنشقها. ثم طلب تعليق حزم البصل فوق سرير الطفل وعلى أبواب الغرف وبوابات القصر وذلك لطرد الأرواح الشريرة. وقد تمت له بالفعل معجزة الشفاء التام، فنهض الأمير من فراشه، وخرج ليلهو ويلعب في الحديقة وعاد لسيرته الأولى. ففرح الملك وأقام الأفراح في القصر. وقد حضرها جميع أطفال المدينة، وشارك الشعب بكل طوائفه ابتهاج الملك بداخل قصره.**

كان حابيس يستمع إليها بشغف بالغ، فقد اعتاد منها سماع مثل تلك القصص الشائقة، عندما كان لا يزال صغيرًا. لكن تلك القصة الجديدة لم يسبق

للسيدة نانيس أن قصَّتها عليه من قبل، فعقب مشاغبًا: **سيدة نانيس، إنها أسطورة جميلة حقًّا. لكني مع ذلك لن آكل البصل.** ضحكت السيدة نانيس، في حين قالت: **ياني عليك يا حابيس، هكذا أنتَ.. لم تتغير منذ صباك؛ عنيد، ولا تبدِّل موقفكَ أبدًا، إلّا بصعوبة بالغة. لكنكَ، يا ربيبي، طيب القلب قوي الشكيمة لا تفت في عضدك أية صعاب؛ تقهرها ولا تغلبك. أدعو لكَ الإله أن يرزقكَ الزوجة الصالحة التي ترعى شؤونكَ وتجلب لكَ السعادة الأبدية. إنني أمكَ الفعلية، بحكم أنني من ربَّتْكَ، ولم أكن أنجب. لكنكَ كنتَ وستبقى وليدي الذي لم أنجبه، إنني إن كنتُ أنجبتُ طفلًا من رحمي ما كنت لأحبه كما أحببتُكَ، يا حابيس، باركَ الإله في عمركَ وشبابك، ونصركَ على كل عدو.**

ابتهج فؤاد حابيس كثيرًا لسماع هذه الدعوات، فسأل الله الإجابة، ثم طرأ في خاطره سؤالٌ عابرٌ، فقال لها: **أمّاه، أريد أن أسألكِ سؤالًا وددتُ لو أطرحه عليك منذ زمن. لكني أدرك مدى حساسية هذا الكلام. لذا لا أرغب أن يسمعنا أحد.** ثم مال إليها، فهمس في أذنها سائلًا: **هل حقًّا تؤمنين بالإله ست، المعبود الجديد الذي رفعه الملك على العرش، وعظم شأنه جاعلًا إياه إله أواريس الرسمي المستحق للعبادة؟!** توجست السيد نانيس خيفة من سؤاله، فاضطربت قائلةً: **أرجوكَ، يا بني، لا تتحدث في تلك الأمور الدينية، فأنت جندي، وأنا أخشى عليك من بطش سوسرن رع. إن جنوده وجواسيسه يتخفون في كل مكان، وهو قد رفع المعبود ست فوق كل الآلهة، وأمر بعبادته وتقديم القرابين له. لذا، يا بني، احذر جيدًا من التحدث في هذا الشأن مع أحدٍ من العوام.**

ثم استطردت قائلةً: **وعلى كل حال، فهو أقل مجونًا من إلههم السابق،**

بعل السامي، الذي كان يحب تقديم الخس قربانًا له، وست كذلك يحب الخس، لذا أحرص على وضع كمية وفيرة من حزم الخس في سلة لتقديمها لست- معبود أواريس-، وأمّا فيما يتعلق بذلك الأمر فأعدُكَ أن نتحدث عنه لاحقًا. أمّا الآن ونحن في الطريق العام لا أقدر سوى أن أسأل الإله الحق لكَ الحفظ والسلام. ثم تركها عند دار أقاربها، وانصرف- مسرعًا- للانضمام إلى الجند في تأمين موكب الملك.

مضى حابيس في طريقه نحو وسط المدينة، حتى وجد جمعًا حاشدًا من جنود الملك، وهم يأخذون التعليمات من كبير الجند، فانضم إليهم على الفور، مرتديًا لباسه العسكري المخصص لحراس الملك، ثم بدأت مراسم الاحتفال بقدوم الملك سوسرن رع. وعند دخوله إلى ساحة الاحتفال الكبرى، أمر كبير الجند بالدق على الدفوف والطبول ابتهاجًا بوصوله. بعدها تقدم رئيس البلاط الملكي- حامل أختام الملك ورئيس مقاطعة جوش- الموكب الملكي. كان يرتدي رداءً قماشيًّا طويلًا يلتحف أغلب جسده حتى الركبة، مع صِديري مزخرف، من التيل السميك، ذي فتحة مستديرة من العنق، فيما كان يلف خصره بحزام مضفر، ذي ثنيات، من نفس نوع القماش، يُعقد من الأمام بأنشوطة مطرزة، تتدلى إلى حد الركبة بقليل. وقد كان ذلك هو الزي الرسمي الذي يظهر به نبلاء القوم، وكبار المسؤولين في الدولة، فقد عمد حقا وخاسوت[1]على تقليد أهل كيميت[2]متبعين عاداتهم وإرث أزيائهم الرسمية في مثل تلك المناسبات؛ ليضفوا نوعًا من الشرعية على حكمهم، ولبسط نفوذهم على سكان البلاد الأصليين، من خلال الظهور أمامهم ملتزمين بالطقوس والأعراف المتبعة، كنوع من الإجلال والتقديس لحضارة بناة الأهرام العريقة.

(١) الملوك البدو الرعاة العبرانيون الآسيويون أوالهكسوس كما نطلق عليهم اليوم.

(٢) اسم مصر القديمة قبل الفتح الإسلامي.

صاح رئيس البلاط الملكي في الحشود الوافدة، من كل بقاع أرض جوش، مخاطبًا:

- أيها الشعب الرعية، عباد الملك الإله الطيب، ملك جوش العظيمة، رب أهل كيميت، وملك ملوك الأعراب، رحبوا بالإله المظفر بن الشمس حاكم الأراضين. رحبوا بقدوم الملك خيان سوسرن رع. فليعم الرخاء على رعايا مملكة جوش الذين أثبتوا ولاءهم للملك، وشيدوا الحصون حول المدينة كما أمرهم ملكهم، لتقيكم شرور الآشوريين. أيها الشعب الرعية، عبيد الإله الطيب، أبشروا بحلول فصل الحصاد والازدهار على مدينتكم. لقد جاء الملك ليشهد احتفاء أهل كيميت بعيدهم، عيد شمو المقدس. وتعظيمًا لهذا اليوم، يعلن افتتاح معبد الإله ست- الإله المعبود والمعظم على كل الآلهة. ليكون معبود جوش الأوحد، ومعبود أواريس، عاصمة الأمبراطورية المترامية الأطراف.. ولتبقى أواريس مركزًا تجاريًّا وثقافيًّا لسائر المملكة، أيها الشعب الرعيَّة، فلتخروا سُجدًا للملك العظيم.

خرَّ جميع العوام والوفود وجنود الملك سجدًا، ثم تقدَّم كبير الكهنة، المكلف بإدارة المعبد الجديد؛ ليلقي خطابه على عوام الرعية، مرتديًّا إزارًا طويلًا من الكتان، يحمل فوقه جلد نمر خالص، وقد التف حوله عدد كبير من كهنة المعبد، ثم بدأ كبيرهم بإلقاء خطبته العصماء:

"أيها الشعب، عبيد الإله، أهنئكم بعيدكم، في هذا اليوم المبارك، والآن سوف يتوجه الملك خيان لافتتاح المعبد الجديد، ليرفع الإله سوتخ على العرش، ليصبح إلهكم المعظم، وقد أعطى الملك أوامره لكم بتقديم القرابين للمعبود القبطي. كما أمر ابن الشمس الطيب بذبح العديد من رؤوس أصح المواشي من أجله، وسوف يوزع الجنود بتوزيع لحومها عليكم. لينعم عليكم

الرخاء، فلتأكلوا وتهنئوا وتبتهجوا بعيدكم. كما أمر الملك بصنع تماثيل جديدة على شكل أسد تحمل اسمه الخالد في الأراضين. ولقد أصدر جلالته مرسومًا ملكيًّا نافذًا للرعية باقتناء تلك التماثيل في بيوتهم، وسوف تخصص عطايا كبيرة للفنانين النحاتين القبطيين المهرة الذين شاركوا في صنع هذه التماثيل. أما شعب إسرائيل من العمال والخدم، فقد خصص لكم الملك مكافأة كريمة حيث أمر بصرف سلال من الغلال واللحوم لكل أسرة منكم، حتى تبقى بيوتكم توقد فيها النيران إلى نهاية الاحتفال.. تقديرًا من الملك الإله الطيب لمجهوداتكم الخالصة في ترميم المدينة ورفع كفاءتها وإعادة تشييد أسوارها الدفاعية. وأما جنود الملك العظام، فقد أمر فخامته لكم بصرف علاوات كبيرة على أجوركم هذا العام لدوركم العظيم في تأمين عاصمة البلاد. وعليه، يتوجب عليكم الآن أن تتوجهوا إلى الإله ست خاشعين سائلين إياه أن يحفظ لكم مَلِككم المفدى..

بعدما انتهى كبير الكهنة من خطابه، توجه بصحبة الملك وكبار الوزراء؛ لافتتاح المعبد أمام الشعب، الذين تجمعوا في الساحة الكبيرة أمام القصر الملكي، ثم دخل الملك إلى المعبد، وقام بتقديم القرابين للإله، ورفعه على العرش، ليعتلي عرش المُلك الإلهي، وبذلك يكون ست حاميًا مهيبًا لدولة الهكسوس. فيما قام وجهاء القوم بتقديم القرابين لمعبود جوش الجديد حاملين الأكاليل؛ احتفالًا بتلك المناسبة العظيمة.

انتهى الافتتاح المشهود، فتوجه الملك بعد ذلك لمتابعة أعمال البناء في تشييد الحصون الجديدة حول أواريس، حتى توقف موكبه أمام سور الحصن الكبير، ونزل عن عربته الحربية، التي يقودها جوادان أبيضان قويان، ومن حوله، اصطف كبير الكهنة، والطبيب بايوم، ورئيس مقاطعة جوش، الوزراء، وكبار المسؤولين، ومن خلفهم اصطف الجند مؤدين التحية العسكرية الخاصة

بالملك. سجد جميع العبيد الإسرائيليين الذين سخرهم الملك في أعمال التشييد والبناء، وشتى الأعمال الدنيا، كخدمة وجهاء القوم وكبار المسؤولين بالمدينة. وفي حين يلتفون جميعًا حول الملك، إذ نظر إليهم حابيس في تعجب ودهشة، ثم مال على أذن زميله الجندي، الذي كان يقف ثابتًا بجانبه، قائلًا له: **هل لكَ أن تخبرني من هؤلاء القوم الأزلاء، يا زميلي العزيز؟** تعجب الجندي من سؤاله، فأجابه بامتعاض: **يا رجل، عجبًا، ألا تعلم؟! إنهم عبيد المدينة؛ قوم همج من الإسرائيليين العبرانيين، كلفهم الملك بإعادة بناء المدينة وتشييد هذا الحصن المنيع. كما أوعز لعدد من المهندسين الأقباط الأكفاء بالإشراف عليهم، لأنهم لا يقومون بالواجب المكلفين به على أتم وجه. لذا يجب على الملك أن يشدد عليهم حتى ينتهوا من بناء هذا السور العظيم حول أواريس.**

وفجأة، عم الصمت المطبق، حينما دُقت الصنج، استعدادًا لخطاب الملك الحماسي إلى العمال الإسرائيليين، الذي كان أشبه بأسلوب العصا والجزرة، حيث وعدهم في أول الأمر بمنحهم العديد من المكافآت والعطايا في حال انتهائهم من بناء الحصن في وقت وجيز، ثم هددهم بالعقاب الأليم في حال تقاعصهم عن أداء الخدمة الألزامية، وفرض المزيد من الضرائب الباهظة عليهم؛ عقوبة لهم على عدم إخلاصهم له، وعدم امتثالهم لأوامره، حتى انتهى من خطابه المقتضب، الذي حمل- كذلك- نبرة ترهيب حادة للأقباط المشرفين على العمال الإسرائيليين.

وبينما كان الملك يلقي خطابه، إذ تذكر حابيس أمر تلك الفتاة الإسرائيلية التى أخبره الجنود أنهم وجدوها معه، في صحراء جوش، مغشيًّا عليها، وتذكر عندما أخبره أحد الجنود أنهم نقلوها إلى ديار قومها، فأخذ يفكر مليًّا في احتمالية أن تكون تلك الفتاة موجودة بالفعل ضمن أولئك العمال المتجمعين

حول الملك؛ لذلك راح حابيس يتلفت ببصره، مدققًا فيهم بشغف؛ عساه أن يجمعه القدر بها مجددًا؛ ليعرف منها سر ما حدث لهما في ذلك اليوم العجيب.

(3)

في اليوم التالي، صباحًا، خرج حابيس مع عدد من الجنود إلى الحد الشرقي للمدينة، عند مشارف صحراء جوش الشاسعة؛ لأداء التدريبات العسكرية الصباحية، في حين يتلقى الجند دروسًا في فنون الحرب والقتال، قبل الذهاب لمتابعة سير العمل في بناء حصن أواريس العظيم. هناك اجتمع بهم قائد الجيوش الجديد، والذي كان بدويًّا من أصل كنعاني، ينتمي لإحدى قبائل الهكسوس. عندما كان لا يزال مراهقًا، كان ولوعًا بأن يصبح في إحدى الأيام من محاربي العربات، الذين يقاتلون بعربات الحربية التي تجرها الجياد العتيدة، حيث يقف بها جنديان، أحدهما يقودها، والآخر يحارب. لقد كان وصوليًّا مداهنًا، يكرّس جل وقته للوصول إلى مآربه الشخصية، حتى أعطيت له الفرصة ليتلقى تدريباته العسكرية على يد أحد أمهر القادة العسكريين الأقباط من المحاربين القدامى في الدولة قبل سيطرة الملوك الرعاة على مفاصل البلاد، مستغلين ما كانت تعانيه كيميت من انقسامات حادة، وتصدعات مدمرة، وصراعات على الحكم، خلال عهد الأسرة الثالثة عشر. لقد نجح بدهائه إلى أن حصل على مباركة الملك، فرُقِّيَ إلى منصب قائد الجيوش العظيم.

استهل عظيم الجند خطبته العسكرية البليغة قائلًا:

"أيها الجنود البواسل، حماة جوش العظيمة، حراس الملك الإله، إن حياة الجندية صعبة وبائسة، لما فيها من التزام بالقوانين والتدريبات الشاقة، والتي لا يقوى عليها أي فرد عادي. وإني محذركم من الاستهانة بتلك المهنة المهمَّة. فلتكونوا على علم مسبق بأنكم معرضون دائمًا لأشد أنواع العقوبات وأقساها،

في حال ارتكب أحدكم أقل الأخطاء وأهونها. فإذا جاء يوم التفتيش ووجد أقل تقصير من أحدكم، أو وُجدت إحدى المعدات الخاصة بكم بها خلل، فإنه سوف يُطرح أرضًا ويُضرب بالعصا ضربًا قاسيًا لا شفقة فيه حتى الهلاك.. وإن ذلك العقاب لهو أهون بكثير من حالة الجنود الصغار والعبيد الذين يجلدون في ثكناتهم ويصلبون في جزوع النخل لأي هفوة تصدر منهم، وإنكم، أيها الجنود، لتتكبدون أشد المتاعب أثناء سيركم للحروب حاملين معداتكم ولوازمكم وآلات قتالكم.. وكثيرًا ما تضطرون لشرب المياه القذرة أثناء اجتيازكم الصحراء. أيها العساكر الأشداء، إن الجندية شرف عظيم، وإنكم بلا شك حماة البلاد القاهرين، الذين اختيروا- بعناية- للحفاظ على وحدة هذه المملكة، لقد أمر الملك بإنشاء قوات جديدة خاصة بحماية المعبد الجديد.. وسوف يتم اختيار الجنود الأكفاء منكم للعمل بتلك القوات.. بينما سيكون الاختيار بناء على مدى الإخلاص للدولة والامتثال للأوامر وطاعة الملك والإيمان بالمعبود الجديد، وعليه سيقع اختيار قائد محنك منكم. من يمتلك القوة والشجاعة الكافية لإدارة الأمور بحنكة وذكاء. وبعد وفاء ذاك القائد الجديد للملك الإله سيكون اختياره، وبقدر شخصيته القيادية كذلك التي تقذف الهيبة في قلب العدووالوقار في نفوس الحلفاء، أيها الجيش المهيب، ليكن ولاؤكم للملك أولًا وانتماؤكم لجوش ثانيًا وحبكم للإله ثالثًا هو شعاركم في الجيش. ولتكونوا دومًا على قلب رجل واحد تحت قيادتي وزعامتي. وأمّا من يرتد منكم عن تعليماتي، فلا يلومن إلّا نفسه، إن عذابي لشديد.

ظل حابيس واقفًا في ثبات، مصطفًا لجوار المئات من الجنود، يستمع لخطاب القائد الجديد بشغف. لكنه كان يكتم في نفسه بغضًا شديدًا لذلك القائد المستبد البربري الهمجي الغاصب، الذي لا ينتمي إلى قومه وبني جلدته. لقد لاحظ أن ذلك السخط كان أيضًا مستشريًا في نفوس العديد

من الجنود الأقباط، الذين سخروا للعمل بجيش الرعاة، تحت قيادة زعماء وشيوخ قبائل الهكسوس المتصارعة، وقد جرت العادة على تمييزهم عن بقية الجنود، ذوي الأصل الرعوي، فكلما كان الجندي ينتمي لعشيرة الملك أو إلى الصفوة من كبار المسؤولين المتملقين بالمدينة، كلما ازدادت فرصته للترقية السريعة، على حساب أقرانه من الكيميتيين الأكثر براعة وكفاءة ودراية بأمور القتال. الأمر برمته، وفي حقيقته، لم يكن يعتمد على الكفاءة العسكرية بقدر اعتماده على الولاء لفرعون جوش، الذي استطاع- بعد حروب دامية- توحيد المملكة تحت تاجه، وإخضاع بقية شيوخ الأقاليم والمقاطعات لسلطانه.

بعدما انتهى القائد الجديد من خطابه، تفرق الجنود كل إلى فرقته، فيما ذهبت الفرقة التي ينضهم إليها حابيس لمتابعة البناء بالسور الجديد. لكن حابيس ترك الجنود، واتجه منفردًا بجواده جنوبًا، حيث البادية على أطراف جوش، حيث القرية التي يسكنها الإسرائيليون، باحثًا عن تلك الفتاة التي معها سره.

وصل حابيس إلى قرية بدوية صغيرة في فضاء صحراوي شاسع من المرعى، كانت تلك القرية النائية لا يقطنها سوى الإسرائيليين، من ذرية أسباط يعقوب، أخوة يوسف. كانوا يعيشون في فقر مدقع في خيم بالية بائسة، في حين بات جلَّهم من العبيد الرعاع، وقد طردوا إلى أطراف المدينة، في حين سلبت مراعيهم ومواشيهم، فصاروا لا يملكون من أمرهم سوى فقط خدمة النبلاء، مقابل كسرات متواضعة من الخبز العفن لا تسد الرمق. كانوا مميزون بثيابهم الردئية من الأقمشة الرثة المهلهلة، التي تكشف أكثر مما تغطي، فيما كان يغلب على لباسهم اللون الأسود، في حين أنه كان يختلف كثيرًا عن لباس بقية المستوطنين الرعاة، من البدو الأعراب العبرانيين، وحتى سكان كيميت

الأصليين، كان رداؤهم أفضل حالًا منهم، حيث كان يُسمح لهم في الغالب ارتداء ثيابهم التقليدية المصنوعة من الكتان، والصوف، والحرير، ولا يمنع أن تحمل تطريزات مزركشة، مزينة بالخرز الملون، فكانت النساء ترتدين لباسًا قصيرًا يعلو الركبة بقليل، وصدارًا مزخرفًا، فوق صدورهن بلا أكمام، مع بطون عارية إلى حد ما، فيما كانت المستوطنات تتشبه بهن، حتى لا يصرن أقل تحضرًا عن نساء كيميت الأصليات.

على مرمى البصر، لاحظ أحد الفتيان الإسرائيليين يحيى بزيه العسكري الواضح، فهرع إلى قومه هَلِعًا، محذرًا إياهم من قدوم أحد الجنود ليبطش بهم. تغلغل الفتى الصغير مسرعًا بين الخيم، صائحًا في قومه بلغة خاصة مميزة، قائلًا: **أيها القوم، أسرعوا إلى خيامكم فورًا.. لقد حضر أحد الجنود من حرس الملك، وسوف يبطش بكم. هلمّوا حتى لا يمسنكم منه عذاب أليم.**

استنبط حابيس تفسير لغة الفتى، فهو لم يكن يفهمها جيدًا، رغم أنها كانت شبيهة إلى حد كبير بلغة معظم قبائل الهكسوس الآرامية، التي اعتاد على فهمها. في لحظات قصيرة، صارت القرية كمدينة أشباح، لا أثر لأحد خارج الخيام. اقترب حابيس أكثر من إحدى الخيام، فاقتحمها متفقدًا أثر ذلك الفتى، فأخبره أهلها فزعين أنه لم يأتِ عندهم، فخرج منها، وجعل يبحث عنه، حتى لمحه يتسلل إلى داخل إحدى الخيام، فنادى عليه، مسرعًا خلفه، صائحًا "**ها، أنت، تعال هنا**. لكن الفتى ذاب بين الخيام، فأسرع حابيس نحو الخيمة التي يظنه دخلها، ولمّا ولجها، صرخت أم الفتى بوجهه، وقد أجهشت بالبكاء، متوسلة لحابيس حتى يتركه وشأنه. أخبرها حابيس أنه لا ينوي أذيته، في حين أن سبب وجوده في تلك القرية أنه يبحث عن فتاة وجدها الجنود مغشيًّا عليها بالصحراء. ما أن سمعت المرأة منه ذلك، حتى صرخت بملأ جوفها،

فخرت راكعة أمامه، ممسكة بتلابيب ثوبه، راجية إياه أن يدع أسرتها البائسة وشأنها. فصاح بها حابيس قائلًا: **انهضي ،يا امرأة، تالله ما جئت إلى هنا لأتعرض لأحد من عائلتك بسوء. فقط، أخبريني أين يمكنني أن أجد تلك الفتا؟** تلعثمت المرأة، في حين تقول في خوف: **"إنها ابنتي، يا سيدي، أتوسل إليك ألّا تمسها بسوء، وإن كنتَ ترغب بها، فها أنا أمامك لتأخذ مني ما تشاء، ولتصرف نظركَ عنها، أرجوكَ، يا سيدي.** وأخذت تنتحب بحرقة. فهدّأ حابيس من روعها قائلًا: **تبًا لكِ، أيتها الشمطاء، ماذا تظنين بربكِ أني فاعل بها؟** نهضت المرأة، في حين تصك وجهها قائلةً: **كما يفعل بنا جنود الملك، يا سيدي. إننا ندفع الضرائب ونؤدي الجبايات، ونطيع الملك ولا نعصي له أمرًا. إننا قوم مسالمون، يا سيدي. لا نملك سلاحًا ندافع به عن أنفسنا. إنهم حينما يأتون إلينا يعيثون بقريتنا فسادًا، فيأسرون ما شاؤوا من رجالنا ويذبحون إن شاؤوا أطفالنا، ويستحلون بناتنا لأنفسهم، وفي ذلك بلاء من الرب عظيم. لكننا صابرون ومحتسبون الأجر من الرب القادر؛ هو يرانا من حيث لا نراه، ويسمع صرخاتنا ويعلم بحالنا. إننا مستضعفون في الأرض. لذا، أتوسل إليك، يا سيدي، أن تدع ابنتي البكر العذراء، ولا تصيبها بسوء.**

همعت عيني حابيس بالدمع، فصمت لبرهة، مشفقًا على بؤس حالها، ثم عاد ليقول لها: **وماذا تريدنني أن أفعل حتى تصدقي أنني ما جئت هنا لشر أو أذى؟** فأجابته المرأة: **عجبًا، فوالله إنني لأتوسم فيكَ التقوى والصلاح، يا بني.. أخبرني، إن أذنتَ لي أن أسألك، هل أنت رجل قبطي؟** أجاب حابيس في فخر قائلًا: **نعم إنني كذلك، من أهل تلك البلاد الأصليين. ألا يبدو عليّ أنني لستُ براعٍ بربريٍّ؟ إننا أحفاد تلك الديار لا نذبح الأطفال، ولا نستحي نساء لا تحل لنا، ولا نستعبد الرجال. نحن الشعب المتحضر فلاحي هذا الوادي الخصيب المبارك.** أومأت المرأة برأسها، وقد بدا عليها أنها

تعطيه الأمان، فعلّقت قائلة: **يا يهوه، كم أنت رحيم، أعلم ذلك، يا بني. لقد عشنا بين أهل القبط سنينًا، وتالله ما وجدنا منكم غير كرم الضيافة وحسن الاستقبال. هل لي أن أعرف فيما تريد ابنتي؟** أسرع حابيس يجيب: **إنني أردت فقط أن أطمئن عليها. لقد أخبرني الجنود بأنهم وجدوها إلى جانبي في الصحراء، لكنني لا أتذكر تفاصيل ذلك اليوم المريب، وأرغب أن أستعلم منها عما حدث لنا في الصحراء.. وقد علمتُ أنهم قد حملوها وجلبوها إلى هنا. هذا كل ما هنالك، لذا فإنني آمركِ أن تخبريني بمكانها فورًا، ومن دون تفكير.** فأشارت إليه على غرفتها، أزاح حابيس الستار، فوجد فتاة حسناء، فاتنة الجمال، تجلس القرفصاء، وقد جعلت ترفع يدها إلى السماء في خشوع، فسمعها تتمتم بصلوات. ظل حابيس واقفًا يستمع لما تقول:

"إلهنا.. يَهوه العظيم الخالق.. ربنا ورب آل إسرائيل.. رب موسى وهارون.. رب الخلاص الأعظم.. خلصنا من العذاب كما وعدتنا.. إلهي يهوه، بك أحتمي.. يا ملجأي ومناصي، لكَ ألجأ وأتضرع. خلصنا من الضيْم، ونجني وقومي من البلاء العظيم، اقض لي، يا الله، وخاصم أمة غير راحمة.. ومن الظلم انتشلني، كن ضامن عبدِك للخير.. لكيلا يظلمني المستكبرون.. أنقذني، يا رب من أهل الشر.. ومن رجال الظلم احفظني.. اللهم، انتقم من القوم الظالمين.. وَأرِهم مقتك وغضبك حتى يرفعوا عنا الظلم والقهر.. اللهم، رد إلينا موشيه سالمًا غانمًا.. وانصره على القوم الكافرين.. اللهم انتقم منهم وأنزل عليهم البلاء والوباء، وجميع سخطك.. اللهم عاقبهم بتحول مياههم إلى دماء.. وموت الأسماك في الأنهار.. وعاقبهم، يا رب، بالضفادع والبعوض والذباب والبرد والجراد والظلام.. وجميع سخطك، حتى يعلموا أنك قاهر فوق عبادك.. إن هؤلاء هم جنودك المخفيون.. تسلطهم على من تشاء من عبادك.. اللهم إنك تنتقم للأبرار.. ليس من منطلق الثأر الخارج عن

السيطرة.. ولكن من منطلق القصاص العادل من قبل الديّان الأبدي الذي أحكامه كلها عدل.. وحتى عندما يتألم الأبرياء ويبدو الأشرار ناجحين.. فإن العقاب من حقك أنت وحدك.. اللهم، إنك إله غيور ومنتقم وذو سخط.. اللهم إنك منتقم من مبغضيك وحافظ غضبك عن تابعيك وأحبائك.. اللهم، إننا شعبك المختار الذي اصطفيتنا بالرسل والأنبياء وبوصايا عبدك- إسرائيل، ونحن على وصاياه ماضون.. اللهم، انتقم لنا.. اللهم آمين".

ظل حابيس- هكذا- واقفًا خلف الستار، يستمع إلى تبتلات تلك الفتاه الخاشعة، التي يعتصر فؤادها الهم والحزن. لم يتمالك نفسه، فشاطرها الدموع، التي راحت تتقطر على خدَّيه منسابةً دون أن يشعر بها. حتى انتهت من صلاتها، فأزاح الستار، وألقى عليها السلام. فزعت الفتاة فزعًا شديدًا، فرفعت وشاحًا حريريًّا على وجهها. ثم التفتت إليه، وقد أخفضت رأسها في الأرض قائلةً: **من أنت بحق الإله؟! ولماذا جئتَ إلى هنا؟!**

اقترب منها حابيس، محاولًا طمأنتها، في حين قال: **لا داعي للفزع، عليك من الإله السلام. أنا أدعى حابيس؛ من حرس الملك، جئتُ إليك في أمر مهام. فلقد سمعتُ بأن الجنود قد عثروا عليك في الصحراء، فهل تتذكرين ذلك؟** ثم توقف حابيس عن الكلام، منتظرًا ردها، لكنها ظلت صامتة، حتى رفعت رأسها أخيرًا، فنظرت إليه قائلة: **إنني لا أتذكر شيئًا. من فضلكَ اذهب عني الآن.**

كان الخوف جليًّا عليها؛ لذلك حاول حابيس- مجددًا- التقليل من حدة قلقها، فقال: **وكأنك لا ترغبين في التحدث معي، أقسمتُ لكِ ما جئتُ إلى هنا لأذيتكِ، وإنما جئتُكِ بالسلام. ولو أن بنيتي سوءًا، فليهلكني الإله، كوني متعاونة من فضلكِ، فأنا ذاك الرجل الذي وجدوه لجانبكِ، في حين كنا على**

وشك الموت. لم تعره الفتاة الإسرائيلية أي انتباه، فاستطرد قائلًا: **أولستِ أنتِ تلك الفتاة المذكورة على لسان الجند؟! هكذا أكدت لي أمكِ كذلك.** استدارت الفتاة، ثم أجابت على استحياء: **بلى، هي أنا.** ثم استرسلت: **وإني لا أعرف المزيد عن ذلك اليوم سوى أن أمي أخبرتني كما أخبروكَ، حتى أني لم أتذكر اسمي إلّا عندما أخبرتني به والدتي. كنتُ فاقدة لذاكرتي تمامًا، وكأنني جئتُ من عالم بعيد أو من زمن آخر . ولا علم لدي أزيدكَ به سوى أنني سمعتهم ينادونني بسارة. هذا كل ما أتذكره.**

تعاظمت حيرة حابيس، فذلك هو ذات الشعور الذي انتابه لمّا رأى الجنود لأول مرة. أراد حابيس تلطيف الأجواء، فقال: **سارة، يا له من اسم جميل، إنني مثلكِ تمامًا، لا أتذكر المزيد عن ذلك اليوم، ولا أذكر شيئًا سوى أنني سمعتهم ينادونني بحابيس. يبدو علينا أننا نتشارك غموض ذاك اليوم المريب.**

اقترب منها حابيس أكثر، ثم وضع يده على كتفها برفق، في حين قال: **تأملي بوجهي، فإنني أشعر أن لنا زمنًا طويلًا نعرف بعضنا البعض. إن وجهكِ المشرق هذا يبدو مألوفًا كثيرًا بالنسبة إليّ، فهل يبدو لكِ وجهي كذلك؟! فلربما أننا على قدر عال من الاتصال الروحي، فماذا أنتِ تظنين؟!** اضطربت سارة كثيرًا، فألقت يده أرضًا بلطف، في حين قالت في حدة: **إنك إذن تحاول بتلك الكلمات الرائقة أن تدغدغ مشاعري، لكنني لستُ كذلك. ولن يمكنكَ النيل مني مهما تفعل، ومهما تجئَ بحواديت خرافية من رأسك.** انفعل حابيس بشدة، فقال غاضبًا: **ولكنكِ توقنين أنني ما جئت لسوء، غير أنني رغبت في لقياكِ والتحدث إليك.**

عم السكوت للحظات، بينما أدار حابيس وجهه مغادرًا، ثم تردد، فعاد

مستطردًا: **سارة، أرجوكِ أن تثقي فيّ، فأنا لستُ من عينة أولئك الأوغاد الهمج الذين لا يعرفون خلقًا. إنني قبطي من أصل رفيع. وقد سبق أن منحناكم أرض جوش، واستقبلناكم بها في زمن القحط الذي أصاب كنعان، فكنتم لدينا من الأعزاء. ورفعنا قدركم بين شعبنا، فحكم منكم رجل صالح أمين بلدنا. فكان أمين خزائن كيميت، وأنقذنا الله به من الجفاف المهلك، فأحبه شعبنا وأحببناكم به.** أجابته سارة، والدمع يقطر من عينيها قائلةً: **لكننا بعد ذلك صرنا في بلادكم مقهورين مستضعفين، وصرتم أنتم- يا أهل القبط- تعينون الظلمة علينا ولا تناصرون ضعيفًا.** غضب حابيس من قولها، فقال صائحًا: **خطأ.. ما تقولينه ليس صحيحًا. وما هؤلاء الأعراب البربر غلاظ القلوب إلّا عبرانيين مثلكم، وبينكم ذمة ورحمًا.. تتشاركون معهم العادات والتقاليد وتمتهنون الرعي كما يمتهنون، وتفهمون لسانهم أكثر مما نفهم. إن هؤلاء القوم جاؤوا إلى بلادنا محتلين لها في غفلة من أمرنا بوقت ضعف واضمحلال، وصاروا ينصبون أنفسهم ملوكًا على شعبنا، وفعلوا بنا الأفاعيل، بعد أن رفعوا أبناء شتى قبائلهم علينا، فصاروا يتحكمون في كل شيء، في أرضنا وسمائنا وحصادنا وسقيانا، وكيف صرنا نحن؟! صرنا لديهم عبيدًا صاغرين لحكمهم الجائر المغتصب لخيراتنا.** أومأت سارة قائلة: **صدقت، لكن هؤلاء الوثنيون الأقذار يحملون في صدورهم الضغائن والأحقاد على شعبنا ودين آبائنا، وقد باتوا يمكرون لنا لما علموه من نبوءات أنبيائنا ووعد الرب لإبرام بأن الأرض يرثها عباده الصالحون، لقد كفروا برسالات آبائنا الصالحين، فكانوا هم الغالبون. وإننا اليوم في أرضكم نرجو الخلاص من رب العالمين.**

عقَّب حابيس قائلًا **"لقد علمت أن رجلًا من شعبكم قد قتل آخر من جنود الملك ينتسب إلى عشيرته، وقد أعطى الملك أوامره بقتله، فهرب جزعًا إلى الصحراء ولم يعد منذ ذلك الحين.**

ارتمت سارة على الأرض، جالسةً في حزن، بينما تقول تأكيدًا على كلامه: **حقًّا؟ إنه موشيه، عبد الله المخلص، لقد أكرمه الرب بأن أحسن مقامه في قصر الملك.. لكن الملك سخط عليه لفعلته تلك، عندما أخذته العزة دفاعًا عن رجلٍ ضعيفٍ. رغم أنه ما قصد القتل أبدًا، لكن ذاك الجندي شاء قتل المستضعف، فشاء الله أن يخزيه، فوكزه موسى فسقط صريعًا، غفر الله له.**

لم يستنكر حابيس كلام سارة، وشعر بصلاح قلبها، فأراد أن يعلى من قدرها، قائلًا: **أيتها الفتاة الرقيقة المهذبة، إنكِ ابنة رجال صالحين. لم نرَ منهم غير التقوى والهدى، وإنني لأرغب في لقائكِ مجددًا بعيدًا عن أعين العوام وجنود الملك.. فهل تعرفين تلك الشجرة العظيمة ذات الثلاثة أفرع التي تنمو في الصحراء جنوب المدينة؟** أجابته سارة قائلةً: **نعم. إنها قريبة من هنا.** فأسرع حابيس قائلًا: **حسنًا، إذن ليكن غدًا موعدنا عند تلك الشجرة وقت القيلولة حيث يكون الجنود في غفلة عنا، وما الغد ببعيد.**

أومأت سارة صامتة في قبول، ولم تعقب، فاستأذن حابيس بالانصراف، عائدًا إلى المدينة.

(4)

جلس حابيس على مائدة الفطور متحمسًا، في حين يقول:

- **سيدة نانيس، صباح الخير.**

قالت السيدة نانيس: **صباح الخير، يا بني. كيف هو حالك اليوم؟!**

قال حابيس مبتسمًا: إنني أفضل حالًا. أود التحدث معكِ في أمر الإله ست الذي رفضتِ التحدث عنه في قارعة الطريق.

قالت السيدة نانيس: يا بني، لما تشغل بالك بمثل تلك الأمور الدينية الشائكة، إنني أعلم يقينًا درجة إيمانك. لكنكَ تعمل الآن ضمن جنود الملك الخواص. ومثل تلك الأحاديث قد تسبب لكَ المتاعب التي أنت في غنى عنها. إن ذلك الملك باطش ولا يعرف الرحمة.

حابيس منفعلًا: ولماذا كلما ذكرت لكِ هذا الموضوع، يسيطر عليك هذا الخوف اللعين اللاإرادي؟ إننا نتناقش فيما بيننا، وليس هنالك من أحد سوانا. إنكِ أكبر مني عمرًا وقد عشتِ في تلك الأرض من قبلي، ومن قبل هؤلاء الحكام الظالمين، وإنكِ لأكثر مني دراية بحال هذه البلاد قبل تلك الفترة المشؤومة من تاريخ بلادنا.

أطبقت السيدة نانيس وجهها في صحن الطعام صامتةً في حزن، وكأنها تخفي أمرًا لا ترغب في الإفصاح عنه، ثم قالت بصوتٍ متقطع:

- ماذا تود أن تعرف؟! وماذا يجديكَ أن تعرف؟! إنني أخشى عليك أكثر من أي وقتٍ مضى، لكن لم يبقَ في عمري الكثير، يا بني. ولتعلم أنني ما أخفيتُ عنكَ شيئًا، عندما كنتَ لا تزال صغيرًا، كنت

لا أنفـك أقـص عليـك تلـك الحكايـة المريـرة،

منذ زمنٍ بائد، قدمتُ مهاجرة من مدينة منف الرائعة، والتي كانت عاصمة البلاد الموحدة آنذاك. لقد كنتُ أعمل خادمة في بيت والديك، وما وجدتُ منهما غير حسن المعاملة والإحسان لي ولزوجي. وكنت لا أنجب، وعندما توفي زوجي قطعت عهدًا ألا أتزوج برجل آخر بعده، رغم أنني كنتُ لا أزال شابة يافعة في مقتبل العمر. لكننا كنا زوجين رائعين. لقد كان رجلًا طيبًا وحنونًا. ورغم أنني لم أكن أنجب إلا أنه ما تركني وما فكر في الزواج بامرأة أخرى تهب له الذرية التي كان يحلم بها. آه، يا بني، لقد مضى عهد طويل على تلك الأحداث، وقد صرتُ الآن عجوزًا، ولم يتبق في العمر الكثير، فلا ترهقني بالقلق عليك.

عقَّب حابيس، في حين كان يستمع إلى السيدة العجوز بإنصات، قائلًا: **يا لكِ من امرأة عظيمة حقًّا، لكنني أذكر كل هذا، وأذكر ذلك الكلام الطيب عن أبي وأمي، اللذيْن لم تنقطعي عن ذكرهما يومًا. لكنني لا أعرف لماذا قررا أن يتركونني معي ويتخليا عن تربيتي؟ ألم يكونا يحبانني؟ أم أنهما كانا لا يهتمان بتربية الصغار؟**

فأجابته السيدة نانيس مستنكرةً:

- لا، يا حابيس. لا تقل ذلك، إن والديْك كانا عظيميْن. نعم، ولم أعرف أحدًا في نبلهما. كان والدك يعمل كاتبًا في قصر الملك، وقد ورث هذه الحرفة العظيمة عن آبائه وأجداده. كان جدكَ الأكبر **سنوحي** ذا شأن عظيم في عهد الملك أمنمحات الأول[1]، وكان رجلاً مرموقًا من خاصة بلاط الملك.. كان ماهرًا يصنع القلم من غاب[2] النيل. وصنع الورق من عيدان البردي الذي ينمو على

(١) مؤسس الأسرة الثانية عشر ة المصرية القديمة.

(٢) أو القصب أو البوص، وهو جنس نبات عشبي معمر ينتمي إلى الفصيلة النجيلية.

شاطئ النهر. وقدم له النيل المقدس- كذلك- زهرة النيلة[1] السحرية ليصنع منها صبغة حبر الكتابة الأزرق المميز، كما صنع الفرشاة من ريش الأوز الذي يسبح فوق النهر، كما صنع الألوان من أكاسيد المعادن. وبتلك الأدوات التي ابتكرها- بنفسه- وتوارثها والدكَ من بعده، لقد قدَّم لبلاد القبط أعظم الفنون والعلوم. لكَ أن تعلم بأن هذه الأرض لم تنجب مثله أبدًا، لكن ذلك لم يدم طويلًا، كما هي حال الدنيا.

دَهِش حابيس، فأسرع يقول: **لِمَ؟! ماذا حدث؟!**

أجابت السيدة نانيس: حدث أن كان **سنوهي** برفقة الأمير- ولي العهد- سنوسرت الأول مع عدد من إخوته الأمراء في حملة عسكرية أرسلها الملك أمنمحات الأول إلى الصحراء الشمالية الغربية للحرب ضد قبائل التحنو[2]، حيث فوجئ الجميع- أثناء عودتهم منتصرين ومعهم الغنائم- بمجيء رسل من القصر الملكي تخبرهم بموت الملك أمنمحات الأول. فأخفي الأمير سنوسرت عن جيشه هذا النبأ، لكن رسولًا خاصًّا جاء لأحد أبناء الملك الآخرين من الذين كانوا في الحملة العسكرية. ويبدو أن هذا الأمير كان طامعًا في العرش دون أخيه سنوسرت- ولي العهد. وقد سمع جدكَ الأكبر - سنوهي- لغطًا كثيرًا، وفهم منه أن ذلك الأمير يدبر لقتل أخيه الأكبر- سنوسرت- ليسيطر على العرش. فأسرع ليخبر سنوسرت بما سمع، لكن أحد أتباع الأمير الصغير قد لاحظه، فهرع وراءه ليقتله، فاضطر سنوهي الأمين للهرب خوفًا على حياته، حتى وصل إلى حدود البلاد الشرقية.. ووقع فريسة العطش وجف حلقه، وظن أنه الموت يطل برأسه عليه. هنا تدخلت العناية الإلهية لتنقذه من

(١) النيلة الزرقاء، هي النبتة التي يستخلص منها مادة الزهرة المستخدمة في تنظيف الملابس.

(٢) قبائل ليبية قديمة، ويرى العالم الألماني هولشر أن التحنو كانوا يعيشون في دلتا النيل، ثم طردهم من هذا الإقليم ملوك منطقة الوجه البحري. وقد كان التّحنو ذوي بشرة سمراء اللون مثل المصريين، كما كانوا يختتنون مثلهم.

الهلاك المحتوم.. عنما رأى بعض البدو يأتون نحوه. وقد عرفه شيخهم الذي زار البلاد من قبل، فأمده بماء وطعام، واصطحبه معه إلى قبيلته حيث أحسنوا معاملته. وقد لاقى جدكَ معاناة كبيرة محفوفة بالمخاطر خلال رحلته تلك. كانت البلدان تسلمه إلى بلدان أخرى، حتى وصل إلى بلدة تدعى جبيل[1]، وهناك تعرف على الأمير عاموناشي- أمير رتنو العليا[2]، حيث اتخذه الأمير طبيبًا خاصًّا له، بعد أن ساهم في علاجه من مرض عضال. وقد أكرمه الأمير وأنزله منزلًا حسنًا. ثم حدثت بعد ذلك اضطرابات في تلك البلاد من بعض قبائل الرعاة الكنعانيين هددت عرش الأمير. فعينه عاموناشي قائدًا لجنوده، وقد استطاع سنوهي بما له من خبرات في هذا المجال أن يحقق النصر في كل حملاته التي كان يقودها ضد زعماء القبائل الكنعانيين. وقد كتب جدك الأكبر قصة جميلة ومشوقة عن تلك الأحداث. فيما تركت قصته- هذه- التي كتبها بنفسه عن الملاحم الشعبية التى قام بها في تلك البلاد أثرًا بليغًا في نفوس العائلة الملكية في بلاد القبط وبين العوام فيما بعد، حتى صارت يرددها المنشدون والمداحون في البلاد ليل نهار، بعد عودته بسلام إلى أرض الوطن.

شبّك حابيس ذراعيه باهتمام فائق، ثم قال شغفًا: **واصلي حديثكَ، أما عدتِ تذكرينها؟**

السيدة نانيس: بلى، أتذكرها جيدًا بالنص، كما لا يزال سكان جوش الأصليون يتذكرونها. فقد كتبت على جدران المعابد وعلى البرديات كما نقشت على قبره. فكان لها بالغ الأثر في عودته إلى أحضان الوطن. تقول القصة التي سمعتها مباشرة عن والدكَ:

(١) بلدة تقع شمال بيروت حاليًا.

(٢) ظهر اسم رتنو العليا ورتنو السفلى للإشارة إلى بلاد الشام في زمن المملكة المصرية الوسطى (٢١٣٣- ١٧٨٦ ق.م) واستمر استعماله حتى نهاية زمن المملكة المصرية الحديثة الذي يعرف أيضًا بعهد الإمبراطورية.

" وكان هناك بطل منقطع النظير.. خضعت له جميع قبائل أرض كنعان.. وجاءه بطل قوي من كنعان ليبارزه متحديًا قوته، وليحطم سطوته.. وتآمر مع رجال قبيلته ليأخذوا ماشية ذلك البطل وأملاكه غنيمة سهلة في أيديهم.. وادعى البطل الكنعاني أن رجاله فتحوا له الأبواب ليخترقوا السياج ويسرقوا الدواب.. وذلك حقدًا من أنفسهم عليه، لأنه كان يمتلك قطعان مواشٍ كثيرة. إن الثور العظيم يحب النزال ولن يعلن تقهقره خوفًا من ثور ربما كان أقوى منه أو يضاهيه في القوة. فإذا كان قلبه مصممًا فدِعه ينطق بإرادته. وهل الإله يعلم بما قدر له؟ أو هل يعلم هو كيف يكون المصير؟ وفي الليل شد البطل قوسه وحمل سهامه وخنجره.. وعند الفجر كانت كنعان بأكملها قد ثارت قبائلها وجاءت إليه لتقاتله. فتهيأ للنزال، وهنا برز لهم كالثور الهائج، ثم هجم ذلك الرجل عليه قبل إشارة المبارزة فتفادى البطل سلاحه بحركة خاطفة، فسقط درع الرجل وفأسه، وتركه البطل ولم يقض عليه بضربة قاصمة، وهو تحت رحمة سلاحه وقبضته الحديدية، وأعطاه الفرصة ليقترب منه ويهاجمه مرة ثانية، فدفع بسهمه إليه فلصق بعنقه. فصاح وهو يخور كالثور القتيل، وقد انبطح على أنفه فسحب البطل منه سيفه، وأجهز عليه به. ثم صاح صيحة النصر، وهويضع قدمه على رقبته، فكان قربانًا للإله العادل. إن ما دبره نكاية به جعله يرتد عليه. ولقد كان الإله رحيمًا بهذا البطل، بعد أن غضب عليه وجعله يفر الى أرض أخرى، ويحرم من وطنه. فعفا الإله عنه وأعاد الفرحة إلى قلبه ونصره على من عاداه".

لقد ابتهج الناس لانتصار سنوهي على القبائل الكنعانية، فأكرمه الأمير، وقربه إليه، وتبدل حاله إلى الرخاء ورغد العيش. ولكن في عز هذا النعيم، فإن سنوهي المخلص لم ينس وطنه الحبيب كيميت، فأخذه الحنين إليه، وتمنى أن يعود إلى موطنه.. فأرسل خطابًا الى الملك سنوسرت وزوجته يقول فيه:

"أيها الإله العظيم، يا من أمرتني بالهروب، وحميتني بالغربة، كن رحيمًا بي، وأعدني ثانية إلى مقر المُلك لأرى المكان الذي يسكن فيه قلبي، وحتى تدفن جثتي في الأرض التي ولدت فيها وخرجت منها، وبالقرب من ممن أحببت".

كما قال جدكَ- في ذلك الخطاب- بأنه يحفظ للملك وللعائلة كل ولاء، وأنه هرب خوفًا على حياته ممن تآمروا على قتله، حتى تلقى مرسومًا ملكيًّا بالعفو عنه، فعاد البطل فورًا إلى أرض كيميت، وعندما صار عند الحدود، صحبه رجال القصر إلى العاصمة، وجاءوا في الصباح الباكر لدعوته إلى زيارة الملك، فكان أبناء الملك في استقباله جميعًا عند بوابة القصر.. وكان اللقاء بين جدكَ والملك وديًّا لأبعد وصف. ولقد وصف جدكَ بنفسه ذلك اللقاء، بأن قال:

"**كان احتفالا لن أنساه، ولن تستطيع السنون سرقته من عمري**".

ثم عينه الملك أمينًا على القصر، وقد أمر سنوسرت بإقامه قبر له من الحجر وسط المقابر الملكية وبجوار قبر الأميرة. وقد أشرف عليه كبير مهندسي العمارة بأمر من الملك سنوسرت العادل.

خطفت تلك القصة العظيمة لب حابيس، فامتلأ فخرًا وزهوا بتاريخ آبائه وأجداده. كان يشعر بالحماس لسرد المزيد عن تاريخ والده، فراح يسأل السيدة نانيس قائلًا: **وماذا عن أبي، أيتها السيدة الوقور؟ أرجوكِ حدثيني أكثر عنه وعن والدتي؟!**

تنهدت السيدة نانيس تنهيدة عميقة، وكأنها تستجمع أمامها كل تلك الذكريات المنقضية منذ زمن طويل، فجعلت تسرد قائلة:

- لقد كانت والدتكَ سليلة الملوك وحفيدة الأمراء،فحظيت بتربية

مرموقة في كنف العائلة الملكية وسط النبلاء وعظماء القوم. وقد أهداها الملك توتيمايوس لأبيكَ لتكون زوجة له، قبيل سقوط منف، تقديرًا لمكانة أجدادك في المجتمع. ولقد امتهن والدكَ-كذلك- الكتابة في قصر الملك.. كما توراث عن آبائه علوم الطب، والكيمياء، والهندسة، فيما ألَّف كتبًا كثيرة في هذه المجالات. ولكَ أن تفخر، يا بني، بأن جدَ أبيك قد كلفه الملك سنوسرت الثالث بالإشراف على حفر قناة سيزوستوريس العظيمة لربط الدلتا ببحر أروتاري[1]. كان جدكَ الأكبر- سنوحي- مهندسًا بارعًا وذكيًّا للغاية؛ منحه الملك عطايا ومكافآت قديرة، وأمر بترقيته ليصبح من كبار المهندسين في البلاد آنذاك. فكان من خواص الملك المقربين، وبعد وفاة الملك العادل سنوسرت الأول، الذي أحبه شعبه، كتب الشعراء قصائد مدح تخليدًا لذكراه، فقال أحدهم:

(والرعب منه قد ذبح قبائل البدو التسعة.. فهو الذي يفوق سرعة السهم كالإلهة سخمت، وما أعظم اغتباط مصر بقوتك فقد حميت النظام القديم).

لكن خلال حكم الأسرة الثالثة عشر، عادت الصراعات من جديد إلى الواجهة، حيث استغل أمراء إقليم الدلتا الغربي فرصة ضعف الدولة، واستقلوا بإقليمهم، مؤسسين بذلك الأسرة الرابعة عشرة، لكن هذه الأسرة الوليدة بدورها لم تستمر طويلًا، بعد سقوط الأسرة الثالثة عشرة، على يد الملوك الرعاة، الذين كانوا يسيطرون على شرق الدلتا، حتى ازدادت شوكتهم، فجعلوا يتمددون، ويتوسعون في البلاد، حتى سقطت منف في أيديهم، وهرب والداك مع من تبقى من أمرائها إلى صعيد البلاد، إلى أرض طيبة.. وهناك استقر بهم المطاف، فلمّا وجد والدكَ خطرًا محدقًا على بقائكَ معه قرر أن يبقيكِ معي، فطلب مني بأن أخبر العسكر الغزاة الأعراب أنكَ طفلي حتى تنجو من بطشهم.. وبعدئذ أُسِرْتُ بصحبتكَ من منف إلى هنا مع الكثير من نساء منف

(١) البحر الأحمر قديمًا.

ورجالها للعمل في إعادة بناء أواريس؛ لجعلها عاصمة جديدة لهم. ولما اشتد عودكَ، جنِّدتَ في الجيش إلزاميًّا ومعكَ الكثير من الأطفال والرجال الأشداء.

انطلقت دمعة آسرة من عين حابيس، واقشعر بدنه شوقًا إلى أمه وأبيه، بعد ما سمعه من عظمة سيرتهما الأولى، فجعل يتساءل:

- لكن، أما كانت من وسيلة حتى أبقى معهما، وأحظى بحبهما؟!

قالت السيدة نانيس: يا بني، افهمني جيدًا، كان والدك يهدف بذلك أن يبقيكَ في شمال البلاد، كان لديه أمل بأن تصبح يومًا قائدًا عسكريًّا عظيمًا وشوكة في حلق الأعداء. ظن أنه بإمكانكِ أن تستعيد البلاد من مغتصبيها. إن الهكسوس راحوا يذبحون أطفال نبلاء القوم بمنف، في حين يأخذون أبناء العوام أسرى لديهم، فيما عُفِيَ عنه بنفيه وأمكَ عن البلاد، لقد أوصاني والدكَ بأن أزرع في قلبكَ حب الوطن وأن أنشئكَ على الثأر لأهلك حتى تشب وتكون قادرًا على تحرير الوطن من أيدي الغزاة الرعاة.

كان وقع ذلك الحديث المستفيض مؤثرًا على فؤاد حابيس، مع ذلك أحس بدناءة نفسه وأنانيتها، فكم من مرة روادته الظنون بالسوء عن والديْه، كم كان أحمقَ، حينما فكر أنهم تخليا عنه، وكم من مرة كذلك هفا قلبه إلى نظرة حانية من أمه، أو عناق حميم من والده، يشعره بحلاوة الحياة في عينيْه. لقد بات حابيس الآن- أكثر من أي وقت مضى- يشعر بلهفة اشتياق اللقاء، وحرارة الرغبة في لم شمله بأسرته، لكنه اكتفى بمجرد الأمل البائس، وإن لم يتحقق المراد، فيكفيه التمسك بحلمه.

لاحظت السيدة نانيس تلك القطرات العابرة المتلألئة كالندى في عينيْه، فلم يرق لها نظرة اليُتْم الحزينة في بصره، فضمّته إلى صدرها قائلة في رباطة جأش: **يا كبدي، إنه لا يبكي الرجال، يحزنون، لكنهم لا يبكون، يتألمون ولا**

يصرخون، يتحملون فوق طاقاتهم، ويحررون الأوطان من دون البكاء على اللبن المسكوب، يا بني، اطلب من الإله أن يشرح صدرك برؤية والديْكَ، ولا تحزن، إن لم يجمعك الإله بهما، فليس في دار الخلود من فراق، انهض يا رجل، وامض في الدرب رافعًا رأسك معتزًّا بحضارتكَ، ولا تحمل في قلبك سوى روح الثأر لأهلك حتى تتحرر بلادنا من الأوباش وضيعي الأصل، ممن مزقوا أوصال أرضنا وشردوا أهلنا، وراحوا يتسيدون علينا ونحن أسيادها، ولتبقى على عهد أجدادكَ حتى تحقق نبوءة أبيك، فتطرد هؤلاء الغزاة إلى الصحراء من حيث جاؤوا إلى ديارنا، ولا يزيدكَ حديثي إلا إصرارًا.

خرج حابيس، متوجهًا إلى كتيبته الجديدة، حيث وقع عليه الاختيار للانضمام إلى القوات الخاصة الجديدة، المكلفة بتأمين وحراسة المعبد الجديد. وبعد أن انتهى من تدريباته، تذكر اقتراب وقت المواعدة التى اتفق بشأنها مع سارة. حان الموعد عند انتصاف الظهيرة، حيث وقت القيلولة الذي يذهب فيه الجنود للاستراحة؛ حتى تنكسر حدة أشعة الشمس الحارقة.

امتطى حابيس ظهر فرسه الأحوى الأمهر، حتى إذا ما شد لجامه، انطلق كالبرق الخاطف، فاغبرَّت الأرض من وطأة حافره البئيس، مسرعًا به نحو الصحراء الشرقية. حتى اقترب من مشارف الصحراء، فوجد هنالك نخلة شاهقة في فناء كبير، تنمو على ضفاف جدول مائي صغير، يشق الأرض للسقيا، فنزل حابيس عن جواده، في حين شد وثاقه في نخلة مثمرة، ثم استبدل زيَّه العسكري بملابس لعامة الشعب، ثم حفر أسفل النخلة، وردم زيه القديم، مهيلًا عليه التراب، ثم أخذ يتلفت حوله؛ كي يتأكد من عدم تتبع أحدٍ له.

بعدئذ، ركض بعزم على قدميْه فوق الرمال الساخنة، في حين جعل ينظر خلفه كثيرًا في حذر شديد؛ خشية اقتفاء أحد الجند لأثره، حتى وصل إلى

شجرة الميعاد، فلم يجد الفتاة عندها. طفق ينظر حوله في كل الأنحاء؛ بحثًا عنها، فما برزت له سوى الرمال الصفراء. حتى لمح من بعيد طيفًا يركض نحوه. اكتنفه الخوف لوهلة، فاختبأ خلف الشجرة، جاثمًا على الأرض، وهو يتلصص البصر من خلفها. اقترب الطيف، واتضح له أنها هي، فشبَّ واقفًا وقلبه يرفرف فرحًا. خلع حابيس قميصه، وراح يشير إليها في الأفق بيده، حتى رأته على مرمى البصر، فأسرعت نحوه، ولمّا وصلت عنده، وقفت أمامه تلهث بشدة. تباطأت أنفاس سارة، فأمسك حابيس بيدها، وسألها أن يجلسا خلف الشجرة؛ كي لا يلاحظهما أحد.

قال حابيس قلقًا: **هل شكّ أحد في أمركِ، يا فتاة؟**

أجابت سارة: **لا أظن ذلك. لقد كنت حريصة أشد الحرص على ألّا يلاحظني أحد. وأمّا والدتي فقد سألتني إلى أين أنا ذاهبة، فأجبتها بأنني ذاهبة إلى إحدى الفتيات لعيادتها"**

قال حابيس: ربما تبدو كذبة بيضاء. لكن على كل حال، فأنتِ تعلمين أكثر مني كيف سيكون الأمر إذا علم الملك بأن أحد جنده يتواعد بفتاة إسرائيلية.. ربما يتسبب ذلك لي ولكِ في أذى عظيم.

قالت سارة: أسأل الرب أن يحفظكَ من كل سوء. لكن أخبرني الآن ما الدافع الحقيقي الذي دعاك لمواعدتي بهذه الطريقة المريبة؟!

ردَّ **حابيس**: ليس هناك من داع للريبة، كل ما هنالك أنني شعرت برغبة جارفة دفعتني دفعًا لمقابلتك بعيدًا عن الأنظار.. أما وإن كنتِ لا تثقين بي، إذن فلا بأس يمكننا الرحيل الآن ولن أكون متطفلًا عليك مجددًا.

سألت سارة: أظن إن كان الأمر كذلك، فما وافقت من البداية على المجيء، لا عليك، أنتَ مهذبٌ كثيرًا، وهذه من أخلاق فرسان القبط العظماء.

قال حابيس: أشكركِ على هذا الثناء الجميل. إنكَ فتاة رائعة وجميلة حقًّا. لقد سمعتكِ ترتلين بعض الصلوات في خلوتكِ، وإنني لشغوف لأن أعلم أكثر عن إلهكِ الذي تعبدين.

قالت سارة: إلهي وإلهك يهوه ربنا، ورب السماوات والأرض؛ خالق الكون مدبر الأمر، رب كل شيء ومليكه، أنجى نوح وأهله في الفلك المشحون، ثم أخرج من صلبه أممًا وشعوبًا وقبائل شتى ليتعارفوا ويعمروا الأرض بعد الطوفان العظيم الذي أهلك البشرية جمعاء.

قال حابيس: لقد سمعت عن الأولين السابقين، كما أعلم أن ذلك الرجل الذي تذكرين كان له ثلاثة من الأبناء؛ وهم سام وحام ويافث، فأما أهل القبط فهم من نسل مصرائيم بن حام، وأمّا أنتم من شعوب سام العبرانيين الرعاة، أليس كذلك؟

ردت سارة: بلى، أنتَ على علم عظيم، فنحن الإسرائيليون وأولئك القوم الجبابرة جميعنا من نسل إبراهيم. لكن الرب رفع قدرنا واختارنا من بين الأمم ليكلفنا بحمل الرسالات والدعوة إليه، وجعل منا الأنبياء والرسل. لقد كنا نعيش في بلاد كنعان قبل أن يدعو نبينا أبيه إسرائيل وإخوته لدخول أرض جوش آمنين، بعد أن مسنا الضر وأصابنا القحط، وأهلك الجفاف مراعينا.

قال حابيس: من تقصدين بذلك النبي؟ هل تقصدين ذاك الوزير العبراني الأمين الذي أنجى بلادنا من السنين العجاف منذ زمن؟

ردت سارة : نعم، هو يوسف العظيم الذي جاء إلى جوش صغيرًا، وعاش بها في قصر فرعونها الهكسوسي حتى صار يافعًا، لكنه تعرض لظلم عظيم، وقد أودعه الملك السجن، حتى خرج منه وصار وزيرًا على خزائن البلاد، فحمل برسالة إلى أهله، واستقبلهم فوق تلة على مقربة من هنا. لقد صار لنا في أرض

جوش شأنٌ عظيمٌ في عهده، فاقتطع لنا ملك جوش أراضي كثيرة لنستوطن بها، وأهدانا بيوتًا بالمدينة نستقر فيها، فعشنا في سلام وأمان إلى حين شاء الرب غير ذلك، لأننا تركنا وصية يوسف، فانقسمنا من بعده، فرقة ترفض الانخراط في الحكم، وفرقة تتملق الملك سعيًا وراء ثمة نفوذ وحفنة من الدنانير الزائلة، فسلط الرب علينا هذا الملك الباطش الذي يخشى على ملكه منا فأصابنا من الرب عذاب عظيم.

قال حابيس: لقد صرنا جميعًا عبيدًا على أرض جوش، ودارت علينا -أهل القبط- الدوائر كما دارت عليكم، فوقع بنا الجور العظيم.

قالت سارة: وإننا لن ننجو- أبدًا- إلّا بالعدول عن انقسامنا، والعودة إلى دين أبينا إبرام، فنتوحد من جديد كي نكون بحق أبناء يهوه الخواص وشعبه المختار.

قال حابيس: "ونحن- أصحاب الأرض الأصليون- صرنا في ديارنا غرباء، وصرنا نأتمر بأوامرهم وننتهي بنواهيهم ونبذل الغالي والنفيس لخدمة حفنة ملوك محتلين من أصل وضيع. إنهم يعاملوننا بوحشية بربرية لم يعهدها شعبنا. لكننا يومًا ما سنسترد أرضنا، وستعود جوش لأصحابها بناء الأهرام العظام، وستعود كيميت لسالف عهدها كما ورثناها عن أجدادنا؟!

سألت سارة: كم أحب هذه الديار الطيبة، وأسأل الرب العظيم أن يعيد لكم ملكها، وعندها فإنكم ستخلصونا من ذلك البلاء العظيم. لكن وصية يوسف توجب علينا- نحن- أن نقف في وجه ذاك الطاغية، ووفقًا لوصيته التي يخشاها الملك، فنحن ننتظر رجلًا من قومنا سوف يخلصنا من العبودية، ويعيد الملك لكم، ويورثنا الأرض التي وعد الرب ها لذرية إبرام، وإن ذلك اليوم قد اقترب، وصار أقرب من أي وقت مضى، وإنا لمنتظرون.

قال حابيس : **هل أنتِ حقًّا تؤمنينَ بالخلاص؟!**

سألت سارة: وهل في وعد الرب من شك. إنه آت لا محالة، وإنه لمنجينا نحن وأنتم أجمعون من القوم الظالمين، ولكن حتى يأتي ذلك اليوم علينا أن نصبر ونحتسب الأجر والثواب من الرب المنتقم. ولا يجب كذلك أن نرضى أبدًا عن الظلم.. لكن إذا انقطعت أسباب الأرض، فلننتظر أسباب السماء، ولما نحزن على تلك الحياة الفانية؟! ونحن الأعلون بإيماننا الذي لا يتزعزع، وكيف سنرث الحياة الأبدية إذن؟ لكن ماذا عنك؟ ألا تؤمن أن أرضكم ستتحرر يومًا، وتعود إليكم؟!

حابيس: "قطعًا، سيأتي اليوم الذي نقذف فيه هؤلاء الهمج بالصحراء، وربما تصدق نبوءة نبيكم، ويكون ذاك اليوم عينًا بعد مجرد ظن، إن ثمة جندًا من القبط يتداولون أخبارًا بأن أهل طيبة يقاومون استبداد الحكام الأجانب، فيما قد تمكنوا من السيطرة على أرض كوش[1] واستطاعوا نزع الحكم من ملكها الذي يتبع سياسيًّا للملك خيان، كما تمكن الأحرار من توحيد أرض طيبة، وربما يتهيأون لبناء جيش عظيم لتحرير باقي أرض كيميت، وإنهم لصامدون ومستميتون في الصد عن حدودهم الشمالية ضد غزوات الرعاة المتوحشين، حتى راحوا يكبدونهم خسائر فادحة.

سارة: إنها أنباء سارة للغاية، وإننا نسأل الله أن يعيد إلينا موشيه، الذي كان يجابه الظلم ويدفع عن المستضعفين. لكننا لم نعد نعرف مصيره، أما زال حيًّا أم مات.. لقد هرب من المدينة خوفًا من بطش الملك، بعد أن قتل جنديًّا كان يعتدي على رجل من قومنا، وإني لأدعو الرب بالليل والنهار أن يعيده إلينا.

(١) أطلق اسم كوش من قديم الزمان على جزء من منطقة النوبة يشمل المنطقة جنوب الشلال الثاني والتي تمثل بلاد النوبة العليا.

ربَّت حابيس على يد سارة، فيما راح يكفكف دموعها الصادقة، التي فاضت عندما جاءت على ذكر موشيه، فقومها لم ينقطعوا حديثًا عنه في مجالسهم، رغم أن سيرته كانت كافية للزج بأحدهم في غياهب السجون. لقد سحره حديث سارة، فشعر بالحرج من الجهر بمشاعره تجاهها. لكن خفقات صدره باتت تفضحه، ونظرات الهوى لم يعد يقدر على إخفائها، فتلجلج بينما يقول: **سارة، إنني أشعر بالانجذاب الروحي نحوكِ، ربما لا تشاركينني المشاعر ذاتها، لكنني لن أخجل أن أخبركِ بأنكِ أطهر وجه في الدنيا، وأطيب ما رأت عيناي، فلمثل روحكِ الصافية خُلق الغرام، عرفتُ بكِ الحب لأول مرة بحياتي، وأتمنى لو أكون نجمًا بسماكِ، همسةً لشفاكِ، أو شمعةً بمساكِ، يهنئ قلبي بلقياكِ، والصبر أسأل لبعدكِ عن عيني، يا سارة، هذه مشاعري أفصح بها لكِ، عسى أن تتقبليها.**

اضطربت سارة بشدة، فطارت الكلمات من فيها. رغبت في الاستئذان، لكن حابيس كان يملك خبرًا مهمًّا أراد إخبارها عنه، فقال: **اسمعي يا سارة، لدي نبأ سيئ، لقد سمعتُ أحد الجنود يقول إنهم يبحثون عن طفل إسرائيلي للفتك به. سمعتهم يقولون بأنه شقيق الفتاة العبرانية التي وجدوها في الصحراء. هذا يعني أن أخاكِ في خطر عظيم. عليك بإخفائه في أي مكان آخر، لأنهم- ربما- يهجمون اليوم على قريتكِ بحثا عنه، حسب ما سمعت.**

قالت سارة: **يا إلهي، رحماك، ولماذا يبحثون عنه؟ ماذا جنى أخي كي يبطشوا به؟**

رد حابيس: لقد سمعتهم يقولون إنه متهم بسرقة سوار زوجة الملك، عندما كان يخدم في قصرها، فأمرت بالبحث عنه ومحاكمته أمام عامة الشعب، فيما ذكر أحد الجنود تحديد الملكة مكافأة قيمة لمن يأتيها به في

أسرع وقت، لذا فإن الجنود متلهفون للعثور عليه.

قالت سارة: مدعية كاذبة، إن أخي لا يمكن له أن يسرق. إنه لا يأتي مثل تلك الأفعال أبدًا. نحن من بيت كريم، ولا يمكن لنا أن نسرق أحدًا حتى وإن كان من يظلمنا. إننا نحفظ وصايا أبينا إسرائيل الذي أوصانا بالصبر والصلاة والخلق الكريم. لقد وقع بنا الظلم كثيرًا، يا الله، وما عاد لنا سواكَ يا رحمن، نجني- يا يهوه- وأخي.

قال حابيس: لا وقت لدينا للبكاء، يجب أن نتصرف بسرعة. إن الجند إن جاؤوا على قريتكم، فسوف يعتقلون أخاكِ ويودِعونه السجن. اسمعي، عليك الآن أن تعودي إلى داركِ، وتسرعي في إخفاء أخيكِ في مكان لا يصل الجنود إليه.

سارة: "كيف لي أن أفعل ذلك؟! وأين يمكنني أن أخبّأه من بطشهم، إن العسكر إذا دخلوا قريتنا أفسدوها وجعلوا أعزتنا أذلَّة، فسيبطشون بكل القوم، ويفتشون ديارهم جميعًا، ولن يتركوا دارًا إلَاّ ويطئونها ويعيثون بها فسادًا.

قال حابيس: اسمعي، لدي فكرة عظيمة، إنني أحمل بجعبتي ثمة رداء للنبلاء يناسب أخاكِ، فقط عليك الآن بالإسراع عائدةً إلى داركِ، وتستبدلين بثيابه هذه، ثم تخبريه بأن يعدو خلسة إلى حديقة الفاكهة الغنّاء، المطلة على ضفة الجدول الشرقية عند الجهة الأخرى من سفح الجبل. إنها معروفة ومميزة، وهناك سأكون في انتظاره، فيما سأرسل به مع أحد الرجال إلى السيدة نانيس- مربيتي العجوز- لتخفيه بدارنا عدة أسابيع حتى يهدأ أمره.

لم تجد سارة بدًّا من تنفيذ تلك الفكرة، فنهضت فورًا، وركضت عائدة إلى دارها، قبل أن يحل الغروب.

(5)

لم تكن أرض القبط في زمن حكاة الرعاة الأجانب تعرف القانون، ولم تكن القوانين الدارجة والتشريعات المعمول بها في الماضي تجد سبيلًا للتطبيق في ذلك العهد البغيض من تاريخ الدولة، بل حتى إن الإلهة ماعت- إلهة العدالة- لم تُقدَّس في ذلك العصر، وصار التقديس منصبًّا فقط على إله الشر، ست اللعين. لذلك أصرت زوجة الملك على محاكمة الفتى الإسرائيلي محاكمة علنية تحت سمع كل الأشهاد وأبصارهم، دون إجراء مقاضاة عادلة، ودون إثبات تهمة السرقة عليه، وعلى الرغم من أن الكتبة- وهم موظفون أقباط الأصل متعلمون، كانوا يعملون في الهيئات القضائية والأدارية بأرض جوش- لم يملكوا أي أدلة تدين الفتى، إلّا أن قاضي المدينة أمر بتوقيع أقسى عقوبة عليه. كان ذلك بتفويض وأمر مباشر من الملكة، وقد أصدرت بذلك مرسومًا خاصًّا، فيما أمرت بحشد الشعب في يوم مهيب؛ ليشهدوا معاقبته بالصلب على جزع النخل، والجلد حتى يلفظ أنفاسه الأخيرة؛ خلافًا لما كان متبعًا في مثل تلك الجرائم سابقًا. كان النظام القضائي في كيميت تنص قوانينه على معاقبة السارق بالضرب المبرح دون الإعدام، وذلك بعد إقراره بالذنب، وإعادة المسروقات، ودفع تعويض يمكن أن يصل إلى أربعة أضعاف القيمة الأصلية للمسروقات، أما إذا كانت البضاعة المسروقة ملكًا للدولة، فتكون العقوبة أقل بكثير، مما إذا ما كانت ملكًا للملك، فكان اللص مطالبًا بدفع ثمانين إلى مائة ضعف المسروقات، هذا بالإضافة إلى العقاب الجسدي المبرح، الذي لم يرقَ أبدًا إلى حد الإعدام بالصلب، الذي لم يعهده المصريون القدماء.

لم يتمكن الفتى من الهروب، ولم يتسنَّ لحابيس تنفيذ الخطة التي

دبرها، فما إن عادت سارة إلى الدار، قبيل الغروب، حتى وجدت الجنود قد اعتقلوا أخاها. فيما أُودِع السجن لحين محاكمته.

في يوم المحاكمة، حشد الملك جميع طوائف الشعب من الوزراء، المسؤولين، العمال، الجنود، عامة الناس؛ لمشاهدة تلك المحاكمة الجائرة. هذا وقد أمر الملك- كذلك- بجمع كل الإسرائيليين حول منصة تنفيد الحكم؛ ليكون عبرة لهم على خيانة أحد أفرادهم للعهد الملكي. كان يومًا مهيبًا بحق، وكان الملك يترأس الحشود الغفيرة، التي توافدت من كل حدب وصوب، في الساحة الكبيرة، أمام القصر. صعد القاضي إلى المنصة، وأقر معاقبة الفتى بالجلد حتى الموت، كان الفتى مصلوبًا على جزع نخلة كبيرة، وكان يصرخ فيهم قائلًا: **أرجوكم أفرجوا عني. أقسم لكم أنني ما سرقت، وما خنت زوجة الملك. أقسم لكم أنني بريء من التهم الموجهة لي**، لكن القاضي لم يكترث لمناجاته.

وألقى خطابًا حادًّا في الناس، فقال لهم:

- أيها الملك العظيم، إلهنا الطيب المبجل؛ ابن ست العظيم. أيها الشعب والجماهير الغفيرة، عباد الملك. إن هذا اليوم لهو يوم عظيم في تاريخ أرض جوش، هو اليوم الذي يعلن فيه الملك أنه سوف يضرب بيد من حديد كل من تسول له نفسه بالإجرام في حق الإله ست. ولقد أجرم ذلك الفتى الإسرائيلي الحقير في حق الإله، فسولت له نفسه سرقة سوار الملكة. لقد خان العهد والأمانة التي وكله بها سيده، حيث أكرمه بالخدمة في قصره. وهو شرف لو تعلمون عظيم، بأن يكون أحدكم عبدًا في بلاط الملك.. لقد اعتنت به الملكة، وأحسنت إقامته لديها بين الأمراء والنبلاء، فكان من المحظوظين القلائل الذين يخدمون الملك وزوجته حفظهما الإله، ولما تبين للجنة الحكماء أنه قام بتلك الفعلة الشنيعة. قررتُ أنا قاضي المدينة بالحكم عليه بالجلد حتى الموت،

ليكون عبرة لمن يعتبر، أو من تسول له نفسه مخالفة القوانين أو خيانة ولي عهد البلاد ملك أرض جوش وأرض كيميت المهيب. وعليه، فإن الملك قد أمر بجمعكم في ذلك اليوم المحشود، لتروا بأم أعينكم تطبيق القانون ومعاقبة الفتى على جريمته اللعينة.

أعطى القاضي أمره لقائد قوات حماية المعبد باختيار أحد الحراس لتطبيق العقوبة على الفتى، ولذلك اعتلى القائد المنصة، وأشار على حابيس، وأمره بالصعود إلى المنصة لجلد الفتى. كانت سارة تقف مع أمها حول المنصة، وقد ارتفع الصراخ والنحيب. كانت أم الفتى تصرخ، وقد انهمرت الدموع منها بغزارة، فيما كانت تصيح بكلمات شجية، قائلةً: **أيتها الملكة، رحماكِ، ألا ينفطر قلبكِ على أبنائكِ؟! أتوسل إليك أن تعفي وتصفحي عن ابني. أتوسل إليك، يا جلالة الملك، أن ترحمه، إن قلبي ينفطر وجعًا، أرجوكم يا أيها القوم، إن كان أخطأ فليودع السجن ولا يُعدم هكذا، يا يهوه، ماذا جنينا كي يحيق بنا كل هذا العذاب، يهوه أنت المنتقم العزيز الجبار، إبني يا الله، فلذة كبدي، وكل ما أملك في الدنيا، يهوه ارحمني.**

لكن كلماتها التي تفطر القلوب لم تلق بالًا لدى زوجة الملك، في حين كان العوام يصيحون: **خائن، سارق، اعدموه الآن.**

وبينما كان حابيس يقف إلى جوار الحراس في مقدمة الحشود، نزل عليه قرار اختياره لجلد الفتى كالصاعقة. لم يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف، فصعد إلى المنصة، وسلمه القاضي السوط، لكن حابيس رفض استلامه، وأعلن تمرده، ورفضه الامتثال للأوامر الجائرة، ثم ألقى في الحشود كلمة مدوية، فقال:

- التحية لمن وجبت له التحية، والسلام على من يعرفون السلام، لكن العدل الذي تدعون تطبيقه ليس بعدل. إن إنزال عقوبة الإعدام بفتى صغير

دون أي أدلة تدينه هو عين الظلم وعدم تطبيق القانون. إن القانون الذي نعرفه في بلادنا قبل أن يسلطكم الإله علينا كان يقضي بضرورة التحري وامتلاك الأدلة الكافية التي تدين المتهم. وأما وإن الفتى لم يثبت الجريمة عليه، فإنني أطالب الملك وهيئة المحاكمة بإثبات صحة إدعاء الملكة بقيام ذلك الفتى بسرقة مصوغاتها ومجوهراتها. أيها الملك، لقد جئتم إلى بلادنا محتلين غزاة، وقد عينتم أنفسكم ولاة أمرنا. وما كانت تلك البلاد يومًا ملكًا لكم. لقد جئتم من شتى البقاع لتستوطنوا أرضنا، وقد ملأتم الأرض جورًا وظلمًا، فصرتم تذبحون الأطفال وتستحيون النساء وتستعبدوننا في ديارنا. ولستُ لأكون أبدًا مدافعًا عن أي متهم تثبت إدانته، ولكني مدافعٌ عن الحق والعدل في هذه المدينة، فوالله ما رأيتُ منكم غير الفساد والإفساد. وقد مضيتم في طريقكم الذي مضيتم فيه تفرضون الضرائب المرهقة والجبايات الظالمة على أهلها، وصرتم تلبسون كالنبلاء، بعد أن كنتم ثمة رعاة رعاع حقراء، وما راعيتم يومًا قيمة الشعب القبطي الذي تحكمونه، ولقد كنتم فرقًا شتى وقبائل عدة. وقد توحدتم فيما بينكم وحدة زائفة، فصرتم توزعون مقاطعات بلادنا على كل شيخ من شيوخ قبائلكم، وها أنتم وقد أصبحتم السادة ونحن العبيد، لكن الإله قد خلقنا أحرارًا ولم تلدنا أمهاتنا يومًا عبيدًا صاغرين. ولن نكون لكم هكذا في أرضنا، ولذلك فإنني أعلن تمردي أمام الناس أجمعين. إنني لم أعد أرضى بهذا الظلم الأغبر المبين، وأرفض إجراءات هذه المحاكمة الصورية الباطلة، ولن أمتثل للأوامر بعد اليوم، وأعلن رفضي القاطع والتام لجلد هذا الفتى الإسرائيلي البريء.

ما إن انتهى حابيس من كلمته، حتى سادت الفوضى العارمة في ساحة المحاكمة، فعمّ الهرج والمرج بشدة، وصدح القوم الإسرائيليون يهتفون باسم حابيس، ثم ما لبث أن انتقل الهتاف إلى صفوف العوام، فصاروا يصدحون

باسمه، منددين بإجراءات الملك الطاغية، فأمر الملك على الفور بإخماد الفتنة في مهدها، وإلقاء القبض على الجندي المتمرد، ثم انقض فرسان المعبد على الإسرائيليين، فنزلوا بالسياط على أجسادهم، ونالوا منهم، بعد أن أحاطوا بهم جميعًا، وراحوا يسومونهم شر العذاب.

أمر القاضي بقطع عنق الفتى أمام الأشهاد، وكلف قائد قوات حرس المعبد بتنفيذ الأمر، فصعد القائد إلى المنصة، وأشهر سيفه، في حين يصيح الفتى الشجاع، مخاطبًا في بسالة فائقة، لم يجرؤ الشيوخ على مثلها: **إذن فهلمّوا بي إلى الموت من دون أن يستعبدنا عدونا، وهلمَّ بكم شعب الله المختار، إلى الثورة من دون خوفٍ من الفناء، بل إلى الخلود أدعوكم، ولتغادروا هذه العالم رجالًا أحرارًا مع أولادكم ونسائكم، هذه وصية أبينا إسرائيل.**

وقطع عنق الفتى، فصرخت الأم صرخة مدوية، وهرعت نحو المنصة، لتحمل رأس وليدها الشهيد، فجعلت تصرخ في صبر قائلةً: **اللعنة عليكم.. اللعنة عليكم. إن الرب لمنتقم؛ إنه لمنتقم.**

ركضت سارة فقطعت حصار الجنود، فاندفعت خلف أمها، وجثمت عند رأس أخيها، وهي تنتحب بشدة، ثم نهضت، راكضةً نحو الملك، وخطبت في الجموع بصوتٍ صدّاح في الأفق: **يا أيها القوم، ما الموت إلّا مفخرة الرجال، يا شعب الرب وأحبّاءه، منذ أن بدأ الإنسان البدائي بالتفكير، فإن كلمات أجدادنا وآبائنا الأوّلين، مدعومة بأفعال أسلافنا وأسلافهم، كانت باستمرار تترك فينا أثرًا بالغًا، حين توصينا بأن الحياة هي الفاجعة للإنسان، وليس الموت، فالموت يحرر أرواحنا، ويسمح لها أن ترحل إلى وطنها الطاهر الأبدي، حيث لن تعرف معنى الفاجعة، وفي حين تكون حبيسة جسد فانٍ تشاركه مآسيه، تفنى في الحقيقة الضيقة، لكن أرواحنا اليوم تبخس أمام الدفاع عن**

الحق، اغضبوا- يا قوم، إغضبوا من أجل الحرية، ثوروا على الطاغية، يرحمكم الله.

أسرع حراس الملك بالإمساك بها، وطفقوا يضربونها بالسياط بلا شفقة، حتى كادت أن تفقد الوعي. كان حابيس ينظر إليها في حزن شديد، وقد أمسك به الجنود، وكبّلوه، ثم ساقوه إلى الملك. أمر الملك بالزج به في السجن. أخذ حابيس يصيح فيهم قائلًا: **لن تنالوا مني، ولن تنالوا من شعب كيميت العظيم. سيأتي اليوم الذي تهربون فيه خوفًا من بطشنا، وسيأتي اليوم الذي نطهر البلاد من دنسكم. لن تبقوا في أرضنا مهما يكن. سنفتدي بلادنا بدمنا وأرواحنا. ارحلوا عن أرض جوش. ارحلوا. يسقط حكم الملك الظالم، يسقط حكم الجنود، وتحيا كيميت للأبد.**

امتد الغضب إلى عامة الشعب، وخرجت الأمور عن السيطرة. بدا أن هناك انتفاضة قوية عارمة ضد الملك تلوح في الأفق. بات شعب جش يهتفون بإسم حابيس، ويندددون بحكم الطاغية. دبت الفوضى في صفوف المعارضين، لكن المؤيدون للملك وأتباعه من عشيرته وبني القبائل الأخرى راحوا ينهرونهم بهتافات معادية، ثم هاجموهم بعصيهم، فأخذوا يتعاركون بالعصى، ونشبت بين الفريقين معركة حامية الوطيس. تدخل الجنود على الفور لفض الاشتباك، فانهال الجنود على المعارضين المتمردين ضربًا بالسياط.

كان المشهد دمويًّا للغاية، سقط خلاله الكثيرون صرعى، وأصيب العشرات، في حين حاول آخرون الفرار من بطش الجنود، فأخذوا يركضون بعيدًا عنهم، لكن الجنود كانوا لهم بالمرصاد، فطاردوهم بالخيول، وقطعوا رقاب الكثيرين بالسيوف، وأما من تمكن من الفرار، ظل الجنود يطاردونهم حتى أمسكوا بهم.

في تلك الأثناء، كان حراس الملك يحاولون حمايته، فنقلوه إلى القصر في أسرع وجه، فيما أمرهم الملك بإنهاء الثورة فورًا، وتصفية الخارجين عليه جميعًا، وهو ما حدث فعلًا، حتى غرقت الأرض بالدماء، فمات العشرات، واعتقل الكثيرين منهم، فزج بهم في غياهب السجون، حتى وُئِدت الفتنة، وانتهى التمرد، لكن إلى حين.

(6)

في قبو أسفل المعبد الجديد، يُضاء بسُرُج على جانبيه، وُجدت سراديب خاصة متسعة، محكمة الغلق، مؤَمَّنة الأبواب الموصدة، التي تغلق وتفتح بالجر، ويقف عليها حارسان أجشان، أودع حابيس في داخل إحداها. كانت غرفة السجن كبيرة وواسعة، لكنها تنقسم في داخلها إلى عدة غرف أصغر، يفصل بينها سياج حديدي، لا يمكن اختراقه أو تجاوزه، ولكن يسمح للمساجين أن يروا بعضهم البعض عبره، كما يُمكِّنهم من التواصل وتبادل الحديث.

كانت كل غرفة تحوي عددًا محدودًا من المساجين، مع ذلك كانت تعج لآخرها بالأسرى من أعراق مختلفة، والمعتقلين السياسيين، والجنائيين كذلك. قبع حابيس جالسًا القرفصاء، مسلوب الحرية في الغرفة التي لم يكن يصلها ضوء الشمس مطلقًا، لكن ثمة سُرُج تضاء وتُطفأ في مواعيد محددة. دون أي محاكمة كان حابيس ينتظر تنفيذ حكم الإعدام الذي أمر به الملك؛ وذلك لإصراره على التمرد، ولخشية الملك من تمدد ذلك التمرد، وتغلغله في نفوس عامة الناس، في حين يتحول حابيس لبطل شعبي، يمكنه تزعم ثورة خطيرة تطيح بالملك، الذي تمكن-أخيرًا- من إبطال عصيان مدني دام إسبوعًا متواصلًا، خلَّف العشرات من المعتقلين، فباتت أواريس ككرة لهب مشتعلة تحرق كل من يقترب منها، حتى استتبَّت الأوضاع، وانطفأت شرارة الاحتجاجات، وبردت جذوتها.

بداخل ذاك السجن الموحش، بات حابيس ليال طويلة. كانت تمر عليه الأيام دون أن يشعر بها، فما كان هناك من وسيلة لمعرفة الوقت، وما أمكن له أن يدرك النهار من الليل. كان معه بالسجن العديد من الرجال

الأقباط والإسرائيليين، بالأضافة إلى عدة رجال من جنسيات أخرى كالفينيقيين، الكنعانيين، الكوشيين، وقليل من الآشوريين أسرى الحروب. كان في الغرفة المجاورة، التي يفصلها السياج، يقبع شيخ إسرائيلي، محكوم عليه بالسجن مدى الحياة؛ لإتهامه بالسحر والهرطقة. بدا له مريبًا وغامضًا، فكان يطيل النظر إلى حابيس، في صمت مثير للعجب، وكأنما يعرفه منذ زمن، أو كأنما يريد أن يخبره شيئًا ما، لكن حابيس ظل قابعًا على الأرض، فوق مِفْرَشَتِه، لا يلتفت ولا يتحدث إلى أحد. هكذا مضت أيام كثيرة لم يتحدث إليه ذاك الشيخ، سوى مرة واحدة، عندما سأله حابيس عن اسمه، فأخبره أنه يُدعى بالعبرية **ה"תשפ"ד** أو ها تْشَبِد.

لم يكن حابيس حزينًا على ما وصل به الحال، وما كان نادمًا على ما قام به من تمرد وعصيان للملك الباطش، إنما كان ينتظر تنفيذ حكم الإعدام عليه بإيمان وصبر عظيميْن. كمن ينتظر الموت، كان مشغولًا طيلة الوقت بالتفكر في الدار الأخرة، فتمنى أن تشيد له مقبرة عظيمة من الجرانيت كمقابر الملوك والعظماء، في حين كان يتوقع أن تقام له شعائر جنائزية مهيبة، يحضرها جميع أهل جوش، وتكتب ذكراه على جدران المعابد والبرديات. كانت تراوده أحلام شتى، بعضها تقوي من عزيمته، وتشحنه بالأمل والخلاص من الاعتقال، وبعضها الآخر يرى فيها أن روحه تتصعد بعنف إلى الملأ الأعلى، كمن يُساق إلى النار والهلاك الأبدي.

في أحد الأيام استيقظ حابيس فزعًا من نومه، وراح يصرخ بشدة، فاقترب منه المساجين، وطفقوا يهدأون من روعه، ويسألونه عما رأى. في ذلك اليوم، اقترب الشيخ الإسرائيلي من السياج الفاصل، وأخذ ينادي على حابيس بصوت منخفض. حتى التفت إليه، فسأله الشيخ أن يدنو منه؛ ليتمكن من التحدث

معه. ثم راح يسأله عما رأى، فأخبره حابيس بما رأى تفصيلًا.

قال حابيس: **رأيتُ أنني أسبح في الملكوت، لكنني كنت ثقيلًا للغاية، وكانت روحي تشتد ثقلًا كلما ارتفعت في السماء، حتى جاء رجل دميم الوجه شديد سواد البشرة كأنه حبشي. كان يمتلك جسد صقر، وكان له جناحان عظيمان يملآن عنان السماء، فيحجبان الضوء في الأفق السحيق، ثم أخذ ذلك الرجل بذراعي، وجعل يشدني منه بقسوة، في حين طار بي بعيدًا بعيدًا في رحاب الملكوت، حتى وصل بي إلى أحد الأبواب الضخمة، كان ذلك الباب العظيم موصدًا بسلاسل حديدية محكمة، ولكن ذلك الرجل كان يملك مفتاحه، ففتحه لي، وأمرني أن ألجه، فولجت عبره، فوجدت رجلَيْن عظيمي الهيئة في انتظاري، أحدهما يحمل وجه تمساح، والآخر وجه طائر ذي منقار طويل، كانا يقفان متقابلَيْن، وبينهما ميزان ضخم، في إحدي كفتيْه ريشة، وعلى الأخرى وجدتُ جعرانًا صغيرًا، ثم جاء كلب ضخم برأس تمساح أيضًا، محاولًا إيذائي، لكن امرأة بذات رأس التمساح وقفت إلى جانبي، وأبعدته عني، ثم وقفتُ في منتصف الميزان، وكانت كلتا كفتيْه تتمايلان بشدة، فأخذت تلك المرأة تنظر إليّ، ثم تعيد النظر إلى الميزان، وفي حين هي كذلك، إذ أمرتْ الرجلَيْن اللذين يقفان على الميزان بالانصراف، ثم نادت على الباب لينفتح، فانفتح، فدفعتني خارجه، وأغلقته ورائي، لكنني استمررتُ بالوقوف خارجه، أنظر يميني وشمالي، فلم أجد الرجل الأسود ذا جسد الصقر، ثم رأيتُ نجمًا صغيرًا يتلألأ في الأفق، وكان يقترب مني بشدة، فتحول ذراعي جناحيْن هائليْن، فأخذت أحلق بعيدًا مرفرفًا، حتى ابتعد عني ذلك النجم المتوهج، الذي كاد أن يقترب مني ويحرقني، وفجأة اختفى النجم وتلاشى في الأفق، فأخذتُ أسبح في الملكوت من جديد، حتى رأيتُ نارًا عظيمة في مكان بعيد، كانت تبدو وكأنها تخرج من فوهة جبل شاهق الارتفاع كالبركان،**

ثم شعرتُ بأن شيئًا ما يدفعني للتوجه نحو فوهته، حتى اقتربت منها، وأصبحتُ فوقها تمامًا، فبدتْ حمم البركان كأفعى عظيمة، ثم فجأةً أحسستُ بيد قوية تجذبني لداخلها، فانهرتُ من أعلى بسرعة عجيبة، حتى كاد لسان الأفعى أن يلتهمني، لولا أنني صرختُ بقوة هائلة، فانطلقت صيحاتي تدوي بشدة، فاستيقظتُ هلِعًا.

أخفض الشيخ رأسه، فور أن انتهى حابيس من سرد رؤيته، فبدا كما لو علم أمرًا يريد إخفاءه. كان الشيخ في العقد السادس من عمره، فيما يبدو عليه الوقار والهيبة. كانت لديه لحية كثَّة شعثاء، وقد غزاها الشيب، في حين ظل شعر رأسه الطويل الناعم أسودَ كالحًا، لم يصب الشيب إحدى شعراته. لمّا بقيّ الشيخ صامتًا، بادر حابيس بسؤاله عن سبب صمته المقلق، فلم يجِبه الشيخ الإسرائيلي، بل ظل خافضًا رأسه لا ينظر إليه، حتى أن حابيس ظن أن النوم غلبه. بعد لحظات، رفع الشيخ رأسه، ثم قال:

- اسمع يا بني، إنني أقبع هنا منذ عشرات السنين، ولقد وفد عليَّ الكثير من الرجال، وقد رحل الكثير، وبقيتُ أنا، كأنني لم أعد شيئًا يُذكر، ياه، يا بني، لقد أمضيت دهرًا طويلًا بين تلك الجدران، ولكنني في داخلي أمتلك الحرية، لم تعد تلك الجدران البالية ولا تلك الأبواب الموصدة تشعرني بالأسر، لقد كسا الشيب لحيتي بداخل هذا السجن، وصار الرجال ينعتونني بالمجذوب، حتى أن حراس السجن نسوني، ولم يعودوا يبالون بأمري، انظر حولكَ لن تجد أحدًا ينظر إلي، فما عادوا يرونني، ليس هنا سواكَ الذي ينظر إلي فيراني، وهذا يعني بالنسبة إلي أمرًا عظيمًا.

قال حابيس مذهولًا: أيها الشيخ، ماذا تعني بذلك؟!

قال الشيخ الإسرائيلي: لن يهمكَ أمري كثيرًا، ولا تحاول أن تعرف كل

شيء في وقت واحد، لكنكَ وحدكَ- دون سواكَ- ستعرف كل شيء، وستنفتح عيناك، فينكشف لكَ كل شيء، وينجلي الظلام من حولكَ، فيتحرر قلبكَ المقيد من أصفاد العبودية وأغلال السخرة الجسدية، فيعلو قدرك في البلاد، ويرتفع شأنك بين العباد، وستكون فوق كل هامة، وستقطع أعناق الجبابرة والطغاة. إنني أرى في عينيْكَ أمرًا عجبًا؛ لم أره في حياتي من قبل، لكنني أخشى أن أحدّثُكَ به فتركن إليه، ولا تسعى لتحقيقه.

قال حابيس: يا أيها الحكيم، ما هذا الغموض والريبة في حديثكَ، إنني أصبحت في حيرة من أمري، ولا أستطيع الصبر على فك شفرة هذا الكلام وحل ألغازه. أرجوكَ، يا رجل، فلتخبرني، هل سأموت حقًا؟! وتقوم قيامتي ؟! أم إنني سأنجو؟!

رد الحكيم ها تشفِذ: "ستعرف مستقبلًا كل شيء. لكن أولًا عليك أن تكون صابرًا محتسبًا حتى تنال حريتك وتجني كل ما تريد. إن الصبر هو مفتاح خروجك من هنا.. وكلما رآك الرب صابرًا شاكرًا، أوشك على فك قيدك وتحرير إرادتك.

قال حابيس متسائلًا: **أخبرني، أيها الحكيم من فضلكَ، هل يأمركَ إلهكَ بالموت في سبيل ما تؤمن به؟!**

الحكيم: أيها الشاب المتلهف إلى معرفة الحق، إني مُعلِّمكَ كلمات يشرح الرب بها صدرك، فتتجشَّم روحكَ الأسيرة عناء قيد الجسد الفاني حتى يؤذن لها أن تتحرر عنها، يا حَواريّ، لأن ربط الألوهية بالبشر الفاني غير ملائم أبدًا، فالمؤكد أن الروح يمكنها أن تكون ذات تأثير كبير عندما تكون محبوسة في الجسد، فهي تجعل الجسد أداة الإحساس الخاصة بها، فتحركه على نحو مرئي، وتدفعه في أفعاله إلى حدود تضاهي حدود الطبيعة الفانية، ولكن

عندما تتحرر من الحمل الذي يثقلها، ويشدها إلى الأرض لتتجول عليها بلا غاية، تعود الروح إلى مكانها الخاص، والحقيقة أيها الحر، إنها تتصف بشيء من الطاقة المباركة والقوة المحررة كليًّا من الأغلال، وتبقى غير مرئية للعين البشرية، تمامًا كما هو الإله نفسه، ولا حتى عندما تكون في الجسد تمكن رؤيتها يا بني، فهي تدخل من دون الشعور بها، وترحل من دون أن تُرى، إذ تملك لنفسها طبيعة خالدة، ولكنها تسبب تغيرًا في الجسد، فأيًّا ما تلمسه الروح يعش ويزدهر، وما تغادره الروح يزبل ويموت، وهذا يعود إلى الغزارة في طبيعة الخلود فيه.

قال حابيس: **وإنني لأراكَ صابرًا، فأخبرني ماذا منحكَ الصبر سوى المزيد من الشيب الذي يغزو لحيتك في هذا المكان؟**

سأله الشيخ: **ومن أخبركَ، أيها الحر أنني سألتُ الرب الخروج من هنا؟! إنني لا أرغب في الخروج مطلقًا.**

فقاطعه حابيس متعجبًا: **كم أنت غريب، أيها الحكيم، أترفض أن تنال حريتك؟ وترغب أن تقبع ها هنا خلف أسوار السجن؟**

أجابه الحكيم ها تْشَبِذ مسترسلًا: وما أدراكَ لعل السجن أفضل لي من الذل والهوان خارجه، انتظر، يا رجل. إنكَ ما زلتَ كهلًا. ولم تعلمكَ الحياة الكثير بعد. هل سمعتَ في المدينة عن رجل وقف في وجه الظلم والقهر، فعاقبه الملك بالصلب حتى تأكل الطير من رأسه؟ ثم رأى الملك في المنام ذلك الرجل ميتًا، وقد خرجت من فمه طيورًا مخيفة غاضبة ترمي قصره بوابل من الحجارة الغليظة حتى أضحت تلك الأحجار تتساقط بغزارة على نافذة غرفة نومه حتى هشَّمتها تهشيمًا، فدخلت أسراب الطير إلى غرفته، وأخذت تحوم فوق فراشه، ثم راحت تقذفه بحجارة أغلظ ذات بأس شديد، حتى سالت

الدماء من رأسه. ولمّا أخبر أحد مستشاريه بتلك الرؤية، أشار عليه بأن يأمر بإدخال ذلك الرجل إلى السجن فورًا، وأخبره تأويلها، بأن ذلك الرجل إن مات فسيخرج من صلبه أبناء يصارعون الملك، فيُردونه صريعًا. فأمر الملك بإنزاله عن المصلب، وإيداعه السجن؟

سأل حابيس: **وهل ذلك الرجل الذي تحكي عنه هو أنت؟!**

أجاب الحكيم ها تشَفِد: **نعم، بالضبط.**

قال حابيس: **ولكن ماذا كانت تهمتكَ التي تستحق عليها ذلك العقاب الأليم؟**

فأجابه الشيخ مبتسمًا: في الواقع، لم تكن هناك تهمة سوى أنني كنت أدافع عن رجل إسرائيلي من أهلي، فقلتُ للملك أتريد أن تقتل رجلًا لأنه يقول لكَ ربي الله؟ ورفضت السجود للملك وامتنعتُ عن تقديم القرابين للآلهة، فكان عقابي أن أصلب هكذا حتى تأكل الطير من رأسي. وكان الناس يمرون بي مصبحين، وينظرون إليَّ مستهزئين، في حين لا حول لي ولا قوة، واستمر صلبي أيامًا طويلة. وكلما رآني البعض جعلوا يتقاذفونني بالحجارة حتى شاء الرب أن أدخل السجن لأنجو من ذلك العذاب المشين.

عقب حابيس مستطردًا: وإنه لشر عذاب، إنني عرفتُ أن الإسرائيليين يؤمنون بإله إبرام، ويقولون إنه إله واحد خالق عظيم، وأنه رب السماوات العلا ورب الأرض والنيل ورب العرش العظيم، وإنني لما سمعت بذلك الكلام استحسنته، فإنني لطالما كنت أمقت عبادة إله تلك المدينة السابق بعل الشرير. وإني علمت أن آبائي قد مقتوا عبادة ست في أرض كيميت أيضًا، ونادوا بعبادة الإله الواحد، إله أرض القبط، وهو الذي أعلى، وهو الذي فوق كل شيء، وهو المطّلع على كل شيء، وأنه رب الأرباب، وملك الملوك، وأنه

رب الملك حورس العادل، ذي رأس الصقر- رمز القوة، ونور الشمس، هازم الظلام- والابن البار لأبيه أوزوريس، رمز الخير على الأرض، والمنتقم له من عمه ست الملعون، بعد أن ساعدته أمه إيزيس- رمز الوفاء- على هزيمته، وأن إلهنا الواحد هو رب حور- رمز الرحمة والعدل- وهو رب حابي، ملك النيل العظيم، الذي وهب لنا الحياة، وأنه رب جب، ملك الوادي الخصيب، ورب نوت، ملكة السماء، التى تحوّطنا في أحضانها الدافئة، وهو رب آبائنا وأجدادنا أجمعين، لكنني لا أعلم بذلك الإله الذي تعبدون، وما أعرفه أنه إله رحيم لا يرى، قوي عزيز، لا يحب الظلم ولا يرضى به، وهو منتقم جبار، وقد انتقم من الظالمين في عهد صاحب السفينة الناجية من الطوفان، وأن بطشه بالمفسدين لشديد، ورحمته بالصالحين وسعت كل شيء.

قال الشيخ: **وإني لعلى علم من لدن حكيم عليم، بأن الخالق سينتقم من ذلك الملك الجبار قريبًا، عليك بالصبر، يا بني، عليك بالصبر.**

قضى حابيس في السجن شهورًا عديدة، وكان طيلة تلك الفترة يتقرب إلى كل السجناء، ويتودد إليهم، مصبرًا إياهم على الظلم، مؤكدًا لهم على ضرورة التمسك بالأمل في الخلاص، وقد بات جميع نزلاء السجن يعرفونه، ويحكون عن بطولته في الوقوف في وجه الحاكم الظالم، فذاع صيته في كل سراديب السجن، وأصبح حديث ألسنة الجميع، حتى أن الإسرائيليين والأقباط على حد سواء صاروا يعظمون قدره ويعتبرونه مثالًا يحتذى به في القيادة. في أوقات مختلفة، كان حابيس يجتمع بالعشرات من المساجين، فيلتفون حوله، في حين يوجه حديثه إلى المذنبين منهم، فيعرفهم الصواب، ويحثهم على الصلاح. كما كان يتحدث إلى معتقلي الرأي السياسيين المضطهدين، فيقول لهم إن السجن هو قبر الأحياء، وبيت الأحزان، لكنه كذلك دار الابتلاء، وملازمة الإخوان

الصديقين، ومكان للصداقة الصادقة، الخالصة من أي أحقاد.

كان حابيس يستمع إلى وعظ الشيخ له، الذي لم ينفك يقول له إنه من الخواص المخلصين، وإن الرب يبتلي الخاصة أكثر من العوام، وكان يحدثه- دومًا- عن إله آبائه وأجداده الأولين. كان يستميله حديث الشيخ، فينصت إليه في وقار، مُشِيدًا بحكمته وبلاغته، فكان يردد كلماته على مسامع المسجونين، حتى آمن له الكثير، فكان كلما آمن له رجل تظهر براءته، وينفك قيده، فيخرج من السجن. حتى صار الجميع يعتقد ببركاته، وقدرته على تحريرهم، فأضحى يزداد كل يوم عدد المؤمنين بوعده؛ كي يتسنى لهم الخروج من السجن. ومع الوقت، تضاءل عدد المعتقلين، ولم يبق لجوار حابيس سوى القليل، ورغم ذلك لم يعتقد حابيس بأنه السبب في نجاة الكثير، بل كان يرد الفضل لذلك الشيخ الغامض، الذي بات أثرًا بعد عين. حتى كان يوم من الأيام، نادى عليه ذلك الشيخ الإسرائيلي، وأخبره أنه يريد أن يتحدث إليه في أمر عظيم.

قال الشيخ الإسرائيلي: "**اسمعني، يا بني، إنني رأيتُ لك رؤيا عظيمة، وإنكَ- إن شاء الله- لمن الناجين.**

قال حابيس: أخبرني إذن بما رأيتَ، أيها الحكيم.

قال الشيخ: **"لقد رأيتكَ محمولًا على جناح ملاك عظيم.. وكان يحلق بك فوق بحار عظيمة، وكنت أقفُ على قارب في وسط البحر وفي يدي شباك قوية، أنظر إليك في فرح وسعادة.. فرميتُ بالشباك في البحر.. ثم رفعتها فأخرجت سمكًا كثيرًا.. فأخذتُ سمكتيْن ورفعتهما عاليًا في السماء، فإذا بالملاك العظيم الذي يحملك ينخفض بجناحيه ويطير تجاهي، حتى صار يحلق فوق مستوى البحر مباشرة، ثم اقترب مني بشدة، حتى وجدتكَ تمد يديك لتلتقط السمكتيْن من يدي، فأخذتَهما، وصرت تدعو لي وتشكرني كثيرًا.**

ثم طار بكَ الملاك بعيدًا بعيدًا في الآفاق، حتى اختفى أثركَ في السماء تمامً.

سأل حابيس: أخبرني، أيها الشيخ الحكيم، ما تفسيركَ لتلك الرؤيا؟

أجاب الشيخ: **إن الرب قد أذن لكَ بالنجاة من السجن، وقد أوحى لي أن أساعدكَ على الخروج من هنا.**

قال حابيس: هل تظن أن الملك سوف يصدر أمرًا بالعفو عني؟

رد الشيخ: **لا، لن يحدث ذلك أبدًا، فإن الملك لا يمكن له الإفراج عنكَ، لأن ذلك سوف يعظم شأنك بين الناس، وسيلتف حولك العوام ليرفعوك على الأعناق ويعتبروك بطلا لهم. وذلك ما يخشاه الملك ولا يريد له أن يحدث.**

قال حابيس: **إذن أخبرني، أيها الحكيم، كيف سأنجو من هنا؟**

رد الشيخ: إن الرب يأمرني أن أساعدكَ على الهرب، وإنك سوف تنجح في ذلك. لكن عليك ألا تبقى في هذه المدينة، ويجب أن تفر بعيدًا حتى الجنوب إلى مدينة طيبة الخالدة. وهناك سوف يكون لكَ شأنٌ عظيمٌ بأمر يهوه العظيم.

قال حابيس: **ماذا تقول، أيها الشيخ؟ أتريدنني أن أهرب من هذا السجن الموصد المحكم الغلق شديد الحراسة؟ كيف يعقل ذلك؟ إنه من المستحيلات.**

قال الشيخ: يا بني، لا تقنط من رحمة الله، إنه لا ييأس من روح الرب إلا القوم الكافرين، إنني على يقين بأنكَ على قدر كبير من الإيمان، لكن أخبرني- أولًا- هل تثق في قدرة الإله على إخراجكَ من هنا؟

أجاب حابيس: **والله إنه لعليم بما في الصدور. الإله قادر على كل شيء، ولا راد لكلمته وقضائه، وإنه إن شاء أمرًا قال له كن فيكون.**

قال الشيخ: إذن عليك وقبل كل شيء أن تؤمن بإلهنا وإله آبائي إبرام وإيزاك وإسرائيل إلهًا واحدًا ولا شريك له ولا منازع له على ملكه ولا منافس له على حكمه، وبعدها سأخبركَ كيفية الهرب.

قال حابيس: **إن كان الأمر كذلك، فإني آمنتُ بإلهكَ وإله آبائك أجمعين إلهًا واحدًا صمدًا ربًّا حقًّا ولا إله سواه.**

قال الحكيم ها تْشَبِد: "**الآن، وقد انفك أول أصفادك. فإني سأخبرك كيف لك أن تهرب من هنا. اسمعني جيدًا، وانتبه لكل كلمة مما سأقول، لكن أولًا، وقبل أي شيء، ضع هذه الشَّبِريا فوق صدركَ، إنها قلادة عهدٍ من أول إسرائيل إلى إسرائيل الآخِر שבירייא.**

لم يستوضح حابيس معناها، لكنه بدا مهتمًّا لما يقوله.

ثم استطرد الحكيم الإسرائيلي قائلًا:

- **ولتأخذ قلنسوتي، غطاء رأسي هذا. ولتضعه فوق رأسك. فإنه لا يجوز ذكر اسم الرب على فم من كان رأسه مكشوفًا، ثم تلبس هذا الخاتم في إصبعك. وإني لمعلمكَ كلمات مما علمنيها آبائي وأجدادي، فإن ذكرتها فوق هذه القلادة، فسوف تحيطكَ هالة عظيمة تخفي أثركَ عن العيون، ولن يتمكن أحد من الحراس أن يراكَ أبدًا ببركة هذا الدعاء، ولكن اعلم، عليك أن تكون واثق تمام الثقة ومؤمن تمام الإيمان في قلبك بأن هذا الدعاء سينجيكَ، فيحجب أعين الحراسِ عنكَ، هذا شرط الاستجابة.**

الجزء الثالث

طيبة ١٥٧٣ ق.م

טיבה
ב" קפ"ח

(1)

جاء أحد الحراس عند باب السرداب الذي به حابيس، وصاح بصوت مرتفع: **أيها المساجين، إن رئيس السجن جاء ليطلع على مجريات الأمور داخل السجن. ولذا، فإنني أدعوكم إلى التزام الهدوء حتى تنتهي الزيارة بأمان.**

في تلك الأثناء، غمز الشيخ بطرف عينه إلى حابيس، في إشارة منه على بدء الاستعداد للهرب، حسب الخطة المتفق عليها فيما بينهما مسبقًا. نزل رئيس السجن إلى قبو السجن، وأخذ يتفقد الغرف، كلًّا على حِدَتها، ثم أمر بتفتيش المساجين؛ للتأكد من استتباب الأمن واستقرار الأمور بداخل الزنازين، حتى وصل إلى عنبر حابيس. أشار رئيس السجن عليه، ففتح الحراس باب الحبس الحديدي، ودخل رئيس السجن إلى الغرفة، ووقف أمام حابيس، فأمره بالنهوض، فنهض حابيس على مهل، ثم قال له رئيس السجن: **لقد وصلتني بعض التقارير التي تشير إلى تزعمك حملة للتمرد داخل السجن، فما ردُّك على تلك الادعاءات؟** نظر إليه حابيس في ثقة، وقال: **أما وإن كانت قد وصلتك تلك الأخبار، فاعلم أنها غير صحيحة. إنني لا أرغب في إحداث تمرد داخل السجن كما تقول. ولكنني أقوم بحملة وعي لمسلوبي الحرية لتعريفهم بحقوقهم- كمسجونين- التي يجب أن يحصلوا عليها. وإن هذه الحقوق كما تعلم- يا سيدي- فإنها حقوق مشروعة تنص عليها القوانين، ولا خلاف على ذلك. كل ما هنالك أنني أرغب في تطبيق تلك القوانين- الموضوعة على حائط قبو السجن- عليهم جميعًا دون تمييز، وإن هذا ليس فضلًا بل أمرًا كما تسمح به قوانين السجن.**

انفعل رئيس السجن، وغضب غضبًا شديدًا، فصاح في وجه حابيس قائلًا: **وما تلك الحقوق التي تنوي الحصول عليها إذن؟** فأسهب حابيس، في كبرياء وشموخ، قائلًا له:

- إن من حق المسجونين رؤية أهليهم وذويهم في يوم أو يومين بالشهر على أقل تقدير، وإن هذا الطلب ليس بمخالف لقوانين إدارة السجن. وما كنتُ لأطالب بأمور مخالِفة للقوانين والأحكام، إن ما أطالب به هو تحقيق العدل والمساواة على الجميع داخل السجن وخارجه، وإعطاء كل ذي حق حقه، ومن ضمنها حقوق السجناء، والتي تكفلها لهم القوانين والتشريعات التي تنص على أن من حق السجين الجنائي أوالمعتقل السياسي رؤية أهله من مرة إلى مرتين شهريًّا. أمّا فيما يتعلق بالطعام، فإن السجناء يشكون فساد الأطعمة المقدمة لهم. ولقد أصيب في وقت سابق أحد المساجين بحمى شديدة وسعال حاد. وتعنتت إدارة السجن في عرضه على الحكيم المختص لتوفير العلاج المناسب له حتى تدخلت إدارة السجن أخيراً بعد أن تدهورت حالته لخشيتها من تفشي العدوى بين السجناء، لكن ذلك كان بعد فوات الأوان. لقد انتقلت عدوى المرض إلى عدة أشخاص، فيما قضى سجينان نحبهما. وفي اللحظة غير المناسبة، أمرت إدارة السجن بعزل المصابين وتوفير العلاج لهم. وإن كل ما نطلبه هو التحقيق في ذلك الإهمال بحق المساجين، فإن كان ذلك التقصير متعمدًا من قبل الحراس من دون أوامر عليا فعليك محاسبتهم. أما وإن كان الحراس ينفذون أوامر عليا تفرض عليهم تعمد الإهمال، فإنني أتهمكَ -أنت- شخصيًّا بتبني سياسة القتل البطيء بحق السجناء.

لما انتهى حابيس من كلامه، جن جنون رئيس السجن، وأمر بتوقيع

عقوبة الجلد عليه أمام المساجين، ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه التمرد على سياسات السجن وإدارته. أمر بإخراج حابيس خارج محبسه، فأخرجه الحراس فورًا، وأخلعوه ملابسه كلها، فأبقوه عاريًا؛ لإهدار هيبته، ثم انهالوا عليه ضربًا بالسياط، لكن حابيس كان صامدًا صلبًا، فلم ينبس ببنت شفة، رغم أنه كان يتألم ألمًا فظيعًا، طمعًا منه في ألا تتحقق لرئيس السجن غايته في بث الرهبة والخوف في صدور السجناء. حتى انتهى الحراس، بعد أن جلدوه ثلاثين جلدة، وأمر رئيس السجن بإعادته مجددًا إلى محبسه، وانصرف.

بعد لحظات، عاد الحارس الذي جَلَدَ حابيس، وقد كان قبطيًّا، فتعاطف معه، ورثى لحاله، فطلب من حابيس أن يستغفر له ربه عما فعل به، وأقسم له أنه ما كان لينفذ أوامر قائده إلّا خوفًا على حياته من الهلاك. فأخبره حابيس بأنه لا يُسأل عما فعل، وقد أخبره بأنه لا يأبه لتلك الوسائل الخسيسة المتبعة في تعذيبه، وأنه رغم ذلك لن يرضخ أبدًا لتلك السياسات القذرة التي تهدف لإرغامه على السكوت عن المطالبه بحقوق المساجين. ثم طلب حابيس من هذا الحارس أن يفتح له باب السجن ليتمكن من الذهاب إلى دورة المياه؛ ليقضي حاجته، فوافق الحارس فورًا، وفتح له.

خرج حابيس من المحبس، وربط الحارس يديه بوثاق من الخلف، ثم أوصله حتى دورة المياه. عند الباب طلب منه حابيس أن يفك قيده ليتمكن من قضاء حاجته، فامتثل الحارس الطيب لرغبته، وحل عقدة القيد، فشكره حابيس كثيرًا، وأخبره أن الرب قد غفر له؛ لأنه لم يرضَ في قلبه بالظلم. ولج حابيس إلى دورة المياه، فيما انشغل عنه الحارس، الذي ظل واقفًا لبعض الوقت خلف الباب ينتظره، لمّا سمع أحد الحراس ينادي عليه، ويأمره بالذهاب في إحدى المأموريات، فانصرف الحارس من أمام الباب، في حين

كُلف أحد الحراس الآخرين بانتظار خروج حابيس بدلًا منه. على الفور، وضع حابيس قلنسوة الشيخ فوق رأسه، ثم دفع بالخاتم في إصبعه، وأضاء صدره بقلادته المباركة، ثم راح يردد عليها تلك الكلمات التي حفظها من الشيخ الإسرائيلي عن ظهر قلب، حتى انتهى بسؤال الإله أن يحجبه ويخفيه عن نظر الحراس. فتح حابيس الباب، وخرج واثقًا دون أن يلتف، فلم يجد أحدًا واقفًا بالخارج. سار في الممر الضيق داخل قبو السجن، وكان كلما مر بإحدى الشعلات المضاءة على جانبي الممر تنطفئ، واحدة تلو الأخرى. ظل يعبر الممر دون أن يراه أحد، ودونما الالتفات إلى الوراء مطلقًا، كما أخبره الشيخ. حتى وصل إلى الباب المؤدي إلى أعلى القبو، فوجد عليه حارسًا مدججًا بأسلحته، لكن الحارس كان يجلس على مقعد صغير، مطأطئًا رأسه كأنه مغشي عليه، فوقف حابيس على رأسه، ثم مد يده في جيب الحارس، وتناول المفتاح، دون أدنى شعور من الحارس به. فتح حابيس باب القبو الضخم، وركض نحوالسلالم العالية المؤدية الى المخرج، فصعدها، حتى وصل إلى باب الخروج الأخير، حيث وجده مواربًا قليلًا، فدفعه، فانفتح له الباب على مصراعيه. ثم أخذ بالركض مسرعًا إلى بهو المعبد، حيث وجده مزدحمًا بالعديد من الناس الذين جاؤوا لأداء طقوسهم الدينية المعتادة.

شعر حابيس بالارتياح لعدم ملاحظة أحد له، وكان يمضي في طريقه مخترقًا حشود المتعبدين بيقين دون قلق، حتى اعتقد أن روحه قد رحلت عن جسده الأرضي، وما ذلك إلا طيفه يسير بين الناس في خفة رائعة. لم يكن حابيس يلتفت إلى أحد، بل كان قلبه مطمئنًا بنصر الإله له، وعزم على المضي في طريقه دون تردد، محاولًا- مع ذلك- قمع وساوس الشيطان بداخله الذي كان يحاول بين الفينة والأخرى تثبيط عزيمته، وهزيمة قوته الداخلية الروحية التي استمدها من كلمات الحكيم المباركة. اخترق حابيس باب المعبد، واستنشق نسائم الحرية

التي دبت فيه الروح من جديد. في تلك اللحظة الفارقة، تيقن حابيس من أن خطته قد نجحت بكل براعة، وأن عليه- الآن- أن يسرع لتنفيذ باقي الخطة، قبل أن يكتشف الحراس أمر هروبه، ويشرعون بالبحث عنه في كل مكان.

أسرع حابيس إلى داره، وأخرج من صندوق ملابسه بعض الثياب الجديدة، فاستبدلها بملابس السجن القديمة، وخرج على الفور من الدار، دون أن تلاحظه السيدة نانيس. كان قد وجد جواده الأمين في مكانه المعهود، في الأسطبل خارج الدار، ففكَّ مربط الفرس، وصعد على صهوته، ثم انطلق به مسرعًا نحو الصحراء.

كانت الخطة تنص على ضرورة شراء حابيس لبعض الثياب الخاصة بكهنة المعبد، وإخفاء هويته عن طريق تقمص شخصية كاهن معبد، وتغيير شكله تمامًا حتى يصبح مشابهًا لشكل الكهنة، لذلك فقد حلق حابيس لحيته، التي نمت خلال فترة مكوثه في السجن. وبالفعل، فبينما كان حابيس بداخل داره، قصَّ شعرَي لحيته ورأسه الطويلين؛ باستخدام المقص الخشبي، ثم أحضر الموسى الحديدي، وشذَّب شاربه، ونعَّم ذقنه، حتى صارت ناعمة تمامًا كذقون الكهنة، ثم جاء بالمكحلة، وطفق يمررها حول جفنيْه؛ كي يبدو مثل كهنة المعبد المألوفين. بعدها تغير شكل حابيس تمامًا، وصار من المستحيل التفريق بينه وبين أحد رجال الدين الموقرين. لكن ما زال عليه ارتداء ملابس الكهنة كي لا يكتشف أحد أمره، ولم يكن حابيس يملك ملابس كهذه، وفي الوقت نفسه لا يمكنه الذهاب إلى السوق والظهور إلى العامة، في حين كان أمر هروبه قد انكشف، وأضحى الجنود يبحثون عنه في الشوارع والأسواق؛ لذا قرر الذهاب إلى سارة، وربما يكون بإمكانها اقتناء تلك الملابس له.

بالفعل، انطلق حابيس على ظهر جواده، مخترقًا كثبان الصحراء الرملية

الساخنة، إلى البادية، عند أطراف أواريس، حيث خيام القوم الإسرائيليين هناك. وصل حابيس إلى دار سارة، وبعد أن ربط فرسه بنخلة، بعيدًا عن الدار، خلع غطاء رأسه، ثم طرق الباب. فتحت له أم سارة، فألقى السلام عليها. صرخت المرأة حين رأته، فدفعها حابيس إلى الداخل، وردَّ الباب، ثم أقسم عليها أن تهدأ وتخفض صوتها، حتى لا ينفضح أمره، ففهمت المراة أمر هروبه، وذهبت لتبحث عن سارة، في حين ظل حابيس منتظرًا داخل الدار، وقد دب الخوف في صدره، يخشى أن يأتي أحد ويراه، وربما يأتي الجنود إلى منازل الإسرائيليين؛ بحثًا عنه، لذلك اضطر حابيس للاختباء خلف إحدى الستائر بالدار.

بعد لحظات، عادت المرأة العجوز، وخلفها سارة، التي حين رأته، اندفعت نحوه في شوق، وأمسكت بيده، وقد غمرت السعادة وجهها، فاحتال مشرقًا نضرًا لرؤيته. أمسك حابيس بيدها، ضاغطًا عليها بحنو، وقد شدها إلى غرفتها، ثم همس في أذنيها قائلًا: **سارة، إن جنود الملك الآن يبحثون عني في كل مكان. ليس أمامي المزيد من الوقت، سأطلب منك طلبًا مهمًّا. عليك بالإسراع في تنفيذه.** أسرعت سارة تسأله عن طلبه، فأخبرها قائلًا: **سوف تذهبين الآن وبسرعة إلى السوق، ثم تشترين ملابس كهنة جديدة وقيّمة، وشعرًامستعارًا، وتختارين لكِ أفضل الثياب وأغلاها كملابس النساء من علية المدينة، ثم تشترين بعض الطعام ليكون مؤونةً، وزادًا وقوتًا في السفر.**

تعجبت سارة من حديثه، فقاطعته في دهشة، متسائلةً: **حابيس، أخبرني ماذا تنوي أن تفعل؟** أجابها حابيس، وهو يدس نقودًا معدنية في يدها قائلًا: **سارة، أرجوكِ ليس هناك وقت. إن الجنود يقلبون المدينة بحثًا عني، سأنتظركِ عند النخلة حيث المكان الذي تواعدنا عنده من قبل. اذهبي الآن بسرعة ولا تتأخري.**

عاد حابيس إلى جواده الرابض عند الشجرة، وهم بركوبه، وانطلق متجهًا نحو نخلة اللقاء الأول، ثم نزل عن فرسه، وأطعمه تبنًا طازجًا، ثم تناول رشفة ماء من الإربة التي يحملها معه، وما نسي أن يعاود ارتداء قلنسوته، وقلادته حسبما أوصاه الحكيم، خشية أن يراه الجنود الباحثون عنه في شتى أركان المدينة، حتى غلبه النوم في الظل تحت النخلة. وبعد مدة لم يدركها، استيقظ حابيس فزعًا من نومه، عندما سمع صوت سارة تنادي عليه عند النخلة، فما كانت لتشعر بوجوده وهو يرتدي القلادة المباركة، لذا أسرع حابيس بخلعهما، في حين كان مستلقيًا خلف النخلة، فنادى عليها. نظرت سارة خلفها، فوجدته يظهر في المكان الذي كان فارغًا منذ وهلة، فدهشت سارة أيّما دهشة، لم يفسر حابيس لها الأمر، بل أسرع ينظر فيما حملته معها، فوجدها قد اشترت الملابس والطعام، بالضبط كما أخبرها.

أمرها حابيس بأن تسرع بارتداء الملابس الجديدة على الفور، لكن سارة عارضت ذلك قائلةً: **أنا لا أفهم، لماذا تريدنني أن أرتدي هذه الملابس الغريبة عني؟**

قال حابيس: **سارة، إنني أرغب بالزواج منك، فهل توافقين؟**

سألت سارة: ماذا تقول؟ هل أصابكَ الجنون؟ هل تعي ما تقوله جيدًا؟ حابيس، إنني لم أفكر في أمرًا كهذا مطلقًا. ليس لأنني لا أرغب بك، بل لأنني إسرائيلية على دين آبائي الذي يمنعني عن الزواج برجل على دين آخر، أرجوكَ- يا حابيس- تفهَّم ذلك.

قال حابيس: "سارة، إنكِ سوف تأتين معي، دون تردد، وسأتزوج بكِ، سنهرب معًا إلى مدينة منف، وهناك يمكننا العيش بحرية، دون خوف أو قلق. سنتنكر في هيئة رجل دين وزوجته، ولن يكشف أحد أمرنا، عليك ألا تفكري

كثيرًا في الأمر، يا عزيزتي، لقد آمنتُ بدين آبائكِ، وإنني أنفذ وصية حكيم إسرئيلي كان معي بالسجن، وقد حدثته عنكِ كثيرًا، فنصحني بالزواج منكِ، وقال لي ستكون لكَ زوجة من بني إسرائيل عونًا في غربتك، وسندًا في رحلتك. أقسم لكِ يا سارة، هذا ما حدث، وإني لمُغرمٌ بكِ وأحبك حبًّا جمًّا صادقًا، وأُشهد الخالق بأنني سأحافظ عليك وأرعاكِ ما دمت حيًّا.

نظرت إليه سارة في تعجبٍ مما قال، وصممت طويلًا.

(2)

في الشهر الثالث من فصل آخت[1]، كان حابيس قد عزم أمره، وقرر الخروج من مدينة أواريس، التي أمضى فيها شبابه وصباه. لقد كانت- تلك اللحظة التي يخرج فيها من مدينته هاربًا- لحظةً فارقة، ذات وطأة شديدة القسوة عليه. فلقد كان يمتلأ حبًّا لأرض جوش، ولولا أن بقاءه فيها لم يعد ممكنًا، ما اعتزم الخروج منها أبدًا بتلك الطريقة. في الوقت نفسه، كانت سارة تشعر بالحزن الشديد لمغادرتها المدينة، ورحيلها بعيدًا عن أمها، وأهلها، الذين عاشت وترعرت بينهم، لكنهما- الآن- قد وجدا نفسيْهما احتالا هاربيْن من بطش الملك، بينما يضلان السبيل، ويجهلان مآلات قرارهما غير المرتب له، ولا يعرفان إلى أين سينتهي بهما المطاف.

كان سارة تلتفت خلفها كثيرًا، في حين كانت تركب خلف حابيس، على ظهر جواده الرشيق. شد حابيس لجام فرسه، فأخذ يعدو عَدوًا في الصحراء، متجهًا جنوبًا، حيث حد أواريس الجنوبي، وكان غرضه من ذلك هو البعد قدر الإمكان عن المدينة؛ لأن جنود الملك كانوا، في تلك الأثناء، يجاهدون بحثًا عنه في كل مداخل المدينة ومخارجها؛ لذا فإن الصحراء بدت له السبيل الأكثر أمانًا، لكن رمالها الصفراء، الحارقة وقت الظهيرة، وأشعة الشمس الحامية، تركت عليهما آثار التعب والإرهاق. بعد ساعة من العدو السريع، رأى حابيس واحة صغيرة بوادٍ عند سفح إحدى الهضاب، فقرر التوقف عندها، للراحة، وإمداد الجسد باليسير من الماء، وإطعام الفرس، كي يتمكنا بعدها من استكمال رحلتهما الشاقة.

(١) وتعني أفق الشمس أو بزوغه بالهيروغليفية، وهو فصل الفيضان العظيم، وفيه تُهيَّأ الأرض للزراعة والبذر.

نزل حابيس وسارة عن الفرس، في حين ربطه حابيس في جزع نخلة، وهمَّ بإنزال الأمتعة، فأخرج منها قربة الماء، فشربا وارتويا، وأسقيا فرسهما المجهد من حدة الشمس. ثم أخذا قسطًا من الراحة أسفل النخلة التي أظلت عليهما. بينما هما كذلك، إذ رفعت سارة رأسها إلى السماء، وصاحت في حابيس قائلةً: **حابيس، انظر فوقك.. لترى ماذا وجدت؟** نظر حابيس عاليًا، فوجد نخلتهما الشاهقة، يتداعى رطب البلح الناضجة من سعفها، فقالت له سارة: **يا إلهي إنه موسم نضوجها، انظر كم هي حمراء طيبة، إنها إشارة من الرب بأنه سوف يبارك رحلتنا. لقد أخبرني والدي قبل وفاته بأن تلك الرطب تذهب بالظمأ وتروي البدن وتشفي الروح. هلم بنا نسقط الكثير منها، ليكون لنا زادًا وعونا في سفرنا.** جعل حابيس يهز جزع النخلة بقوة، فأخذت الحبات الحمراء تتساقط فوق رأسيهما، حتى غمرتهما فرحة عارمة، فطفقا يأكلان منها، ويطعمان بها الفرس، حتى اكتنزت البطنان، وقرَّت الأعين، ثم جمعا منها الكثير، فحمّلاه معهما، ثم قررا استكمال السعي، إلى وجهة لا يعلمانها بعد.

كان حابيس يحمل معه خريطة بالية لإقليم أرض جوش، وبما أنه كان يعمل في الجيش، فقد تسنى له الحصول على أدق الخرائط لجغرافية البلاد، فأخرجها من جعبته، وأخذ يمعن النظر فيها، ثم قال بحماس مفرط: **انظري، يا سارة، إنه يتوجب علينا السير جهة الجنوب غرب، حتى نصل إلى هذه الجزيرة الصغيرة الواقعة على قناة سيزوستوريس جنوب أرض جوش. ومن ثم، سنتمكن من إيجاد قارب يوصلنا إلى هذه المدينة الكبيرة التي تسمى بوباسطس[1] والتي تقع- هنا- على الضفة الشرقية لفرع بوبسطة، هناك سنجد- بالطبع- الكثير من المراكب الخشبية الضخمة، والتي يمكننا السفر**

(١) مدينة الزقازيق حاليًا، عاصمة محافظة الشرقية.

عبرها إلى مدينة أون[1] ومنها يمكننا عبور الضفة الأخرى للنيل حتى نصل إلى مدينة منف، عاصمة البلاد السابقة. ثم أضاف مشيرًا في الخريطة: **إننا الآن نقع عند هذه النقطة بالتحديد. وعليه، فإننا سنتجه غربًا في رحلة طويلة، وربما تكون شاقة، حتى نصل إلى مدينة بوبسطة الكبيرة.**

أجابته سارة قائلةً: **لكن سيكون هناك- حتمًا- جنودٌ وحراسٌ كثر، وربما قد وصل الخبر إلى تلك المدينة المحصنة. ومحتمل أن يكون دخولنا إليها- بهذه السرعة- خطرًا داهمًا.** فطمأنها حابيس قائلًا: **نعم ولكن لا تقلقي، لن يتمكن أحد من اكتشاف أمرنا، لأننا قد تنكرنا في شخصيات أخرى. وستساعدنا هذه الملابس التي نرتديها على تقمص شخصية كاهن عظيم وزوجته المرموقة، وبهذه الطريقة سيسارع الكثيرون في مساعدتنا في إيجاد إحدى الرحلات النهرية إلى مدينة أون ذات المسلات الشاهقة.. لكن الآن عليك أن تحذري تمامًا التحدث بلغتك التقليدية، وتذكري دومًا أن تخاطبينني بإسمي الجديد، حتى لا يشك أحد في أمرنا.** فقاطعته سارة ضاحكةً: **وما ذلك الاسم الجديد يا ترى؟** فأجابها حابيس قائلًا: **إنه حابيس خادم الإله رع الأمين، وأنتِ زوجتي المخلصة تاوسرت.**

- يا لها من أسماء لطيفة حقًّا. الآن، لقد صرنا من نبلاء القوم ولن يكشف سرنا أحد. قالت سارة ذلك، بينما تضحك في مزحة داعبة.

عندما حل المساء، كانا حابيس وسارة قد وصلا إلى الجزيرة الواقعة جنوبًا على قناة سيزوستوريس. عندها قابلا رجلًا ريفيًّا فصيحًا، فحياهما تحية عظيمة في إجلال وتوقير، وقد بدا عليه أنه خائفٌ منهما، رغم أنهما من كانا- في واقع الأمر- يتوجسان خيفةً منه. طلبا منه أن يمكثا بكوخه الريفي المتواضع على الأرض المزروعة حتى الصباح، فما كان على ذلك الفلاح الطيب

(١) مدينة هليوبوليس التاريخية، والتي تقع حاليًا في مدينة عين شمس بمحافظة القاهرة.

إلا أن وافق في التو واللحظة، وقضيا في داره تلك الليلة، ثم استأنفا السير عندما تنفس الصباح، وقد شكرا ذلك الفلاح على كرمه وحسن ضيافته، وقررا ترك الفرس الأدهم له كتعبير عن الشكر والامتنان.

حملا الزوجان أمتعتهما فوق الأعناق، ثم عبرا فرع النيل في قارب لا دفة له، بفضل الرياح التي كانت تهب من جهة الشرق، حتى وصلا إلى الضفة المقابلة من اليم. هناك وجدا قافلة متجهة إلى مدينة بوبسطة المحصنة. وقبل الظهيرة كانا قد وصلا إليها، فوجدا جدارًا مهيبًا شُيد لصد غزوات البدو البرابرة، وسحق ساكني الرمال، ولما رأيا حراس الحصن هنالك، تكوَّرا بين الحشائش خشية أن يراهما حارس برج المراقبة. ثم استأنفا السير حتى دخلا إلى قلب المدينة النابض، وهناك ساعدهما أحد التجار في العثور على إحدى القوافل النهرية المتجهة إلى مدينة أون، فاستقلا مركبًا خشبيًّا شراعيًّا كبيرًا، كان يحمل الكثير من العتاد من الأسلحة، والدواب، والغلال، لنقلها إلى أون الرائعة ذات العماد. كان على متنها الكثير من التجار الذين يعيشون في تلك المدينة، فيما كان أولئك التجار ينظرون إلى الزوجيْن في مهابة وتقديس، وقد تجمعوا حولهما ليحظوا بمباركتهما.

في زيه الكهنوتي الجديد، بدا حابيس كاهنًا ذا هيبة عظيمة، فراح البعض يطلب منه ثمة استشارات دينية، فكان حابيس يجيب عنهم بما عرف من علوم الدين، وبما تعلمه على يد السيدة نانيس من الطقوس الدينية القديمة المتوارثة؛ لذا أطلق عليه التجار اسم الكاهن المبارك، لما وجدوا فيه من توقير وإجلال للإله رع معبود مدينة أون الذي كانوا يتبعونه، فجعلوا يحملون إليه الطعام تعظيمًا لمكانته، وتكريمًا له، وتشريفًا لوجوده على متن قاربهم. وعند الفجر تقريبًا وصلا الرفيقان إلى العاصمة القديمة، وفيها قررا أن يمكثا عدة

أيام حتى يشاء لهما الرب استكمال رحلة المشاق إلى مدينة منف الرائعة، الوجهة الثانية المخطط لها في رحلتهما.

كانت مدينة أون مركز عبادة الإله رع، وكان حابيس على علمٍ عظيم بمعبود المدينة الطيبة، الذي كان يقدسه ويجلّه إجلالًا كبيرًا. كان السكان يسمونها بمدينة الشمس، وهي كذلك تسمى بذات العمدان؛ نظرًا إلى امتلائها بالمسلات الضخمة شاهقة الارتفاع. كانت أون عاصمة الإقليم الثالث عشر، من أقاليم مصر السفلى، فكان بها الكثير من المعابد الضخمة المشيدة من الصخور الطبيعية. أمّا رع- معبود المدينة الأوحد- فكان يرمز له في شكل رجل يعلو رأسه قرص الشمس. وجدا الزوجان المدينة مركزًا تجاريًّا، حضاريًّا، ثقافيًّا ودينيًّا عظيمًا، وطيلة فترة بقائهما بها، سمعا الأهالي يرددون أسطورة عظيمة، لا ينفكون يذكرونها بكل زقاق.

تحكي تلك الأسطورة عن الإله رع، الذي كان يلقب بأبي الآلهة، وقد خلق نفسه بنفسه، ثم استقر فوق العرش، ولما وجد نفسه وحيدًا في الكون، بدأ بخلق زوجيْن، هما الإله شو، إله الهواء، والإلهة تفنوت، إلهة الرطوبة والندى، ثم أنجب هذان الزوجان زوجيْن آخريْن هما الإله جب، إله الأرض، والإلهة نوت، إلهة السماء، واللذين كانا ملتصقيْن، ففصلهما إله الهواء، وفي أثناء التصاقهما أنجبا أربعة أبناء هم الآلهة أوزير، وست، وإيزيس، ونفتيس، وبذلك اكتمل التاسوع الإلهي لمدينة أون، ثم خلق الربُّ الواحد أتوم -رع- البشرَ من دموعه.

كان الناس يمجدون الإله رع دون غيره من الآلهة، فكانت المدينة مقرًّا للعلوم والحكمة، حيث كان بها جامعة عريقة، جذبت إليها العديد من راغبي العلم، وكان يدرس بجامعتها العديد من العلوم منها الحكمة، والفلسفة،

والتاريخ، والطب، والرياضيات، والدين، والفلك، بينما كان يطلق على كبير كهنتها اسم كبير العرافين المستبصرين، وهو لقب مرتبط بعلم الفلك. كان في مدخل المدينة مسلة عظيمة بناها الملك سنوسرت الأول قبل عدة أعوام، وقد تسنى لحابيس زيارة أون مرة واحدة من قبل، ما جعله يعلم عنها الكثير، أمّا سارة فكانت قد سمعت عنها الكثير مما حكاه لها أجدادها الإسرائيليون الذين جاؤوا إليها في زمن نبيهم يوسف.،

نزل الزوجان في ضيافة أحد التجار، الذين تعرفا عليه أثناء رحلتهما النهرية على متن القارب الشراعي الكبير. لقد كانا منهكين أيَّما إنهاك من آثار السفر، بينما لا يعلمان بعد كم سيبقيان بهذه المدينة، لكن سارة لم تكن لتخفي مشاعرها المغمورة بالارتياح للبقاء بمدينة أون. أمّا حابيس فكان مشغولًا بالترتيب لمحطتهما التالية؛ حيث لم يخطط البتة للمكوث في مدينة أون فترة طويلة؛ لما قد يمثله ذلك من خطر عليهما. كانت تمر لحظات طويلة يظل حابيس مطبق الفم شارد الذهن، وفي حين كانا يتناولان العشاء، سألته سارة عما يجول في خاطره، فقال لها: **أشعر بأنني قد أرهقتكِ بكثيرة الحل والترحال، لكن لا يمكن لنا البقاء هنا كثيراً من الوقت، يا حبيبتي، لا يزال الخطر قريبًا منا، من المؤكد أن خبر هروبنا قد ذيع حتى وصل إلى هنا، وأخشى أن نقع فريسة الاعتقال بأيدي جنود الملك المنتشرين في كل مكان، وإنني لحريص على تنفيذ وصية الحكيم الذي نصحني بالتوجه إلى مدينة منف.**

أجابته سارة بنبرة هادئة رقيقة: **صغيري، لا ترهق ذهنك بكثرة التفكير. إن الرب معنا وإنه راعينا وحامينا في هذه الغربة المؤلمة.** احتضنها حابي في حين يقول: **هل تشعرين بالأمان معي، يا سارة؟!** أسرعت سارة لتقول: **هل**

تشك في ذلك؟ اغتبط حابيس كثيرًا، فقبَّل جبينها، ثم عقّب قائلًا: **"وما رأيكِ في هذه المدينة؟** أجابته سارة قائلةً: **إن لها مكانة كبيرة في قلوبنا. فقد ولدت فيها إسْنات، تلك المرأة التي وهبها الملكُ زوجةً لنبي الرب يوسف، وهي قبطية مؤمنة، ابنة فوطي فارع، كاهن أون العظيم. تعرف، إن أون واحدة من المدن القبطية التي شارك الإسرائيليون في تشييد حصونها بالإضافة إلى مدن أخرى مثل فيثوم، تانيس، وأفاريس مدينتنا.**

عقب حابيس قائلًا: **لقد كانت أون ذات شأن عظيم في عهد سنوسرت العظيم. كانت مثالًا يستدعي الفخر لوحدة مملكة أرض القبط المهيبة. أتعلمين؟! إنها بُنيت على حافة الصحراء التي تراجعت حوالى ثلاثة أميال نحو الشرق.. نتيجة لارتفاع حوض النيل من طمي الفيضانات.**

لكن سارة لديها المزيد من العلم، فاستطردت قائلةً:

- لقد كان كهنة أون يخضعون مباشرةً ليوسف، الذي أصبح رئيسًا للوزراء بعد وفاة بوتيفار، عزيز أرض جوش، وكبير وزرائها الأسبق، كان رجلًا مخلصًا في عمله، وكان موضع ثقة لبي نون، يذكر آبائي أنه اشترى يوسف ورعاه في بلاط الحكم عندما كان صغيرًا، ولم يعامله معاملة العبيد، بل أوصى زوجته زليخة بالإحسان إليه، لما وجد فيه من الفطنة ورجاحة العقل. فترعرع يوسف في بلاط العزيز مدة أحد عشر عامًا إلى أن اشتد عوده، وصار شابًّا حسن الوجه حلو الكلام شجاعًا ذا علم من الكتاب. فكان لا يمضي يوم إلا ويزداد شغف زليخة الخائنة بيوسف، حتى أخذ نسوةٌ في المدينة يقولون إن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه، قد شغفها حبًّا، إنها لفي ضلال مبين. إلّا أن الفتى الإسرائيلي كان من المخلصين وأبى خيانة ربه الذي أواه ورعاه. ولمّا أيقن بوتيفار أن قميص يوسف قُدّ من دبر قال: تالله إنه لمن الصادقين. لكن زليخة

أصرت على المكر به لرفض يوسف الامتثال لأوامرها. حتى انصاع العزيز لها رغم ذلك. فلبث يوسف في السجن عشر سنين، ثم ندم بوتيفار على فعلته، وحزن من خيانة زوجته له، فاعتلت صحته، حتى توفي بعد خروج يوسف من السجن بقليل. فصار يوسف عزيزًا لأرض جوش خلفًا له. وعمل على إنقاذ البلاد من السنين العجاف، كما جعل الناس يهتدون إلى عبادة الرب الواحد، حتى صار القبط يمجِّدون يهوه، ويعظمون دين يوسف، مخلصهم من القحط، حيث أمر بتحصين هذه المدينة، وعظم مكانتها بين المدن، فأحبه أهل القبط حبًّا جمًّا حتى مات. فتنازع شيوخ قبائل الرعاة الآسيويين على حكم أرض جوش، ثم اغتصب الحكم ملكًا يكِن الحقد لدعوة يوسف، فصار يعيث في الأرض فسادًا، يذبِّح أطفالنا، ويستحي نساءنا، ويستعبد الأحرار في الأرض. ألا لعنة الله عليهم إلى يوم الدين.

فجأة، طرق أحدٌ البابَ، انفزعت سارة، فأسرع حابيس بارتداء ملابسه الكهنوتية، وذهب لفتح الباب. إذ به يجد أمامه التاجر القبطي الذي يقيمان في داره. تعجب حابيس لأمر ذلك التاجر الذي جاء ليسأل عليهما في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وظن أن أمرًا ما- يجول في رأسه- قد جاء من أجله. رحب به حابيس، ثم سأله عن سر زيارته المفاجئة. أخبره التاجر بأن زوجته تعاني ألمًا شديدًا بالبطن، يمنعها عن النوم، فأوصاه حابيس بغلي أوراق نبات حب العزيز، ثم تناوله دافئًا، كما أوصى بتناول زيت الحبة السوداء، ومغلي بذور الآنيسون، لكن التاجر أصر على اصطحابه إلى داره؛ لقراءة بعض التعاويذ والأناشيد الدينية على الزوجة المتوعكة في صحتها، حتى تذهب عنها آثار الشر الذي مكر بها، كما أعتقد التاجر.

قال التاجر لحابيس:**يكاد إبراء الجسد من علته يعتمد على مطاردة روح**

الشر، وإجبار تلك الروح على ترك الجسد باستخدام عزائم السحر، أكثر من الاعتماد على علاج الجسد نفسه.

كان التاجر يؤمن بقدرة تمائم السحر القوية على قهر الأرواح الشريرة، وذلك في رأيه أفضل العلاجات، وأنجعها. فرغب من حابيس في رقية تؤتي فعلها فورًا، وحسب ما ظن أنه لن يقدر على فعل ذلك سوى واحد من العرافين الكهنة المرتلين، الذين تخصصوا في معرفة كتب السحر القديمة، وقد اعتقد التاجر أن حابيس من أولئك الكهنة المشهود بكراماتهم، وما أكثرهم في المدينة، لكنه يفضل حابيس عن غيره؛ لما رأى منه على متن المركب النهرية. كان الكهنة يعتمدون على بث أفكارهم ومعتقداتهم في نفوس العامة، وإقناعهم بقوة أذى الأرواح الشريرة؛ ليتمكنوا من التسلط عليهم، والسيطرة على عقولهم، فيكون لهم- بذلك- نفوذ كبير حتى على الملوك والأمراء. لقد كان العوام يعتقدون أن الكاهن يبرئ ويشفي باستخدام السحر، وأن هناك ارتباطًا وثيقًا بين السحر والطب، لكن حابيس كان يعلم حقيقة الأمر، وهو أن الشفاء الحقيقي يأتي عبر المداواة بما اكتسبه الكهنة من العلوم الطبية، وليس من السحر الأسود، والخزعبلات الكثيرة الرائجة، كما كان يعتقد ذلك التاجر، في زمن اضمحلال انتشر فيه ثالوث الجهل، الفقر، والمرض بين الناس، واستشر فيه نفوذ الكهنة، وسلطة رجال المعبد، فصار الناس يمتثلون لأوامرهم، وينتهون عن نواهيهم، تمامًا كقطعان من الغنم لا تعقل؛ لذلك أراد حابيس توعية التاجر بأن قال له:

- إنه نوع آخر من السحر، لا علاقة له بالشياطين، أيها التاجر الطيب، ولا يتم من خلاله إلحاق الضرر والأذى بالآخرين. إنه السحر العلمي، الذي يسخر فيه الكاهنُ المادةَ لصالحه، فيتسنى له التلاعب بمشاعركم وعقولكم،

إنه السحر الذي يُخضِع الكاهنُ به الطبيعةَ بوسائل وطرق آلية وميكانيكية، مستغلًّا نظريات فيزيائية وكيميائية يعلمها دون غيره، فيمكنه تحويل الهواء إلى ماء، أو تحويل الماء إلى هواء إذا شاء، ويمكنه تطبيب المريض بأعشاب خاصة، أو إهلاك البدن بالسموم، وقد عُرف هذا النوع من التفاعلات السحرية بالسيمياء. لكن كهنة هذا الزمان لا يعملون كعلماء، بل كسحرة دجالين، محاولين إقناع الناس بقدرة سحرهم القوي على الشفاء. إنهم يعمدون إلى إخفاء تلك الأسرار، وحجبها عن عامة الناس، حتى لا ينافسهم فيها أحد، وكي يستأثروا بعقول الملوك والأمراء فيغدقون عليهم بالهدايا والعطايا الكثيرة، لأن الثراء هو غايتهم، ونشر الجهل عبر الخرافات هو أداتهم المثلى، للتربع على قمة الهرم، والواقع، أن كثيرًا منهم قد لجأ إلى طريقة سرية يحفظون بها علومهم حتى لا تندثر بعد موتهم، فاخترعوا الرموز، والطلاسم، والشفرات، والأرقام لتسجيل تلك العلوم، بعد أن علموها للخواص من صغار الكهنة. وما ذلك النذر التي تعتقد فيه إلّا دجلًا يريده لكم بعض الكهنة ليزعموا أنهم يملكون أن يدخلوا الرجل إلى العالم الآخر بسلام عند استقباله بعد موته. فتجد تلك الأفكار المرعبة سبيلًا إلى قلوب العوام، فيهرعون إلى تقديم العطايا والقرابين للآلهة. ولكنها في الواقع، تقع في أيدي الكهنة النافذين، فيختلسونها جميعًا، ويملؤون بها بطونهم، وهم بذلك ينصبون أنفسهم أوصياء على الدين، الذي يتحكمون به كيفما شاؤوا، ليبسطوا سلطتهم، ويفرضوا هيمنتهم على الدولة، حتى صاروا دولة داخل الدولة. اذهب، أيها التاجر الطيب، فأنت عبدٌ للإله المطَّلع، ولستَ عبدًا لكهنة المعبد المدلسين. عد، أيها الطيب إلى زوجتك، وأعطها مما وصفت لكَ، وسوف يبرئها الإله بمشيئته في الصباح. لكن عليك أن تثق- تمام الثقة- في قدرة الإله الخالق على الشفاء.

انصرف التاجر، وقد ارتسمت على وجهه علامات الاقتناع المشوبة

بالذهول مما سمعه لأول مرة في حياته، وجعل يشيد بعلم حابيس الفائق، مثنيًا على حكمته البالغة، فراح يُحدِّث عنه في المدينة كلها. أما الزوجان فطفقا يتعبدان بداخل الدار، وقررا اعتزال الناس، وعدم الاختلاط بهم، فما عادا يخرجان من دارهما إلّا لحاجة التزود بالطعام، وبقيا- هكذا- بالمدينة عدة شهور، حتى ذاع صيتهما، فارتأى حابيس أن الفرصة باتت سانحة لمغادرة المدينة، والارتحال جنوبًا، إلى مدينة منف، عند طلوع الشمس.

(3)

فجرًا، استعد الزوجان للرحيل، فهمّا مسرعيْن للحاق بالرَّكْب مع القافلة النهرية المتجهة إلى مدينة منف العظيمة. خرجا الزوجان على الفور، وتوجها صوب شط النهر، حيث وجدا- هناك- السفينة الشراعية الكبيرة ترسو في انتظارهما، وما إن قابلهما الركاب، حتى صاحوا منادين عليهما، مرحبين بهما ترحيبًا مستحَقًّا يليق بمكانتهما بينهم، وقد لقي الزوجان من الجميع كل توقير واحترام، في حين ذاع صيت حابيس كثيرًا، بعد أن تواردت أخباره بين الأهالى، بفضل التاجر القبطي، الذي لم ينفك يتحدث عن فضله في علاج زوجته مما ألمَّ بها، مما حدا بالركاب إلى التقاطر على الزوجيْن؛ للتبرك بهما.

تحركت السفينة الشراعية، وقد سأل قبطانُها حابيس الصعودَ إلى مقدمة السفينة للدعاء؛ فيبارك الإله لهم خلال رحلتهم الجديدة. كانت رحلة رائعة للغاية، بينما كان الفيضان في ذلك العام هائلًا، وقد حمل معه الطمي الخصيب الذي يبشر بالخير. كانت السفينة ترتفع بهم كلما تعمقت في وسط النيل، فأضحت تبدو كهضبة عالية، في حين يشاهدون ضفاف النيل كسهول بديعة، ووديان خلابة، فكانت تاوسرت تحب كثيرًا الوقوف عند طرف السفينة، في وقت الظهيرة، متأملةً الشمس العظيمة، وهي تهب الحضارة لأهل الوادي الخصيب، في حين حابيس لا يفارقها لحظةً. كلما رأيا الغسق البديع، بألوانه الأخاذة، جعلا يرددان ثمة تلاوات مقدسة، توديعًا لشمس الحضارة المستنيرة، وتعظيمًا للخالق العظيم. كان حابيس يقدس الشمس تقديسًا خاصًّا، فكان يظن فيها نور الإله الساطع على العالمين، فيما كانت أشعتها رسل السلام الذين يحملون العلم للبشر. لم يحاول الركاب قطع استرسال ابتهالات الزوجيْن

المخلصة، بل كانوا كلما وجدوهما في حالة تضرع وخشوع، انصرفوا عنهما؛ كي تحمل لهم الصلوات بركة الإله ورضاه، حتى لقبوه بالكاهن العظيم الذي يتحدث للإله رع.

في عصر اليوم التالي، وصل الزوجان إلى مدينة منف الرائعة؛ فنزلا عن السفينة، وراحا يتجولان في أزقة المدينة الجميلة. تلك المدينة العظيمة، التي بناها الملك نارمر، موحد الشمال والجنوب، قبل مئات السنين، وقد اتخذها عاصمة لمملكة كيميت الموحدة، حتى أصبحت منف بعد ذلك التاريخ مفتاحًا لحركة الحياة في كيميت[1]. ففي ظلها، ازدهرت الحياة الثقافية، الاقتصادية، والاجتماعية، ونهضت العمارة، الفنون، والعلوم الدينية، فأضحت المعبر الرئيسي من شمال البلاد إلى جنوبها، والعكس كذلك. شهدت منف أول عمارة حجرية، وأول مقبرة ملكية على شكل هرمي، وصارت جباناتها ومقابرها أشهر مقابر كيميت قاطبةً. كان المعبود بتاح معبود المدينة الرسمي، وقد سعى معظم الملوك على مر العصور يشيدون الأبنية، القصور، والمعابد الضخمة على أرضها، فأقاموا بها أكبر مخازن للغلال، وظلت بمثابة المرآة التي تعكس وجه كيميت الحضاري العريق، وعندما تعرضت كيميت لرياح عاتية، متمثلة في كل الذين حاولوا غزوها، كان لمنف دورها البارز في الصمود والكفاح، فإلى جانب كونها رمزًا للوحدة، كانت- كذلك- بمثابة المفتاح لكل بوابات الأرض السوداء، فما استطاع مستعمر للبلاد أن يصل إلى عمق البلاد إلا إذا تمكن من السيطرة على منف؛ لذا أدرك الغزاة قيمتها العظيمة في عقول الكيميتيين ونفوسهم؛ فصاروا يسعون إليها سلمًا أو حربًا، مدركين أن السيطرة عليها تعني السيطرة على كل كيميت، حتى استولى عليها الملك البربري ساليتس.

إن عظمة منف وما بلغته بين مدن كيميت القديمة، لأمر تشهد عليه

(١) مصر حاليًا، تعني الأرض السوداء لشدة خصوبة طمي النيل.

الأجيال المتعاقبة، فقد عاشت على مر العصور في ذاكرة الأمة، وقد تعلق بها القدماء تعلقًا شديدًا، فقرضوا الشعر والنثر في جمالها، مفاتنها الطبيعية، معبدها الكبير، الصرح الضخم، هرمها المدرج العظيم، ومعبودها الكريم، رب كل الصفات الجليلة والحميدة، وما كان يعتري أحياءها المختلفة، وسكانها متنوعي الجنسيات من بهجة عارمة إبان الأعياد بشتى أنواعها. كان من شدة غرام أهل القبط بها ما جعل الكثيرون يطلق أحد أسمائها الشهيرة على أطفالهم، سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا، وكان من ضمن أسمائها، المدينة ذات الجدران البيضاء، حيث كانت تتميز بجدرانها، وأسوارها البيضاء الشاهقة، في لوحة فنية رائعة، أضفت على المدينة طابعًا جماليًا ساحرًا. كما سميت بالحصن الأبيض؛ وذلك لأن سور المدينة كان مشيدًا من قوالب من الطوب اللَّبن، والتي تم كسوها بعد ذلك بالحجر الجيري الأبيض، تمجيدًا للون تاج الصعيد الأبيض، الذي استطاع أصحابه أن يتموا وحدة البلاد. تعددت أسماء منف أو من نفر، كما تعددت كذلك معانيها، فمنها باب الخير، أو المكان الجيد، أوالموقع الممتاز، وأيضًا تعددت صفاتها، مثل ميزان الأرضين؛ وذلك لأنها تقع في نقطة اتصال بين كيميت العليا والسفلى، كما وُصفت بإشراقة الأراضين، ومقر روح الإله. وكان الإله بتاح هو رب المدينة، ومعبودها الشهير، وحاميها من الأعداء، وفي معبده يُتوَّج الملك، وباسمه تجري أمور الدولة، وقد شاركه في منطقة إقليم منف، رموزًا أخرى للإله الخالق، كالمعبود سوكر، والذي صُور على هيئة آدمي برأس صقر، واعتبر إلهًا حاميًا لجبانة سوكر[1]، الواقعة على حافة الصحراء، غرب المدينة، فأضحت منف تعج بالمعابد العتيقة الخالدة.

تمكن الزوجان من إيجاد مسكن يقيمان فيه طيلة فترة مكوثهما في منف، بمساعدة أحد الأهالي. كان حابيس ينوي الإقامة بها لبضعة أشهر قليلة،

(١) هرم سقارة حاليًا، محافظة الجيزة.

لكنه لم يعلم أن الأقدار شاءت للزوجيْن أن يسكنا منف لسنين معدودة. في بادئ الأمر، كانت تاوسرت تحبذ فكرة استكمال الرحلة إلى الجنوب بأسرع وقت ممكن؛ حيث كانت تخشى من اكتشاف أمرهما في تلك المدينة التي كانت تزرح تحت سطوة ملك أرض جوش، لكن حابيس كان واثقًا أن أمرهما قد بات نسيًّا منسيًّا، وذلك لأمرين، أولهما أنهما قد أصبحا يعرفان لدى الناس بشخصيات جديدة، والثاني لأنهما صارا معظَميْن في أوساط العوام، فكان الرأي الأصوب لحابيس، حيث بقيا في تلك المدينة شهورًا متتابعة.

كان حابيس في خلال تلك المدة يسعى جاهدًا في البحث عن مصدر رزق له ولزوجته، لكن أحد الجيران أشار عليه بالعمل في معبد المدينة الأكبر ككاهن مختص، وهي مرتبة وظيفية عليا في العمل الكهنوتي، حيث سيكون عليه امتهان وظائف محددة، تخص خدمة المعبد، والطقوس الجنائزية، وأعمال النظافة اليومية، وتهيئة المعبد للأعياد الدينية، والمحافظة على قاعات الطقوس، وعلى الموارد المخصصة للاستعمال اليومي، كالحلي، والثياب، ومتطلبات العبادة، ويشتمل هؤلاء الكهنة المختصون- بصورة عامة- على عدة وظائف فرعية وتخصصات، منها الكهنة الذين يختصون بأعمال الختان، والكهنة المرتلون، والكهنة المجنحون، نسبة إلى الريشتيْن اللتين تزينان أغطية رؤوسهم، وهم الكهنة القراء، والكتاب الذين كانوا يمارسون عملهم فيما يسمى بحقول العلم المقدس أو العلم الإلهي، الذي كان يشمل مختلف الحقول الخاصة بالأدب، والحكمة، والكيمياء، والطب، في بيت ملحق بالمعبد، يسمى بيت الحياة، ولم يكن كتبة المعبد هؤلاء من الكهان فقط، بل كانوا يشكلون الطبقة المثقفة والمتعلمة في المدينة كذلك؛ ولذلك قرر حابيس الذهاب إلى المعبد، والتقدم بالعمل في وظيفة الكاهن القارئ.

في اليوم التإلى، توجه حابيس الى المعبد الكبير بالمدينة، وقابل كبير الرائيين[1]. وفي ذلك اليوم، كان المجلس المِلي الكهنوتي منعقدًا، لترشيح عدد من صغار الكهنة للعمل بالمعبد، حيث كان هناك وظائف شاغرة يسعى المجلس الكهنوتي لشغلها، وكان هناك عدد من الكهنة الجدد يرغبون بالانضمام إلى الخدمة الدينية، فقد درجت العادة على أن يُعيَّنوا من قبل المجلس الكهنوتي الأعلى.

كان حابيس مستعدًّا لاجتياز اختبارات التعيين، فيما كان من أهم شروط الخدمة الدينية أن يكون الكاهن قد خُتِّن بقصد النظافة، فقد كان ذلك تقليدًا متصلًا بالطهارة الجسدية، إذ كانوا يضعون النظافة والطهارة فوق كل القيم الجمالية، ولقد كانت تلك العملية اضطرارية، إذ بلغت قيمة الغرامة على كل من يهملها ألف درهم، بل إن بعض الكهنة وصل بهم أمر المبالغة في ذلك بالتخلص من شعر رموشهم وحواجبهم. وكانت من طرق الطهارة أيضًا الاغتسال بالماء البارد، مرتين نهارًا، ومرتين ليلًا، وغالبًا ما يكون التطهير في البحيرة المقدسة الملحقة بالمعبد. كان الكهنة قبل بدء خدمتهم الصباحية، ينزلون إلى الماء، فيريقونه على أنفسهم في غزارة، فإذا لم يكن هناك بركة أو بحيرة، يحل محلها حوض من الحجر، وكان يجب أيضًا أن يغسل الكاهن فمه بقليل من مذاب النطرون قبل أن يطرق المكان المقدس. كما لم يكن يسمح لهم بتذوق الطيبات من طعام الموائد، فقد كانوا يحرمون على أنفسهم بعض أجزاء الذبيح، إذ كان عليهم أن يتحاشوا الرأس أحيانًا، والأرجل والأعضاء الأمامية أحيانًا أخرى. وكانت لحوم الماعز، والبجع، والحمام، والأسماك البحرية، والخنزير من المحرمات، وكذلك الفول، الذي كان يحرم على الكهنة تناوله، وكان يقصد بذلك اجتناب الغازات المعوية التي يسببها أكل الفول،

(١) كبير كهنة المعبد.

أما النبيذ، فقد كانوا يتناولون منه قدرًا قليلًا، أو لا ينالون منه شيئًا، كما أن الملح كان من غير المرغوب أن يظهر على موائدهم، وكذلك البصل، والكرات، والثوم، وكل ما يصدر عنه روائح كريهة، تفسد قدسيتهم المعظمة.

كان حابيس على علم كبير بحياة الكهنة الخاصة، وقد استعد جيدًا لهذا اللقاء؛ بأن أزال الشعر كافة من جسده، وتطيب بأزكى العطور، ثم ذهب إلى المجلس الكهنوتي، مرتديًا ثوبًا من الكتان ناصع البياض، وحذاءً من البردي، وقد كان هناك بعض الأقمشة المحرمة على الكهنة، مثل الأقمشة الصوفية، لأنها مستخلصة من مخلوقات حية، تصيب لابسيها بالقذارة، وتحط من قدسية المكان الذي يؤدون فيه واجباتهم، فيما كانت تلك القاعدة قاطعةً لا استثناء فيها، ولا هوادة، لكن على الرغم من كل تلك القواعد المشددة والصارمة، التي كان يجب على جميع الكهنة الالتزام بها، إلّا أن كبار الكهنة كان من حقهم أن يخالفوا تلك القواعد المنصوص عليها في دستور العمل بالمعبد، فكبير الكهنة كان يرتدي رداءً من جلد الفهد، ويحمل قلادة ذات طابع خاص، وكان معظمهم مصابين بالتخمة، ويعانون من السمنة المفرطة، وأمراض تصلب الشرايين، والسبب هو كثرة تناول الأطعمة الدسمة التي كانت تقدم كقرابين للآلهة، بالإضافة للثراء الفاحش الذي تمتعوا به.

اجتاز حابيس اختبارات المجلس الكهنوتي، وقد كان جليًّا أن أعضاء المجلس قد أعجبوا بعلمه الكهنوتي الغزير، والتزامه بالتقاليد المتبعة، وقد نُصِّب حابيس كاهنًا قارئًا في حضور جميع أعضاء المجلس الموقرين، ثم تسلم مهام عمله الرسمية في اليوم التالي. كان السحر وعلوم ما وراء الطبيعة من ضمن العلوم الكهنوتية المقدسة، التي يجب أن يتعلمها الكاهن عند دخوله إلى السلك الكهنوتي، ولقد كانوا يستخدمون السحر خلال الطقوس الدينية،

وفي العلاج من الأمراض، وغير ذلك من الأمور الحياتية. كان هناك بعض الرموز والطلاسم على أشكال طيور وحيوانات في اللغة الهيروغليفية تكتب على بعض الجداريات، لكن تلك الرموز لم يكن يعرف مغزاها، أو يفك شفرتها، سوى القليل من خواص الكهنة، وكانت تلك الرموز بمثابة طاقة روحانية خفية إلى حد كبير، وكانت تلك الكتابات أو المتون المقدسة تسمى باورع[1]. لقد كانت تلك الطلاسم يعتقد أنها هي التي تنقذ روح المتوفي من العوالم الأخرى، وأنها تحميه كذلك من الأرواح الشريرة في العالم الآخر، لذلك كان يتوجب على حابيس أن يتعلمها تعليمًا جيدًا؛ لقراءتها على روح الموتى قبل دفنهم. وكان هناك تقليد خاص متبع يقوم به الساحر أو الكاهن في منف، حيث كان يضع تلك الرموز والطلاسم في الماء بعد كتابتها على ورق البردي، حتى إذا ما ذابت تمامًا في الماء، يشرب الساحر ماءها، حتى تنتقل القوى الخفية لتلك الكتابات إلى جسده، وقد تعلم حابيس كل تلك التقاليد الكهنوتية، لكنه- مع ذلك- كان يمتلك بعض الأسرار الخفية الخاصة به، والتي كان قد تعلمها مسبقًا في السجن، على يد الحكيم الإسرائيلي. كانت تلك الأسرار والعلوم لا يعرف بها الكثير من كهنة منف، مما أثار بعض الضغائن والأحقاد عليه في نفوس بعض كبار الكهنة بالمعبد.

كان كهنة مدينة منف يتبعون مدرسة بتاح في السحر، وقد كان أولئك السحرة متخصصين في إخفاء الأشخاص والأشياء وإعادتها مرة أخرى أمام الناظرين. وفي يوم من الأيام، أمر حاكم إقليم منف بجمع سحرة المدينة أمام قصره، ليقوموا بمباراة عظيمة في السحر، أمام حشد كبير من أهل المدينة، محفزًا لهم بأنه سوف يهب عطايا بلا حدود لمن يتمكن من إعادة الحياة لأحد السجناء، بعد فصل رقبته عن سائر جسده. كان ذلك تحديًا كبيرًا لسحرة

(١) وتعني روح الإله المقدسة.

المدينة، الذين اشتهروا بقدراتهم الخارقة في أعمال السحر الخفية. كان كل كاهن ساحر يرغب في المنافسة وإثبات قدراته المتفوقة على الآخرين؛ ليحظى بعطايا الحاكم، فيزداد تقربًا من عرشه.

أحضر الجنود السجين فوق المنصة، ثم أمر الحاكم ببدأ المباراة، وصاح فيهم: **هل من متنافس؟** صعد عدد من كبار الكهنة إلى المنصة، وقرأوا ثمة طلاسم وتعاويذ خاصة، ثم أمسكوا بالسيف، وضربوا بها رأس السجين، فطار منفصلًا، ثم جلبوه، وجعلوا يضعونه في جهة، والجسد في جهة أخرى، ثم أمروا الرأس بأن يعود إلى الجسد، لكن بعد عدة محاولات متفانية لم ينجح معهم الأمر، فغضب الحاكم غضبًا عظيمًا، وأنكر عليهم قدراتهم الخارقة في السحر. رفع حابيس يده، طالبًا من الحاكم أن يتقدم للمنافسة. صعد حابيس إلى المنصة، وأغمض عينيه، وجعل يقرأ على الرأس بعضًا من الأدعية التي تعلمها من قبل، فأخذ الرأس يرتفع في الهواء، ويدنو ببطء من الجسد، حتى التحمت تمامًا به، ثم نفخ فيه حابيس نفخة قوية، فانتفض الجسد، واستعاد السجين روحه من جديد، وسط ذهول عظيم من الأشهاد جميعًا. انبهر الجميع بما قام به حابيس، فانتابتهم حالة من تصفيق مدوٍّ، لا ينقطع.

كان الحاكم لا يستطيع تصديق ما رأى، فقام من مجلسه، وتقدم نحو حابيس، فسأله كيف أمكن له أن يعيد الروح بعد أن انفصل الرأس عن الجسد، فقال له حابيس في ثقة:

- سيدي، حاكم منف العظيمة، إنه ما كان لي أن أعيد الروح إلى الجسد. وإن تلك القدرة قد اختصها الإله لنفسه وحده.. وما أنا إلّا عبد ضعيف من جنود الإله، قد منحني بعضًا من علمه وأسراره الإلهية. سيدي الحاكم، إنني لم أغير طبيعة الكائن الحي أمامكم، ولكنني استطعت أن أقنع أعينكم

وحواسكم لترى ذلك، وإن ذلك مما علمنيه ربي. وإن ربي لذو علم على العالمين.

امتلأ الحاكم إعجابًا بحابيس، وقد غمره شغف كبير لاكتشاف سر قدرات حابيس العظيمة في السحر، فعاد ليسأله: **أخبرني، أيها الساحر العظيم، ما اسمك؟** أجابه حابيس قائلًا: **إنني العبد الفقير للإله، سوباك، يا سيدي.** فقال له الحاكم: **وأين تلقيت علومكَ الكهنوتية العظيمة تلك؟** شعر حابيس بالارتباك الشديد، فما كان في استطاعته أن يخبر الحاكم بالحقيقة، لذا اضطر لأن يدعي قائلًا: **لقد تلقيتُ علوم السحر على يدِ أحد كبار الرائين من كهنة أمون في معبد سيوة. ولقد عُرف عن هؤلاء الكهنة العظام البراعة في الاستشارة. ولقد ذهب إليهم الكثير من الملوك والأمراء لاستشارتهم في كثير من الأمور الدنيوية. وما أنا إلا كاهن صغير متواضع بالنسبة إلى هؤلاء الكهنة، يا سيدي.**

حاز كلام حابيس على تقدير الحاكم، وأمر الجنود، فأغدق عليه بالعطايا والهدايا الثمينة، ثم أمر بأن يكون حابيس الكاهن الخاص به، كما أوصى بأن يكون الكاهن الذي يقرأ على روحه التلاوات بعد وفاته، وأمر له بمسكن وقور في المدينة، فذاع صيت حابيس في مدينة منف، وأصبح واحدًا من أشهر كهنتها، بل إن الناس من العوام صاروا يتوافدون عليه بكثرة، ليأخذوا رأيه في الكثير من المسائل الدينية، مما أثار حفيظة كبار كهنة المعبد، الأمر الذي دعاهم للتخلص منه؛ نظرًا إلى تعاظم سلطته في المعبد، يومًا بعد يوم.

أصبح حابيس يتمتع بالكثير من النفوذ في المعبد، وعند بلاط الحاكم، وكانت تاوسرت تخشى عليه من ذلك النفوذ المتنامي، ولقد حدثته في ذات يوم قائلةً: **زوجي الحبيب، إنني أخشى عليك من مكر كبار الكهنة بكَ**

وحقدهم المتزايد عليك... لقد سمعتُ إحدى زوجات كبار الكهنة بالمدينة تتحدث في غيظ عنكَ وعن نفوذك المتعاظم لدى الحاكم. وربما راحوا يدبرون لك المكائد حقدًا وغلًا من عند أنفسهم. فأجابها حابيس في إيمان قائلًا: **لا تخافي، يا رفيقتي المخلصة، ما هم بقادرين على إلحاق الضرر بي ولا دفعه عني إلا بمشيئة الرب القوي العليم. إنني لا أخشى منهم ولا من سلطاتهم المتغلغلة في البلاد. ما أخشى عليه هو أن يمكر بنا أحدهم لإخراجنا من المدينة.** فعقبت تاوسرت قائلةً: **أفهم من كلامك أنك تخطط للرحيل عن المدينة؟** فقال لها حابيس: **إنكِ تعلمين أنه لا رغبة لي في السلطة والنفوذ، ولا في السيطرة وتحقيق المصالح الشخصية، وأن كل تلك الثروة العظيمة التي صرنا نمتلكها لا تعنيني في شيء، بل حتى تلك الدنيا الزائلة لا تهمني كثيرًا. إنني أخشى عليك أنتِ أكثر من أي شئ آخر. ولقد علمتُ أن أحد الكهنة الحاقدين قد وشى بي عند الحاكم، وإنكِ لتعلمين أن جميع الكهنة في موضع شك عند حاكم المدينة، لذلك فإن من مهام الوزير الإشراف على المعابد والكهنة كذلك، للتحكم في نفوذهم القوي داخل البلاد. وأشعر أن هنالك خطبًا ما يحاك ضدي في الخفاء، ولقد شاهدت رؤية تخبرني بالحذر والخروج من المدينة، فما قولكِ في ذلك؟**

صمتت تاوسرت لبضع دقائق، فيما أخذت تفكر مليًّا بالأمر، ثم عادت لتقول: **الأمر لكَ، والقرار قراركَ، يا زوجي العزيز، فما دمتَ على يقين بأن هنالك مكيدة عظمى تحاك ضدك في الظلام، فلا مناص أمامنا من الإسراع بالخروج من المدينة.**

لم يعقب حابيس على قولها، فيما بدا عليهما الاتفاق على مغادرة المدينة في أسرع وقت ممكن.

(4)

أخذ الزوجان قرارهما على عجل، وبعد عدة أيام، استعدا للرحيل. لم يكن هناك المزيد من الوقت للتفكير في ذلك الأمر، فلقد كان في بقائهما في مدينة منف خطورة عظيمة على حياتهما، لما وصل إلى مسامع حابيس من معلومات مؤكدة عن تزعم أحد كبار الكهنة التدبير لمكيدة آثمة للإيقاع به، وعليه، فكان من الضروري أن يسرعا في مغادرة المدينة، مع طلوع الشمس، دون أدنى تردد.

أصبح الرفيقان مستعدين للرحيل قبل بزوغ الصبح، فشدّا الرحال حامليْن معهما ثمة متاع، وقليل من الزاد. كان عليهما أن ينزعا عنهما لباسيهما المعهود، ويستبدلاه بهما لباسين آخرَين لبعض النبلاء من تجار المدينة؛ ذلك لأنهما صارا مألوفيْن في المدينة، فأرادا التخفي كي لا يلاحظهما أحد. ارتدى حابيس شعرًا مستعارًا فوق رأسه، وتحلى بثياب كانت تسمى النقبة، وهي كساء من الكتان الأبيض الفخم يلتف حول الخصر، ويمتد حتى أعلى الركبة بقليل، ثم أحكمه بحزام أنيق، وزيّن صدره بطوقٍ من الكتان المطرز عالى الجودة، وأما تاوسرت فقد ارتدت قميصًا مزركشًا من الكتان- كذلك- مصبوغًا باللون النيلي المميز، وقد تزنيت بالعديد من الحلي والمجوهرات، حتى أصبحا على أتم الاستعداد للرحيل. مع بزوغ الشمس، خرجا على التو من الدار، وتمشيا قليلًا حتى وصلا إلى وسط المدينة، حيث سوق المدينة المركزي. كان الصباح قد أشرق عليهما، وأقبل التجار على محالهم ليفتحوها، وفي حين كانت تاوسرت تلقي نظرة الوادع على جدران المدينة البيضاء، نظرت إلى حابيس، وقالت: **كم يحزنني مغادرة هذه المدينة الرائعة، لقد قضينا فيها أيامًا سعيدة هانئة، فوالله ما وجدنا فيها غير راحة البال ورغد العيش، فماذا عنكَ، يا حابيس؟**

ألستَ حزينًا للرحيل عنها؟ فأجاب حابيس قائلًا: **لو أنكِ اطلعتِ على فؤادي لوجدتِه يدمى حزنًا على فراق منف، المدينة التي ولدت بها، لكنني احترق شوقًا إلى أرض الأوائل والفاتحين، وأهفو حنينًا إلى رؤية والديّ في مدينة طيبة السلام.** فعقبت تاوسرت قائلةً: **إنني سأحِنُّ إلى منف ضعف حنينك لطيبة، لذلك أرغب في زيارة مقبرة سوكار الهرمية قبل مغادرة المدينة، فما رأيكَ في ذلك؟!** نَشِطَ حابيس بقوة للفكرة، فقال في حماس جارف: **تبدو لي فكرة ممتازة، لا مانع لدي في ذلك، وبعدها نرحل مع إحدى القوافل التجارية البرية المتجهة جنوبًا.**

توجه الحبيبان غربًا إلى الصحراء، حيث مقبرة سوكار الهرمية الشامخة، ذاك الهرم المدرج الذي صممه المهندس المعماري القبطي العبقري إيمحوتب. كان ذلك في عهد الملك زوسر العظيم، منذ ما يقارب الألف عام. كان حابيس في حالة فخر وزهو بأجداده القدماء، عندما وصلا إليه دون عناء. كان الهرم عبارة عن ستة مصاطب متراصة بإحكام فوق بعضها البعض، حيث يقع أسفله نفق طويل ينحدر إلى موقع دفن الملوك والأمراء. بينما كان حابيس ينظر مختالًا بعظمة الأجداد، إذ توقف فجأة قائلًا: **يا له من تصميم عبقري ومذهل. قيل عن إيمحوتب إنه أروع مهندس معماري عرفته البشرية بعد خلق آدم.** فاستطردت تاوسرت قائلةً:

- حقًّا، ويستحق ذلك عن جدارة، لقد أشاد نبي الرب يوسف بذكائه الفريد وعبقريته الفذة التي لم يسبقه إليها أحد، وعندما جُعل يوسف على خزائن الأرض، عمل على استغلال هذا الصرح الضخم لإنقاذ أرض القبط من الهلاك في زمن الجفاف والقحط، لقد أمر بحفر إحدى عشرة حفرة حول هذا الهرم لتخزين الغلال استعدادًا للسبع سنوات العجاف. لقد كانت صممت

هذه الأنفاق ببراعة منقطعة النظير، تكشف عن مدى حنكة يوسف وفطنته. فلقد حُفرت بطريقة تكفل لها أن تكون مرتبطة مع بعضها البعض، بحيث عندما تُسحب الحبوب من إحدى الفتحات، تُغذّى مباشرة من أخرى متصلة بها. لقد صار الناس في زمن القحط يتوافدون من كل فج عميق، ومن شتى القرى والمدن، فجعلوا يتراصون في صف واحد ممتد أمام هذه البوابة التي نقف أمامها، رغبة في شراء الحبوب التي تكفل لهم الحياة في تلك الظروف البائسة.

علّق حابيس قائلًا: **ثم كان يتوجب عليهم عبور هذه الممرات الضيقة بين الأعمدة والتي تكفي لشخص واحد حيث يجلس عليها المحاسبين الذين عينهم يوسف، فكانوا يأخذون الدراهم من الناس ويعطونهم أكياسًا كبيرة، ثم يعبرون ممرًّا آخرَ حتى ينزلوا الدرج ليجدوا شخصًا آخرَ يعبئ لهم الكيس. فإذا ما انتهوا يخرجون من الباب الخلفي بكل يسر.**

قالت تاوسرت في انبهار: إن ما فعله يوسف من أجل شعب القبط كان السبب الرئيسي الذي جعلهم يهيمون تقديرًا وحبًّا له، حتى أنه بعد وفاته اختلف الناس على تحديد مكان دفنه، وكادت أن تنشب فتنة عظيمة بين أهل المدينة، حتى نصحهم أحد الحكماء المحايدين بأن يوضع جثمانه في تابوت، ثم يلقونه في قاع النيل، وبذلك سوف تحل البركة على ماء النيل التي يشرب منها الجميع. بدت هذه الفكرة مقنعة، فتحول يوسف في عقيدة أهل القبط إلى بطل شعبي عظيم، ولا تزال رفاته مغمورة في قاع النيل المبارك إلى يومنا هذا.

حان الوقت للرحيل، وقد تظاهر حابيس بأنه رجل من نبلاء المدينة، فغيّر اسمه إلى خيتي، ونادى زوجته بميريت. فتوجها معًا إلى حيث القافلة

المتجهة جنوبًا إلى مدينة أهنيس[1]. انضم الزوجان إلى القافلة التجارية، التي باتت على وشك الرحيل. كانا يتملكهما شعورٌ عميقٌ بالخوف، نظرًا إلى المجهول الغامض الذي ينتظرهما. مع ذلك، وبفضل قوة إيمانهما تغلبا على ذلك الشعور السيئ، فانطلقت القافلة البرية، حاملةً المسافرين والبضائع على ظهور الإبل، وبين عربات تجرها الخيول؛ لتشق طريقها خلال ممرات ودروب الصحراء القاحلة. كانت رحلة طويلة جدًّا عبر الصحراء الغربية، مرا خلالها على مدينة عظيمة تدعى اثت تاوي[2].

شُيِّدت تلك المدينة على يد مؤسس الأسرة الثانية عشرة، وهو الملك العظيم، أمنمحات الأول، الذي وُلد من أم نوبية. كان يشغل منصب وزير آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة، فأزاح ذلك الملك، ونصَّب نفسه ملكًا على البلاد. لقد تكبدت تلك الأسرة الجديدة الناشئة مشاق جسيمة؛ لفرض سيطرتها وشرعيتها على أتباع الأسرة السابقة، حتى استطاع- أخيرًا- إمنمحات الأول أن يحقق نجاحًا مبهرًا، في توطيد نفوذ حكمه على حكام الأقاليم، عن طريق عزل أي حاكم لا يطيع أوامره. على الرغم من بعض الفوضى والاضطرابات السياسية الخطيرة التي واجهته في بداية حكمه، ما اضطره إلى أن يُقنع الشعب باللين تارة وبالقوة تارة أخرى. حتى قضى أمنمحات الأول على غارات الليبيين والآسيويين. وحَكَمَ آخر عشر سنوات من حكمه بالاشتراك مع ابنه سنوسرت الأول. ورغم أنه وُلد في مدينة طيبة، إلا أنه قرر اختيار مدينة اثت تاوي؛ لتكون عاصمة إدارية جديدة، مستغلًّا موقعها المميز إلى جهة

(١) تعرف اليوم بـ "إهناسيا" أحد المراكز التابعة لمحافظة بنى سويف، وتقع غرب مدينة بني سويف. كانت عاصمة لمصر فى عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة لمدة تقارب قرنين من الزمان فى الفترة من ٢٢٤٢ حتى ٢٤٥٢ قبل الميلاد.

(٢) تعرف اليوم بقرية اللشت، وهى واحدة من قرى مركز العياط فى محافظة الجيزة فى مصر، وتعني بالهيروغليفية «القابضة على الأراضين».

الجنوب من منف، ما يمثل نقطة للاتصال بين الشمال والجنوب، مما سمح لها بالاحتفاظ بذاتيتها. إن الأسرة الثانية عشرة كانت من أزهى العصور، وكانت اثت تاوي تحوي إحدى أكبر الجبانات في مقابر الدولة الوسطى، حيث أمر ببنائها الملك إمنمحات الأول، كما شاهدوا بها العديد من الأهرام المتوسطة الارتفاع، والمعابد الضخمة، وتماثيل ملوكها الخالدة.

لكن بعد المؤامرة التي قُتل فيها أمنمحات الأول على يد حراسه، في الوقت الذي كان فيه ابنه وشريكه في الحكم- سنوسرت الأول- على رأس حملة عسكرية في ليبيا. لكنه عندما عاد تمكن من إخماد الفتنة، والاستيلاء على الحكم. ثم واصل سياسات والده التوسعية ذات الطابع الهجومي في النوبة، وذلك بالمبادرة بإرسال حملتين إلى هذه المنطقة، الأولى كانت في عامه العاشر، والثانية كانت في عامه الثامن عشر، فأخضع حدود البلاد الجنوبية- بالقرب من الشلال الثاني- إلى سلطته، بأن وضع فيها حامية دفاعية وأقام عليها لوحة النصر. كما نظم حملة إلى واحات الصحراء الغربية. وأقر علاقات دبلوماسية مع بعض حكام الشرق الكنعانيين والفينيقيين. كما يعزو الفضل له في ترسيخ مركزية الهيكل السياسي للبلاد عن طريق دعم القبائل البدوية الموالين له. فشهدت فترة حكمه استقرارًا وتطورًا في العديد من المجالات، على مستويات الأدب والصناعة. حيث شهد عهده تغيرًا جذريًّا في مفاصل أجهزة الدولة، فتكونت وظائف جديدة، وطبقة اجتماعية ناشئة، وألقاب مستحدثة، وأعيد كذلك تقسيم المهام والمسؤوليات الملقاة على عاتق القوى العاملة، وإدارات الإنتاج، وتلاشت تقريبًا طبقات الحكام على النمط القديم، وحل محلهم محافظون على مستوى المدن، وليس على مستوى الأقاليم، وألحق بهم فئة من المراسلين لمساعدتهم، ومراقبتهم في الوقت نفسه، وهم يتبعون الوزير مباشرة، فقسمت البلاد إلى ثلاث مقاطعات، يشارك- أيضًا- بعض المراسلين

في إدارتها. ولقد لاقت الأيدي العاملة عناية واهتمامًا فائقًا، وأنشئ مكتبٌ خاصٌّ لتوزيع القوى البشرية العاملة، وآخرُ للخدمات الخاصة بالسجون، وقد ساعدت هذه الإصلاحات على ظهور طبقة متوسطة من القوى العاملة، وقيادات أجهزة الدولة، الذين يتقاضون مرتبات كبيرة، تسمح لهم بامتلاك المنشآت الجنائزية المنقوشة والمزخرفة، والتي كانت حكرًا على الصفوة من سادة القوم قبل ذلك.

اتسعت رقعة مملكة القبط كثيرًا، فشمالًا حتى مدينة جبيل، وجنوبًا حتى أقاصي النوبة. ما ساعد على تعزيز النشاط التجاري مع بلاد الفينيقيين والكنعانيين، ومن خلالهما مع شعوب بحر إيجة، في الوقت الذي شهد هجرة العديد من الآسيويين الأعراب إلى أرض القبط، ولقد استمرت تلك الأسرة ممسكة بزمام السلطة زهاء مائتي عام، ولم تفقد السيطرة إلا بعد أن آل الحكم إلى إحدى الملكات في ظروف غامضة، وكانت تدعى نفروسوبك، وهي أختٌ لإمنمحات الرابع، وابنةٌ لإمنمحات الثالث، وكانت الوريثة الوحيدة لحكم البلاد، لأن أخاها لم ينجب ذكورًا، فولّاها مقاليد الإشراف على حكم البلاد، ثم صارت ملكة متوجة على البلاد، وقد أصاب البلاد خلال فترة حكمها ضعفٌ شامل وانحلالٌ حائل، ساعد على اضطراب الأمن، واشتداد بأس الأعداء، من قبائل الكنعانيين الرعاة في الشرق، والبدو الليبيين في الغرب، والكوشيين في الجنوب. فانهارت أسرة أحفاد إمنمحات الأول، واستحوذت على العرش الأسرة الثالثة عشر، من أبناء طيبة كذلك، وقد أبقى ملوكها على اثت تاوي عاصمة لهم، لكن حكمهم الهش سرعان ما شهد تآكلًا وتمزقًا لوحدة البلاد، وتفككًا للحمة الوطنية، وتدهورًا عميقًا متسارعًا في الاستقرار السياسي.

توقفت القافلة للاستراحة بوادٍ ذي بئر عظيم، عند الحد الجنوب للمدينة،

وجاء أحد العرافين إليها، مناديًا على أي شخص يبغي استطلاع المستقبل. أقبل العراف نحو حابيس، قائلًا: **المجد كل المجد للإله الحامي. يا بني، إنني أرى في عينيكَ نظرة عظيمة نابغة، وأتنبأ لكَ بشأن ذي أثر في البلاد. فهّل سمحتَ لي بقراءة كفك؟** لم يكن خيتي متحمسًا لذلك كثيرًا، لكنه مع ذلك لم يمانع في ذلك. تناول العراف يده، وبعد صمتٍ متأنٍّ، أخبره بأن أمورًا عظيمة في انتظاره خلال رحلته، لكنه أراد تنبيهه بضرورة أن يتصف بالحكمة والصبر، كما تنبأ له بجمع شمله مع أهله، ثم أخبره بأمر مريب، بث الفزع في قلب خيتي، حينما قال له: **أرى، يا بني، أنكَ تهرب من حاكم ظالم، ثم سيكتب له الإله نصرًا مؤزرًا عليه، فتعود إلى ديارك محتفًى بكَ، وفوق رأسكَ إكليل من الورود، فتكون ذا شأنٍ رفيع في البلاد. إنني أتوسم فيكَ خيرًا فياضًا وقلبًا صادقًا يجيش بالإيمان والورع، وإن هذه المرأة قد هُديت بها إلى سبيل النجاة. فكن لها عونًا كما يشتد بها أزركَ، فشاركها في أمركَ جلَّله، خيره وشره، وامضيا في طريقكما، ففي نهايته فرج عظيم.** ثم مضى العراف، وانصرف، دون أن يطلب مالًا.

توجس حابيس قلقًا من كلام العراف؛ بينما كان يخشي أن يكون أحدٌ ممن معه بالقافلة قد استرق سمعًا، فينكشف أمره. حتى نادى قائد الركب على المسافرين، فتجمعوا من جديد؛ لاستكمال الرحلة، ثم بعد مسيرة يومَيْن، وصل الزوجان- أخيرًا- إلى مدينة أهنيس، وفيها قررا قضاء ليلتهما، قبل مواصلة السفر جنوبًا.

لقد أتاح الموقع الجغرافي الإستراتيجي لتلك المدينة أن تلعب دورًا مهمًّا في تاريخ أرض القبط. كانت تحتل مركزًا مرموقًا في الآداب والفنون. لكنهما وجدا فيها الأهالي يتداولون فيما بينهم قصة عجيبة للقروي الفصيح. تحكي

الأسطورة أن قرويًّا يدعى خون إنبو، خرج من بلدة يقال لها غيط الملح[1]، وترك زوجته وأولادهما، وقد أبقى لهم جانبًا مما كان يدخره من الغلال، ثم حمَّل حميره ببضاعة متواضعة من نطرون، من أعشاب، وجلود، وأحجار كريمة؛ بغية أن يتاجر بها في مدينة أهنيس، عاصمة البلاد في عهده. ثم مر القروي الفصيح في طريقه على قرية يدعونها بر فيفي. كان يتولى أمرها موظف فاسد يدعى تحوتي نخت، وقد طمع الأخير في تجارة القروي وحميره، وأراد أن يكون له نصيب منها، فاعترضه على طريق زراعي ضيق كان لا بد أن يمر عليه، وأوعز إلى خادمه أن يبسط على الطريق قماشًا يغطيه بالعرض، ولمّا تقدم القروي على الطريق، نهاه الوالي الفاسد أن يمر على قماشه المبسوط، ونهره بشدة، فاعتذر القروي الطيب، وابتعد، ثم سار قرب الأرض الزراعية، فنهره ثانيةً، وفجأة قضم أحد حميره قضمةً من سنابل الغلال، فاتخذها تحوتي فرصةً، وأصر أن يستولي على الحمار جزاء جرمه، فاحتج القروي، وهدد بإبلاغ الأمر لصاحب الأرض، فغضب الرجل الفاسد غضبًا شديدًا، وأخذته العزة بالإثم، واستولى على بضاعة القروي وحميره كلها، فبكى القروي، واشتد عويله، فنهره المتجبر الفاسد في صفاقة غريبة قائلًا له: **لا ترفع صوتك، يا فلاح، أنت في بلد السكون**. كان رب السكون هذا هو المعبود أوزير، ويبدو أنه كان له ضريح قريب من بر فيفي يهابه الناس، ويجلُّونه. لكن القروي لم يهتم به، وقال بلهجته الريفية اللطيفة: **تضربني وتنهب متاعي وتوقف الشكوى على لساني؟! يا رب السكون، أعطني إذًا حاجتي حتى أبطل الصراخ الذي يغضبك.** استمر القروي طيلة عشرة أيام، يشكو حينًا، ويسترحم حينًا أخرى، لكن بغير طائل، فاتخذ سبيله إلى العاصمة أهنيس؛ ليشتكيه إلى المسؤول الكبير رنسي. حتى قابله، فوجه إليه استعطافًا رقيقًا مهذبًا، وحاول أن يستشير

(١) وهي بلدة من نواحي محافظة الفيوم.

نخبة المسؤول في أمره. كان من قول القروي الذي ألان قلبه: **إذا كنتَ حقًّا أبًا لليتيم، وزوجًا للأرمل، وأخًا للمطلقة، ورداءً لمن لا أم له، فها أنا ذا أقول وأنت تسمع. أقِم العدل يمدحك المادحون، وأزِل معاناتي فقد ثقُلَت، واحمِني فقد ضعتُ.** ففعل استعطاف القروي ومديحه فعله لدى المسؤول، فأعجب به، وأسرع إلى الملك يقول: **مولاي، وجدت واحدًا من أولئك القرويون حَسِن الكلم يتحدث الصواب. نُهبت أمتعته وأتاني يتظلم.** وقصّ على الملك قصته، بينما بعث القروي معه رسالةً، يقول فيها شاكيًا في إطراء بليغ: **أيتها الدفة لا تنحرفي، ويا أيها السند لا تمِل، ويا أيها الميزان لا تتذبذب.** وأطال القروي في شكايته، ولما فرغ الملك من قراءتها، طلب استدعاءه، فتوقع القروي أن تكون الدعوة لمقتله، وأخذ يروض نفسه على ملاقاة الموت في شجاعة وبأس، لكن الملك طمأنه، وأراه شكواه منسوخة على برديات جديدة، وقد تم عرضها على الملك شخصيًّا، فأمر الملك العادل الحكيم بأن يتكفل برزق زوجة القروي، وعياله، طيلة المدة التي سوف يقضيها في أهنيس.

بعد أن قطعت القافلة مسافة ثلاثة أيام، ألقت رحالها، مع أشعة الغسق القرنفلية الزاهية، عند أنقاض مدينة بائدة، كانت تدعى قُسْ[1]. وجدا الزوجان بها معبدًا ضخمًا للإله حورس[2]، في برية جبل قُسْقام، ترتفع منه سحب دخانية كثيفة، حيث كان الكهنة يحرقون الكثير من الغاب والحشائش الضارة أمامه، ما جعله يظهر بمثابة مدرسة لتعليم السحر. فيما كان كهنة ذلك المعبد يزعمون أنهم متخصصون في علاج الأمراض بالسحر. أخذ حابيس وزوجه قسطًا من الراحة، بخيمة إلى جوار المعبد. ثم استكملا في الصباح رحلتهما جنوبًا مع من تبقى من أفراد القافلة، حتى وصلا إلى مدينة تدعى

(١) تقع غرب النيل، وتعرف اليوم بمدينة القوصية، أحد مراكز محافظة أسيوط.

(٢) يعرف اليوم بدير العذراء المحرق أو دير المحرق.

أبيدوس، واقعة على مقربة من الضفة الغربية لنهر النيل.

كانت أبيدوس عاصمة البلاد في عصر ما قبل الأسرات منذ مئات السنين، وكانت تعج بالعديد من المعابد المقامة للإله أزوريس، رب الخير والنماء، إذ اعتبرت قبلة للحج على مر العصور. منذ فجر التاريخ اكتسبت تلك المدينة مكانة دينية مقدسة، ومنها خرج أول ظهور لتصميم المقابر ذات المصاطب في عصر الأسرة الأولى، وفيها اكتشفا أقدم جبانة في تاريخ كيميت. كما كان قلب المدينة يعج بالآثار المختلفة التي تمتد من عصور ما قبل التاريخ، فيما كان معبد المدينة الكبير يتكون من سبع مقصورات، وصالتين للأعمدة، تشتمل على اثني عشر عمودًا من الجرانيت، بالإضافة إلى الصالة الأمامية، التي كانت ذات نقوش ملونة غائرة وبارزة. فلقد خلب لبهما ما تميز به المعبد من دقة التصوير وروعة الإبداع، كانت مدينة غاية في الإبهار، وقد سُحرا خيتي وميريت بجمالها الذي فاق كل الحدود، وبتاريخها العظيم الضارب بجذوره في عمق الحضارة. لكن الوصول إليها لم يكن يسيرًا، حيث كانت غير تابعة لحكم الهكسوس، وقد تمكن ملوك طيبة من طردهم، وإبعادهم خارجها، لذلك فقد تعرضت قافلتهما لتفتيش دقيق وغير مسبوق. أنزل جنود الهكسوس كل أمتعة الركاب، وجعلوا يفحصونها بعناية مثيرة للقلق، معنفين الركاب بشدة، في حين استجوبوا عند حدود المدينة؛ حتى يتأكدوا من هوياتهم جميعًا. مضت ساعات طويلة من الانتظار، ظن حابيس خلالها أنه لن ينجح في استكمال الرحلة، حتى أشار عليه أحد المرافقين معه بالقافلة أن يشتري منه بعضًا من بضاعته، كي يسمح لهما الجنود بالعبور، بعدئذ استكملت القافلة مسيرتها.

كانت وجهتهما ما قبل الأخيرة، عندما وصلا إلى مشارف مدينة تسمي دندرة، وتبعد مسافة ستين كيلومترًا شمال مدينة طيبة، فيما يعود تاريخها

إلى عصر ما قبل الأسرات. تميزت المدينة بمعبودتها الرئيسية، الإلهة حتحور، حيث أقيم لها معبدٌ ضخمٌ. وفي غرب ذلك المعبد، وجدت بحيرة مقدسة، ينمو عليها النخيل، بالإضافة إلى العديد من الآبار المحفورة في الأرض، ومن ضمنها مقياس فيضان النيل. كما كان هنالك بيتٌ شهيرٌ للولادة يقع إلى الشمال من المعبد الكبير، هذا بالإضافة إلى العديد من المعابد الأخرى الصغيره حوله، وقد كانت تغطي الجدران والأعمدة تماثيل محفورة، بالغة الدقة، وعظيمة الجمال. كانت مدينة تاريخية شديدة التألق بحق، ومنسية في خضم الحروب، مع ذلك.

شارفت رحلة المشقات على الانقضاء، حينما دنت قافلتهما من مدينة السلام وعبق الأجداد، وبذلك سيطوي الزوجان صفحة طويلة بائسة من العناء، ليستقرا في أرض التاريخ، تلك المدينة العظيمة التي هاجر إليها أهل حابيس. ولما دخلاها أخيرًا، كان على حابيس أولًا أن يسعى جاهدًا في البحث عن دار والديْه. لكن لن يكون ذلك بالأمر اليسير، فلقد مضى عهدٌ طويلٌ منذ أن جاء والداه، هاربيْن من بطش الجنود، إلى منفاهما الإجباري. والآن، قد حان الأوان، ليلتئم شمل الأحبة، في دار السلام والمحبة.

(5)

كانت طيبة تنقسم إلى قسمسْن رئيسيْن، هما مدينة الأحياء، أو دار الحياة، وتقع إلى الشرق من النيل، حيث تسطع الحياة بشروق الشمس، وفيها يسكن الناس ويذهبون للتعبد في المعابد المجاورة لهم، أمّا القسم الثاني، هو دار الممات أو مدينة الأموات، وتقع على الشاطئ الغربي من النيل، حيث رحيل الشمس، وفناء الحياة، لذلك بنيت فيها المدافن، والمقابر، والأضرحة. إنها طيبة السلام، مدينة النور، وهي كذلك مدينة المائة باب، ومدينة الصولجان. كانت المدينة تحوي الكثير من القصور الفخمة، ويرجع تأسيسها إلى عهد الأسرة الرابعة في الأزمنة البعيدة، ويُعزى الفضل إليها في توحيد العبادة على الأرض السوداء، وذلك بعد دمج عبادة آمون مع رع، فأصبح آمون رع هو رب البلاد، وحاميها الأوحد.

بعد سقوط الأسرة الثانية عشر، فرَّت إليها الأسرة الثالثة عشر، عائدة إلى رحم طيبة حيث خرجت، واستمرت باقية في الحكم، رغم سقوط منف. لكن البلاد كان قد عصف بها الوهن الشديد، وتمزقت أوصالها تمزقًا عنيفًا، وسقطت معظم مدن أرض القبط في إيدي البدو العبرانيين، فشيدوا عاصمتهم في قلب أرض جوش، على الفرع التانيسي للنيل، على أطلال المدينة القديمة التي بنيت في الدولة الوسطى، لتصبح الميناء النهري المؤدي إلى كنعان وجبيل. كما أقاموا المعسكرات والحاميات على أطراف مملكتهم التوسعية الناشئة، حتى صاروا قوة مدمرة لا يستهان بها، وقد عملوا على تطوير قدراتهم القتالية، فشكلوا جحافل كبيرة، بأسلحة حربية جديدة، لم يكن يعرفها أهل النيل في ذلك الوقت، فابتكروا العربات الحربية التي تجرها الخيول، والدروع، والأقواس

الكبيرة، ولمّا اشتد بأسهم في البلاد أعلنوا سيطرتهم على الجزء الشمالي الشرقي بأكمله، ثم زحفوا بعد ذلك- تدريجيًّا- على غرب الدلتا، فأخضعوها لهم. حتى زحفوا جنوبًا، وباتوا على مشارف إقليم طيبة، والذي كان لا يزال متماسكًا، حتى بعد سقوط آخر ملوك الأسرة الثالثة عشر.

لكن طيبة- الآن- تزداد شوكتها، بعد أن اعتلى عرشها ملك قوي، يقال له سقنن رع الثاني. كانت طيبة محاصرة من الهكسوس شمالًا، وملوك النوبة العليا جنوبًا. مع ذلك، فإن طيبة في عهد سقنن رع الثاني بلغت من القوة والمكانة السياسية، ما جعل لها شأنًا عظيمًا، حتى بات الصدام مع الملوك الساميين، واستعادة الوطن، أمرًا لا مفر منه. في تلك الأثناء، استولى على حكم أرض جوش ملكًا، لقَّبه الناس بأبوفيس، أو ذي الحية. فأغرق البلاد في عهد أسود من البغي والطغيان. ذات يوم، اجتمع أبوفيس بقادته ومستشاريه، وناقش معهم كيفية إيجاد طريقة للتصعيد ضد سقنن رع، وجرِّه إلى شفير حرب مستعرة؛ للقضاء عليه، فأخبره أحد المستشارين بوجود بحيرة أفراس نهر في الجنوب، تحدث أصواتًا مزعجة أثناء الليل، تصل إلى آذان سكان الشمال، فتؤرقهم، وتمنع عنهم النوم، فأشار على الملك بأن يبعث رسولًا إلى سقنن رع، ينقل له شكوى أهل الشمال، ويطلب فيها بإعدام أفراس النهر، فاستحسن فرعون الباغي الاقتراح. وبالفعل، ذهب رسوله إلى طيبة، ووصل، والتقاه سقنن رع، وعرف من فحوى الرسالة أن فرعون جوش يضعه في اختبار صعب، فإما أن يستجيب لطلبه بقتل أفراس النهر، وفي ذلك شبه إذعان وخضوع له، وإمّا أن يرفض فتشتعل الحرب. صمت سقنن رع طويلًا أمام الرسول، ولم يعطه إجابة صريحة، ثم أمر بأن يقدم له الطعام وجميع سبل الراحة، بعدئذ طلب منه العودة إلى سيده، وبعد رحيل رسول أبوفيس، اجتمع سقنن رع بقُوّاد جيشه، وعرض عليهم الأمر، فأصابهم الوجوم، حتى قرروا أن يعلنوا تمردهم

على فرعون، فبدأت حرب استنزاف بين أهل طيبة والعسكر البغاة، فيما أعلن سقنن رع بداية ثورة التحرير، في قرار جريء، متحديًا بجاحة فرعون جوش.

بدأ الإعداد للحرب، وقد حقق سقنن رع في هذا الصراع بعض النجاح، إلّا أنه سقط صريعًا، في إحدى المعارك، متأثرًا بإصابات بالغة في جمجمته، ثم خلفه في عرش طيبة ابنه الأكبر، كاموس، الذي امتد حكمه لعشر سنين، تابع فيها الحرب التي شرعها أبوه، فشن هجومًا مباغتًا، بقوات من الجيش، وأسطول نيلي ضخم، على معاقل الهكسوس المتاخمة لحدود طيبة، فبسط نفوذه على إقليم أبيدوس، فتقهقر عسكر فرعون، وتمكن- خلال ذلك- من غَنْم ثلاثمائة مركب نهري، مصنوعة من خشب الأرز، مشحونة بالأسلحة، والذهب، والفضة، والمؤن، كما أسَرَ رسولًا، بعث به فرعون إلى أمير النوبة العليا، ليحرضه على مهاجمة أراضي طيبة من الجنوب، فلم يتردد كاموس في إرسال قوة زاحفة للجنوب، محبطًا خطط أعدائه، ثم ارتد عائدًا إلى طيبة، بعد أن قضى على التمرد الغادر.

بعد مقتل الملك كاموس في ظروف غامضة، انتقل الحكم إلى شقيقه، الملك المظفر، أحمس، الذي لم يكن قد بلغ من العمر سوى عشرة أعوام، لكن والدته العظيمة، الملكة المحاربة اياح حتب، حثته على التدرب للقتال مع المحاربين القدامى. كانت امرأة عظيمة حقًّا، وهي أرملة شهيد، وأم شهيد كذلك، لكنها لم تيأس أبدًا من مواصلة الكفاح، الذي بدأه زوجها البطل، فعملت على زرع روح الفداء والمقاومة في قلب صغيرها. حتى نضج أحمس عند عمر العشرين، فاشتد عوده، وتصلب وتده، وحان وقت حصاد ثمار النضال، والثأر لدماء الشهداء، وتحرير الوطن من الغاصبين.

كانت طيبة تحت حكم أحمس، عندما وصل إليها الزوجان. سعى حابيس

بكدٍّ باحثًا عن دار أهله بالمدينة، فأخذ يجوب شوارعها، أزقتها، وضواحيها، حتى كاد يفقد الأمل. لكن في ذات يوم طرق أحد الأشخاص دارهما، وأخبره الطارق أن الملك أحمس وافق على مقابلته في القصر الملكي. في الصباح، ذهب حابيس وسارة إلى قصر الزعيم، وأدخلهما الحراس إلى غرفة الملك، فانحنيا أمام أحمس، ملقيا عليه تحية إجلال. قربهما أحمس إليه، وسأل حابيس: **ما خطبكما؟** فقصَّ عليه حابيس حكاية فراره وزوجه الإسرائيلية من أرض جوش، حيث كان يعمل جنديًّا بأواريس، والمصير الذي تكبَّداه تحت حكم الهكسوس الطواغيت، كما سرد عليه حابيس تفاصيل رحلة المشقات، حتى وصلا إلى طيبة. كان الملك يستمع إليه بحكمة وإنصات، ولمّا أثنى أحمس على بطولته وشجاعتة الفريدة، ورفعه مكانًا عليًّا، حيث أمر بتعيينه قائدًا لفرقة العجلات الحربية، وطلب منه المساعده في تحرير البلاد، كما أمر بالبحث عن أهله في المدينة، ووعده بتوفير مسكن يليق بهما.

لم يستطع حابيس حبس دموعه المنهمرة، عندما وقع بصره على والديْه لأول مرة، منذ أن كان طفلًا صغيرًا، لكن رغم ذلك، فإن أمه المكلومة، لم تكن لتنسى وجه وليدها الحبيب، الذي هجرته رغمًا عنها، فكم من ليال بكت، وكم من دموع زرفت، حتى ابيضت عيناها الكاظمتان من الحزن. كان لقاءً حميميا للغاية، وكيف لا يكون كذلك؟ وهو الذي انتظره الأحبة طويلًا. احتضنت الأم الثكلى فلذة كبدها، فراح عنها الحزن وانقشع، وخرت ساجدةً للإله الذي جمعها بحابيس، أما والده فما إن رآه حتى فقد النطق مؤقتًا من عظم المفاجأة، ولم يتمالك عواطفه التي فاض بها، فراح يبكي بشدة، بينما ارتمى حابيس في أحضانه، وهو ينتحب كالصغار، في موقف بليغ الأثر، ملأته مشاعر الحنين والشوق، حتى أن سارة جلست في ركن، تنظر إليهم وتبكي من فيض مشاعر اللقاء الجارفة. التئم شمل الأهل بعد فراق، دام سنينًا، فكانت

إرادة الإله أقوى من إرادة الطغاة، وها هو ذا، حابيس، يجثو بين أقدام والديْه، وهو الأمر الذي ترجّاه دومًا.

عاد أحمس لشن حملاته الخارجية، جنوبًا، لبسط النفوذ على أرض النوبة بأسرها، وشمالًا، مقتطعًا المزيد من المدن لصالحه. حتى صارت طيبة في عهده ثكنة عسكرية كبيرة، تؤرق مضاجع أبوفيس، وشوكة مؤلمة، تقف في حلقه. ولقد شارك حابيس في إحدى المعارك مع الجنوبيين، تعرض- خلالها- لإصابة بالغة في الصدر، ونقل على الفور إلى طيبة، وأجرى الأطباء المهرة له جراحه عاجلة لإنقاذ حياته، لكن الإله كتب له عمرًا جديدًا، بأن أنقذه من الموت المحتم تحت وطأة الإصابة الغائرة، وقُدِّر له النجاة.

لم تدم فرحة حابيس بعودته إلى حضن أمه كثيرًا، فما هي إلّا أيام معدودة، حتى وافتها المنية. أمر أحمس بدفنها في البر الغربي من مدينة طيبة، في مقابر الملوك والأمراء العظام، فأضحت جنازتها يومًا مشهودًا، حيث شَيَّعَ جثمانها المئات من أهل طيبة، حتى مثواها الأخير. بعدئذ تفرغ حابيس للخدمة في الجيش، وكانت سارة تساعد أهل بيته، فقامت على رعاية أبيه العجوز الذي صار قعيدًا. فقد والد حابيس ساقه في إحدى المعارك، فرغم تقدمه بالعمر إلّا أنه كان مصرًّا على الخدمة الوطنية. وقد أمر أحمس بتعويضه بطرف صناعي، لكنه كان لا يقدر على الحركة، فلزم فراشه مدة طويلة، وكانت لا تدخر وقتًا في رعايته، خلال الأوقات التي يتغيب فيها حابيس عن الدار. كان حابيس يقضي جُل وقته في جبهات الحرب، لمراقبة الحدود، وصد هجمات العسكر المتتالية على طيبة، وعندما يعود، كان يحرص على الذهاب إلى المعبد الكبير، في البر الشرقي لطيبة؛ للصلاة، والتعبد، طالبًا المغفرة لروح أمه. كان يحب أن ينزل إلى مغطس المعبد المقدس، حيث كان يعتقد أن تلك البحيرة الاصطناعية تمنح البركة لكل جسد ينزل بها، فتغسل الذنوب والمعاصي، كما تغسل الهموم،

وتُذهب الغم والحزن عن الروح، ثم يقضي أيامًا قليلة مع سارة وأبيه، وبعدها يعود إلى جبهة القتال. لقد صار الجيش الذي طوره أحمس قويًّا ومهيبًا، وحان الوقت لتحرير الوطن من قبضة جنود أورايس.

اتخذ أحمس قراره العسكري بالإغارة على جيوش المحتلين، عندما جاءه أحد الحراس، بصحيفة من رَقٍّ، بعثها رسول متعاون من الشمال يقول فيها:

"إلى المظفر العادل، أحمس، ملك طيبة، أخبرَك أن فرعون جوش يواجه تمردًا واسعًا من قبل الإسرائيليين، وأن رجلًا عائدًا من المهجر، يدعى موشيه، قد تزعم ذاك التمرد، وإن زعيم الإسرائيليين يدعو فرعون إلى عبادة إلهه وإله جده إفرام، مهددًا إياه بعقاب شديد من الرب إن لم يتوقف عن ظلمه وطغيانه في البلاد، ولقد أمر فرعون، فجمع جنوده، كهنة المعابد، وسحرة المدينة، لمواجهة موشيه وأخيه هارون، ثم كانت المفاجأة، بأن آمن السحرة لهما، وكفروا بإله ذي الحية، كما آمنت زوجة الملك بربهما، ولذلك أمر أبوفيس بصلبها وتعذيبها عذابًا أليمًا. إن موشيه يطلب منه السماح بإخراج قومه من أرض جوش، ليعبدوا ربهم في البرية، لكن الملك رفض الإذعان لطلبه، واشتد فُجرًا، فأمر بالتنكيل بشعب إسرائيل. وإن أرض جوش قد ضربها إله موشيه عدة ضربات متتالية موجعة، ولقد بدا إله أواريس عاجزًا أمام رب موشيه وهارون، وبات فرعون عاجزًا عن إخماد التمرد، فخرج موشيه للقاء فرعون في الصباح، وقال له أن إلهه يرسله ليعرض عليه معاهدة سلام، بأن يُطلق فرعون آل إسرائيل، حتى يأمن غضب الرب، فرفض فرعون، واستشاط غضبًا، فانهالت مجددًا الضربات المتوالية على أرض جوش، وضرب موشيه الماء بعصاه، فاحتال النهر دمًا، ومات السمك الذي في النهر، ونتن ماؤه، فصار عفنًا، وما عاد أحد يقدر أن يشرب منه، وكان الدم في كل مكان، فاشتد الظمأ بالناس، لكن فرعون

أبى الاستجابة، فأصاب القحط جوش، ونقصت الثمار، وهلكت الدواب، ولقد هاجمها الجراد، قبل الحصاد، فأتلف المحاصيل، ونزع الفرحة من الصدور، كما ملأ القُمَّل أراضيهم وزروعهم، ففسد ما تبقى منها، وقل الإنتاج، ونزل عليهم السيل المنهمر، فأضحت جوش مستنقعًا كبيرًا، تعج بأسراب البعوض والذباب، وامتلأت الأنهار بالضفادع، بعد انحسار السيل، فتكاثرت وتضاعفت، وصارت وبالًا عليهم، تزاحمهم في مياه شربهم، وفي أماكن عيشهم، وعكَّرت بنقيقها صفو لياليهم، واصطبغت حياة الناس بالسواد، فهرول أبوفيس إلى موشيه، طالبًا منه أن يسأل ربه فيرفع عنهم البلاء الذي حاق بهم، فقال له موشيه أنه لن يرفع عنه البلاء حتى يأذن لشعب إسرائيل بالخروج من أرض جوش. وأخيرًا، أيها الملك العظيم، فإن فرعون يستشير صفوته ومختصيه في هذا الشأن، وربما تشهد الأيام المقبلة تحولًا كبيرًا، فانظر ماذا تصنعون».

انتشر الخبر في أرض طيبة، كالنار في الهشيم، ولمّا علمت به سارة، أسرعت إلى حابيس لتطلب منه العودة سريعًا إلى أرض جوش، بعد أن قدَّر الله عودة موسى إليها، كما أخبرته بأن الرب قد شاء لقومها بالخروج العظيم، وعليها أن تعود لتخرج معهم. رفض حابيس طلبها رفضًا قاطعًا، وأصر على البقاء في طيبة حتى تضع الحرب أوزارها، في حين أن النصر وحده سيكفل لهم العودة إلى أرض جوش مرفوعي الهامات، وحينها سيتحرر قومها من العبودية. لكن سارة أكدت له أن قرار الخروج ليس بيد أحد، وإنما هو وعد الرب لهم بأن يرحلوا عن أرض جوش؛ ليسكنوا الأرض المقدسة. لم يلق خطابها استحسان حابيس، فعاندها كثيرًا، ولزم موقفه، ومع ذلك، فإن سارة باتت أكثر عزمًا وإصرارًا على العودة، فتوسلت إليه لتخرج معه في معركته القادمة عند أبيدوس، مؤكدةً له أنها ما كانت لتفعل غير أن الرب أوحى لها بذلك، في رؤيا عظيمة بالمنام، فيها رأت أمها تمد لها يدها من مكان بعيد ومرتفع، صائحة بها، أن تصعد إليها.

(6)

خرج حابيس في جيش كبير إلى صحراء أبيدوس، لملاقاة الأعداء، وإزاحتهم بعيدًا عن حدود طيبة الشمالية. في تلك الأثناء، خرجت معه سارة لتقاتل جنبًا إلى جنب مع زوجها، فكانت تساعد المصابين بالتمريض، وضمادة الجراح. وقد انتفض أهل طيبة الشجعان على بكرة أبيهم؛ تحت قيادة ملكهم المظفر، لطرد الهكسوس عن أوطانهم. لقد فاض النيل وارتفع ثأرًا للشهداء، فصارت صيحات الجنود المزلزلة، فوق أرض المعركة، تبث الرعب في قلوب الأعداء. تقدم جيش أحمس القوي كأنه جذوة من نار، واتخذت طلائع القوات البرية مكانًا في مقدمة الصفوف، للكشف عن جنود العبرانيين الرعاة، وتدمير مواقعهم. أمّا القوات النهرية فقضت الليل على متن السفينة، حتى تنفس الصبح، فانقضوا على الأعداء كالصقر، فدحروهم، ودمرت أسوارهم، وقتل من جنودهم العشرات، فيما تمكنوا من أسر الكثير، فأضحى نصرًا مؤزرًا.

بعد انتهاء المعركة، أخذ حابيس يبحث عن سارة، فلم يجدها، فزرع أرض المعركة بحثًا عنها، بين أشلاء الجثث، وغنائم الحرب، حتى سمع أحد الجنود يركض نحوه، صائحًا: **أيها القائد، إن بعض الجنود الفارين من المعركة أسروا عددًا من محاربينا، ومن بينهم زوجتك**. ضرب حابيس بالسوط على ظهر جواده الأبيّ، فانطلق في سرعة البرق، ومعه عدد من الجنود، خلف فلول الهكسوس. صاح حابيس في جنده صيحة قوية، وأمرهم باللحاق بهم؛ لدحرهم واستعادة الأسرى. ظل حابيس وجنوده يطاردونهم حتى ابتعد كثيرًا عن حدود أبيدوس، عندها لم يكن بمقدوره الاستمرار بعدد قليل من الجنود، ودون إذن من الملك أحمس، حيث جيش الهكسوس سيكون في انتظاره،

فيفتكون بهم. أمر حابيس الجنود بالارتداد على أعقابهم، وقد علم أن أسرى الحرب يُشْحَنون مباشرةً إلى أواريس. لذا لم يكن أمامه خيار آخر سوى نجدة حبيبته. فقرر التخفي، والتسلل خلسة إلى قلب بلدة، تابعة للهكسوس، ومن ثم المجازفة بالعودة إلى أواريس، عبر رحلة نهرية طويلة. بالفعل، صعد حابيس على متن السفينة، متنكرًا في رداء رجل من العوام، ومضى ليال عدة موحشة، قبل أن يصل إلى أرض جوش.

عندما عاد حابيس إلى أرض جوش، وجد المدينة قد تغيرت تغيرًا جذريًّا، وقد طرأت عليها أمور أبدلت وجهها الحسن بآخر قبيح. شاهد المدينة في حالة فوضى عارمة، في حين كانت شوارعها مليئة بالبرك الصغيرة المتسخة بالقازورات. أمّا السكان فكانوا يئنون من تسلل الأمراض إليهم، نتيجة لانتشار البعوض الحاملة للأوبئة. كانت أواريس في حالة يرثى لها من الفزع والهلع. في تلك الأثناء، سمع حابيس صرخات عالية في كل أرجاء المدينة البائسة. هرع الناس إلى الشوارع ينتحبون، فمنهم من فقد عزيزًا له، ومنهم من فقد دوابه ومصدر رزقه. كان نُواحًا ينزع القلوب، لأنه لم يكن هناك بيت ليس به مصاب، فأسرع حابيس نحو مساكن الإسرائيليين، حيث بيت أم سارة، ولمّا وصل إلى هناك وجد بعضًا منهم مجتمعين في دار أم سارة، فدنا إليهم، مُلقيًا عليهم السلام، فيما عرفته أم سارة، فتذكروه جميعًا، وهبّوا لمعانقته، ولمّا سألوه عن سارة، أخبرهم حابيس بما صار معها. صكَّت أم سارة صدرها، فانتفض الرجال من مجلسهم، وأسرعوا به إلى دار زعيمهم موشيه. هنالك وجد حابيس السيد هارون الذي سريعًا ما تذكر قصته، ثم أخبره هارون بأن موشيه أُستدعِيَ إلى قصر فرعون- ذي الأفعى- للتشاور.

وقف نبي الرب أمام عرش أبي الحية، وقال: **إن الرب كلمني بقوله: إني**

قد رأيتُ مذلة شعبي في أرض جوش. وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم. فالآن، هلم لإرسلك إلى فرعون، ليخرج قومك من أرض جوش، وهذه هي فرصتكَ الأخيرة، أطلق سراح المعذبين في الأرض، وأرسل معي بني إسرائيل تكن من الناجين. قهقه أبوفيس قائلًا: فمن ربك هذا، يا موسى؟ أحلَّ الرب عقدةً في لسان موشيه، فأنطقه قائلًا: **ربنا الذي أعطى كل شيء خلْقَه ثم هدى.** انفعل الملك، فألقى كأسًا من يده، في حين نادى على وزيره ساخرًا: **أيها العبيد، ألا تستمعون؟! هل علمتم بإله غيري؟** فهتف الحاضرون بحياة الملك، رب العباد، فتكبّر فرعون، في حين يصيح في وزيره قائلًا: **أيها الوزير، فلتبنْ لي صرحًا من الطين، لعلى أصل إلى إله موشيه الذي لا يكاد يبين، وإني لأظنه مسحورًا.** أجاب موشيه في ثبات قائلًا: **الحق والحق ما أقول لكَ، ما جئتكَ إلّا بالبينات، ولقد عَلِمتِ يا فرعون، ما أنزل الآيات على أرض جوش إلّا رب السماوات والأرض، وإنما تقول ذلك استخفافًا بعقول شعبكَ، فأرسل معي بني إسرائيل، هذه رسالة الرب الأخيرة لكَ، وإني لأظنكَ، يا فرعون، مثبورًا.** فقد الملك عقله، فصاح الملأ من قومه قائلون: **إن هذا لساحر عليم.** نظر إليه فرعون بعين الازدراء، ثم قال في حنقٍ: **ألم نربِّكَ فينا وليدًا؟! وأنعمنا عليك وقربناك منا سنينًا؟! وفعلت فعلتكَ التي فعلت وأنت من الكافرين بأنعمنا؟** فأجاب موسيه قائلًا: **فعلتها إذًا، وأنا من الضالين، ففرلات منكم لمّا خِفتُكم، فوهب لي ربي حكمًا، وجعلني من المرسلين، وإني لأعدكَ بملك لا يفنى إن أعتقت بني إسرائيل. هذا وعد الله فاستشر حاشيتك، وانظر ماذا تصنع، وإني ها هنا لمن المنتظرين.**

اشتد البلاء بقوم فرعون، فهرعوا إلى موشيه، يسألونه أن يرفع عنهم ما لحق بهم، فعرض موشيه على الملك هدنةً، أن يفرج عن الأسرى، فيصلي من أجل أن يرفع الرب عنهم العذاب، فاستجاب له فرعون، وأمر بالإفراج عن

معتقلي بني إسرائيل، فتحررت سارة، وعادت سارة إلى أحضان حابيس، لكن الملك سرعان ما عاد ليراوغ ويطغى، وازداد قلبه كِبرًا، فعاد لسيرته الأولى. حتى أوحى الله إلى موشيه أن يسير بقومه ليلًا إلى البرية جهة الشرق.

أسرع قوم موشيه استعدادًا للخروج قبل طلوع الشمس، فجمعوا أواني كثيرة من ذهب وفضة، وحملوها فوق ظهور دوابهم، وأخرجوا أمتعتهم، ودفعوا بقطعان غنمهم، وهموا للخروج العظيم. كان عددهم ثمة آلاف قليلة، فاقتاداهم، موشيه وهارون، إلى خارج أرض جوش. أصعد حابيس امرأته فوق ظهر جواده، في حين يسير إلى جانبها في مقدمة السِّرب، ومن خلفهم بقية الشعب، يجرون أقدامهم نحو البادية، جنوب شرق أرض جوش، كما أمراهم موشيه وهارون. حتى وصلوا إلى منطقة جرداء، فنصبوا بها الخيام، ولمّا فرغوا من استراحتهم المؤقتة، نزعوا الأوتاد، وساروا جنوبًا صوب منطقة أخرى، عند طرف البرية، على مقربة من الضفة الغربية لبحيرة التمساح، فعسكروا بها لبعض الوقت، ومن ثم نزلوا عند فم برزخ بين خليج هيروبوليس[1] وقناة سيزوستوريس جنوب شرق أرض جوش، فاتخذوا منها مكانًا للمكوث حتى حين. كان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق، وليلًا في عمود نار ليضيء لهم، فكانوا يسيرون ليلًا ونهارًا في معية الرب.

في تلك الأثناء، هرع الجنود إلى الملك، وأخبروه بأن المئات من عبيد المدينة قد رحلوا عنها في غفلة منهم، وقد باتت المدينة في فراغ عظيم. ولمّا علم الملك بذلك، اسودَّ وجهه، وصاح مزمجرًا: **العبيد الأوغاد، من أمرهم بالخروج عن خدمتنا.** ثم أخذ ستمائة عربة حربية وجندًا كُثرًا وعتادًا هائلًا، وهرول خلف شعب إسرائيل ليبحث عنهم في الصحراء. أوحى الرب إلى موشيه

(١) خليج السويس اليوم، على أنه كان يمتد في العصر الفرعوني حتى بحيرة التمساح ثم انحسرت مياهه جنوبا إلى البحيرات المرة.

أنهم متبعون، فنهضوا مسرعين للهروب بعيدًا، لكنهم وجدوا أنفسهم قد أغلق عليهم بالمياه من كل جانب، في حين جيش فرعون يقترب من خلفهم. ولمّا تراءى الجمعان، ظن أصحاب موسى أنهم مدركون، فعمَّت الفوضى، وجزعت قلوب الشعب الهارب، وأخذت النساء تُولوِل، والأطفال يصرخون بفزع، في حين صاح بعض الرجال في وجه موشيه قائلين: **"هل لأنه ليس هناك قبورٌ لنا في أواريس أخذتنا لنموت في البرية؟ ماذا صنعت بنا حتى أخرجتنا من أرض جوش؟ أليس هذا هو الكلام الذي حدّثناك به سابقًا؟ ألم نقل لكَ كف عنا، فنخدم الملك وقومه، لأنه خير لنا أن نخدمه من أن نموت في البرية؟** ضاق صدر موشيه ذرعًا بتزعزع ثقتهم في قدرة الرب، لكنه صاح فيهم بهدوء ويقين، قائلًا: **كلا، والله، إني معي ربي سيهدين، قفوا وانظروا لخلاص الرب الذي سوف يصنعه لكم، إن الرب لمنجينا أجمعين.** ثم مد عصاه فوق البحر، فأجراه الله بريح شرقية هائجة، فانفلق، وكان كل فِرقٍ كهضبة مرتفعة، وانشقت عنه يابسة، فدخلوا إليها راكضين، وكان الماء سورًا لهم عن يمينهم ويسارهم، حتى عبروه جميعًا، فوصلوا إلى ضفته الأخرى، في حين كان جيش الفرعون يعبر زالفًا خلفهم، فضرب موشيه البحر مجددًا بعصاه، فالتحمت شِقّاه من جديد، ورد الرب عليهم البحر، فغرق الفرعون وجنده، وهم إليهم ينظرون، وأنجى الله موشيه ومن معه، فما استطاعوا تصديق أعينهم من هول ما يشاهدون.

استمر الشعب في السير يزحفون أقدامهم من شدة التعب والانهاك، باحثين عن مصدر للماء، حتى استبد بهم العطش بعد قطع مسافة كبيرة بمحاذاة الفرع الغربي لبحر القُلزُم[1]، فالرب أمر موشيه أن يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينًا متفرقة، بعدد أسباطهم، وعلم كل فريق مكان مشربهم. بعدئذ اتخذوا سبيلًا على طول الساحل الغربي لخليج

(١) ما يعرف- اليوم- بالبحر الأحمر.

هيروبوليس، حتى وصلوا إلى منطقة[1] بها جبل صغير مستطيل، مسطح الرأس، وهناك وجدوا معبدًا كبيرًا على قمة الجبل. كان القوم في تلك المنطقة يعبدون الإله حتحور، ولكنهم لم يتعرضوا لهم بأي أذى، فاستراحوا عندها إلى حين. ثم عاودوا السير، حتى وصلوا إلى جبل موسى، بعد أربعة وأربعين يومًا من تكبد عناء الحل والترحال. قضوا خلالها أيامًا قاسية في القَفْر، فتذمر الإسرائيليون، وقالوا لموشيه وهارون في تمرد مهين: **ليتنا متنا بيد الرب في أرض جوش، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم، نأكل خبزًا للشِّبَعِ، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القَفْر لكي تميتا كل هذا الجمهور بالجوع.** فصاح فيهم موشيه ضجرًا منهم: **ها قد أمطر الرب عليكم خبزًا من السماء، فلتخرجوا وتلتقطون حاجة اليوم بيومه، ولا تبقوا منه شيئًا لغدٍ، هذا اختبار من الرب لكم، لينظر هل تسلكون في ناموسه أم لا.** لكن، مع ذلك، خزَّن البعض منه للصباح، فتولَّد فيه دود وأنتن، غضبًا من الرب عليهم، فسخط منهم موشيه، واستنكر عدم ثقتهم في وعد الرب، بأن يُنزل عليهم خبزًا جديدًا، يومًا بيوم.

هجر موشيه قومه، بعد أن عيَّن أخاه- هارون- وزيرًا عليهم، وذهب لتلقي ألواح الشريعة من أعلى الجبل، لكنه غاب أربعين ليلة، فاستطال الشعب فارغ الصبر غيبته، في حين فقد البعض الأمل في عودته، وانتهز الفرصة رجلًا منهم، يدعى السامري، وكان صانعًا ماهرًا، فأمرهم أن يعطوه الحلي والمجوهرات التي استعاروها من نساء أواريس، فاستجابوا له، فجمعها جمعًا، ثم جعل يصهرها تمامًا، فصنع لهم عجلًا له خوار، وأقنعهم أن نبيهم لن يعود إليهم، وكان البعض منهم- بالفعل- قد سبق أن طلبوا من موشيه أن يصنع لهم إلهًا من صنم، يتعبدون له، وقد رفض موشيه ذلك رفضًا تامًّا، ونهرهم، واصفًا إياهم بالجهل والجحود. لقد استجاب له فئة من الناس، وصاروا على

(١) قرب ميناء أبوزنيمة حاليًّا، على الساحل الشرقي لخليج السويس.

عجله يعكفون، رغم أن هارون نهاهم عن ذلك، لكنهم لم يستجيبوا له. خشي هارون أن تحدث فتنة بين القوم إذا أمر فريقًا منهم بنهر الفريق الآخر الذي يسجد للعجل، وظن أنه ربما يتسبب ذلك في حدوث شرخ عظيم، وانشقاق حاد بينهم، لكن سارة لم تتحمل ما صنع السامري، الذي أراد أن يشعل نار الفتنة بين القوم، فخرجت على قومها ذات ليلة، في حين هم في حفلهم الراقص منهمكون، فقطعت لهوهم، وخطبت فيهم قائلة:

"أيها القوم الأحرار من عبودية، لقد أنجاكم الرب من الاستعباد في أرض جوش، وكنتم على ذلك من الشاهدين، ثم أغرق فرعون وجنده أمام أعينكم، وأمر البحر فانشق لكم، وكان كل فرق كالطود العظيم، وكنتم على ذلك من الشاهدين، ثم هداكم سبيل الرشد والصلاح. وفجَّر لك من العيون ما يذهب عنكم الظمأ ويروي البدن، ثم أنزل عليكم طعامًا من السماء، وما كنتم له شاكرين، وغشيتكم سحائب الرحمة والغمام لتقيكم الحر وحرقة الشمس فوقكم. وفي ليلكم أرسل إليكم الرب عمودًا من نار ليرشدكم في الظلام. ولقد دخلتم إلى أرض جوش وكنتم لا تتعدون الخمسة والسبعين فردًا، ثم اختاركم الرب وبارك فيكم فصرتم أمة، وكان فضل الله عليكم عظيمًا. ثم ها أنتم بعد ذلك تحنثون العهد الذي قطعتم، فتصنعون بأيديكم عجلًا صنمًا لا يسمع ولا يرى ولا ينفع ولا يضر، فتشبهونه بالرب وحاشاه، وتخرون له سجدًا وأنتم تعلمون، وتقدمون له القرابين كما كان يفعل القوم الضالون في أرض جوش، وتطوفون حوله، وله ترقصون وتغنون وتعزفون الألحان. والله ربنا ورب موسى وهارون لأولى به تسبحون، يا قوم إنكم والله لتجهلون، وإنكم لأنفسكم تظلمون، وإنني أشهد الله أني كفرت بما تعبدون، وإن لم تنتهوا ليصيبنكم عذاب من الرب عظيم، وإنني وزوجي لكم لمعتزلون، حتى يعود موسى إليكم، فيحكم بينكم فيما فيه تختصمون.

أخبرت سارة حابيس أنها ذاهبة خلف الجبل لاعتزال القوم، فلم يشأ حابيس أن يدعها وحدها في تلك البرية المقفرة، فذهب معها، ليتفرغا معًا لعبادة الرب، فرحلا بعيدًا عن القوم الفاسدين، واستقرا هنالك، حيث وجدا عند سفح الجبل مغارة صغيرة، فولجا إليها. كانت تلك المغارة تقود إلى قبو ضيق طويل، فدخلا إليه، وجعلا يسيران عبره، حتى انتهى بهما إلى باب كبير. تعجبت سارة كثيرًا، فقد كان كبيرًا، من حجر الكوارتزيت الطبيعي، وكان ثقيلًا، ومنفتحًا بشكل جزئي كذلك، للدرجة التي لا يمكن لأحد أن يدفعه، لكن حابيس أصر على اختراقه، فحاولا أن ينسابا من خلاله بخفة، حتى نجحا في عبوره. عند إذ أصابهما الوجوم، عندما اكتشفا حجرة ممتلئة بالجماجم والهياكل العظمية. كادت سارة أن تتقيأ، لكن حابيس أسندها إليه، حتى وجدا بابًا آخرَ خشبيًّا في أحد أركانها، لكنه كان مغلقًا بإحكام، فحاول حابيس دفعه إلى الوراء، فاندفع بقوة، ودخلا إليه. انفتح ذلك الباب على سرداب صغير، فمضى حابيس خلاله، ومن ورائه سارة. كانا خائفيْن كثيرًا، لكن شعورهما بالفضول كان أعظم، فأزاح حاجز الخوف والرهبة لديهما، فتابعا السير بداخله. حيث كان يحوي بداخله على الكثير من عظام مبعثرة ومندثرة في التراب تحت قدميْهما، وأخرى طافية فوق التراب، فجعلا يسيران على أطراف أصابعهما؛ متفاديَيْن الانزلاق، لكن حابيس تعثر في إحداها، وسقط على وجهه. كان المكان حالك الظلام، فتبدل الفضول بالرعب، وقررا العودة من حيث جاءا، فاستدارا إلى الوراء، وطفقا يتحسسان الجدران، محاولَيْن عبور الظلام، والعودة مجددًا، لكنهما وفي هذا الظلام الدامس بدلًا من أن يعودا عبر الممر الذي دخلا منه، عبرا آخرَ متفرعًا منه، وفجأة، تعثرت قدم سارة هذه المرة في أحد الأحجار الكبيرة، وقد كانت تقود حابيس في سبيل العودة، فسقطت في الظلام. حاول حابيس مساعدتها على النهوض، لكن وفي حين

كان يمسك بيدها، إذ اهتزت الأرض- فجأة- من أسفلهما، وانهارت، فسقطا في جرف عميق.

استفاق يحيى، فأفاق كارمن؛ وخرجا- في التو واللحظة- راكضيْن من قبو الجماجم المغمور؛ ليكتشفا الفاجعة الرهيبة. في مساء أحد القيامة، عشية شم النسيم، هجمت إحدى عصابات المافيا الدولية، على الدير، يوم الثاني عشر من شهر إبريل، في العام ٢٠١٥. واعتدوا آثمين على الإنبا إستيفانوس، رئيس الدير. في حين تعرضت الراهبة ليليان للإغماء، إثر ضربة مبرحة على الرأس. عاث الفريق العصابي الملثَّم فسادًا في محتويات غرفة رئيس الدير، في حين سرقوا المخطوطة السينائية النادرة المخبأة بإحدى شقوق الجدار، خلف أيقونة أثرية للعذراء. ثم لاذوا بالفرار.

أسرع يحيى لطلب النجدة، فإذ به يجد عم رمضان، حارس الدير، غارقًا في دمه. لم تمض ثوان معدودة حتى جاءت الشرطة إلى موقع الحادث، في الوقت الذي أخذت فيه ليليان تسترد الوعي شيئًا فشيئًا. أخيرًا، فتحت الراهبة المسكينة عينيها، فنظرت حولها؛ لتصيح في فزع، راسمةً على صدرها إشارة صليب، في حين تقول: **كيف حدث ذلك، بحق يسوع**. سريعًا أسعفوها، حتى تحسنت حالتها. في أثناء ما كان فريق التحقيقات الجنائية يمسح البصمات ويرفع، سألهما الأنبا إستيفانوس عن سر اختفائهما فجأةً أثناء الهجوم. فأخذا ينظران إلى بعضهما البعض في حيرة، في حين أجابت كارمن بتلعثم: **أأأأمم، نعتذر بشدة أيها الأب، فقط تجاوزنا الحد عندما اخترقنا إحدى الغرف السرية المغلقة، نرجو أن تقبل اعتذارنا**. أومأ إليها يحيى بطرف عينه، ثم عقَّب قائلًا: **أيتها الراهبة، نحمد الله على سلامتكِ، ونتأسف كثيرًا لما حدث معكِ، لكننا مضطريْن للمغادرة الآن. علينا الإسراع بالعودة إلى شرم الشيخ**

للِّحاق بالطائرة العائدة إلى القاهرة صباحًا.

عانقت كارمن صديقتها العزيزة في وداعٍ حميم، على وعدٍ بأن تعود إلى زيارتها في وقتٍ قريب، في حين استعدا للمغادرة فورًا.

عاد يحيى وكارمن إلى القاهرة، وقد قررا أن يُبقيا سرًّا على ما حدث لهما في أرض جوش. وبذلك اتفقا على كتمان هذا السر تمامًا، فيما وافقت كارمن على طلب يحيى بالزواج منها. وبعد عقد الزواج بأيام، أقنعت كارمن يحيى بأن يعود معها مهاجرًا إلى الولايات المتحدة الأمريكية. مرت أيام قليلة من التفكير المتأني، حتى وافق يحيى- أخيرًا- على ذلك العرض. لذلك عملت كارمن على مساعدته في الحصول على بطاقة الجرين كارد للإقامة بأمريكا. وبعد عدة أشهر معدودة، تمكن يحيى- بالفعل- من استخراجها. وطارا معًا إلى أرض الأحلام؛ ليبدآ- معًا- حياةً جديدة، ومغامرةً جديدة.

تتمة الرحلة الأولى

يتبع مع الرحلة الثانية

#هِرَقْليون (سر قلادة العهد)

أحمد المصري

معرض الصور

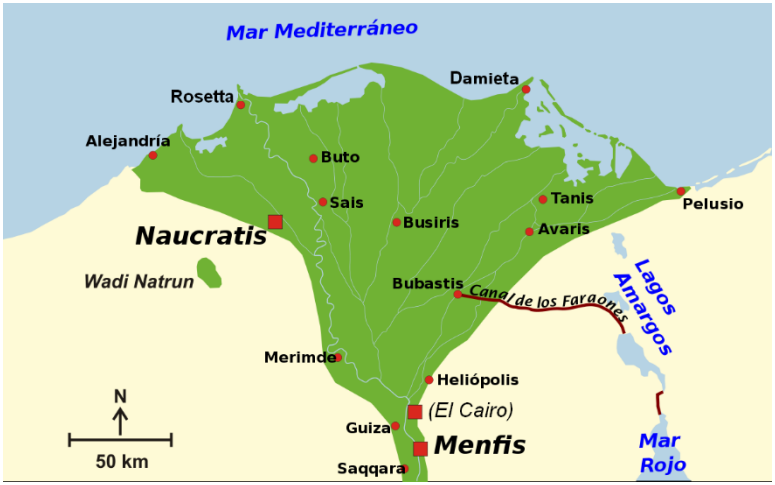
Mar Mediterráneo
Damieta
Rosetta
Alejandría
Buto
Sais
Tanis
Pelusio
Busiris
Avaris
Naucratis
Wadi Natrun
Bubastis
Canal de los Faraones
Lagos Amargos
Merimde
Heliópolis
(El Cairo)
Guiza
Menfis
Saqqara
Mar Rojo
N
50 km

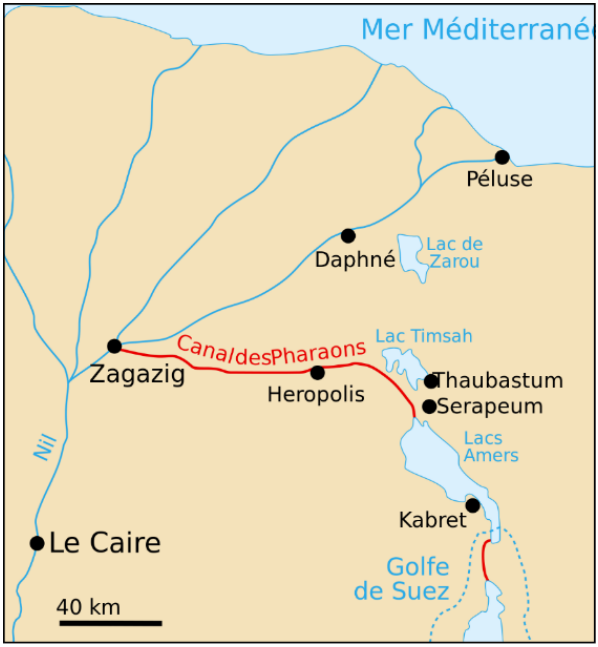
Mer Méditerranée
Péluse
Daphné
Lac de Zarou
Lac Timsah
Canal des Pharaons
Zagazig
Heropolis
Thaubastum
Serapeum
Lacs Amers
Nil
Kabret
Le Caire
Golfe de Suez
40 km

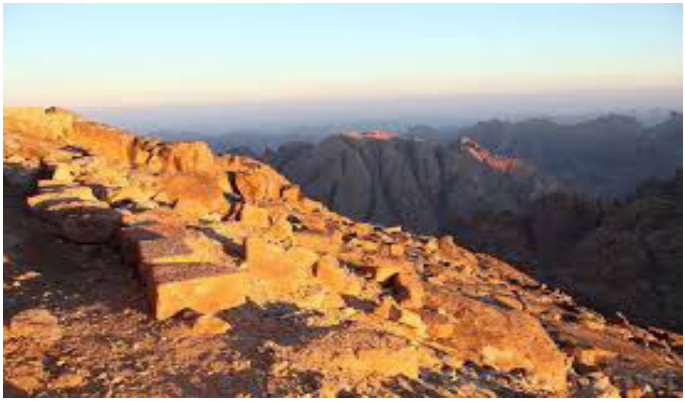

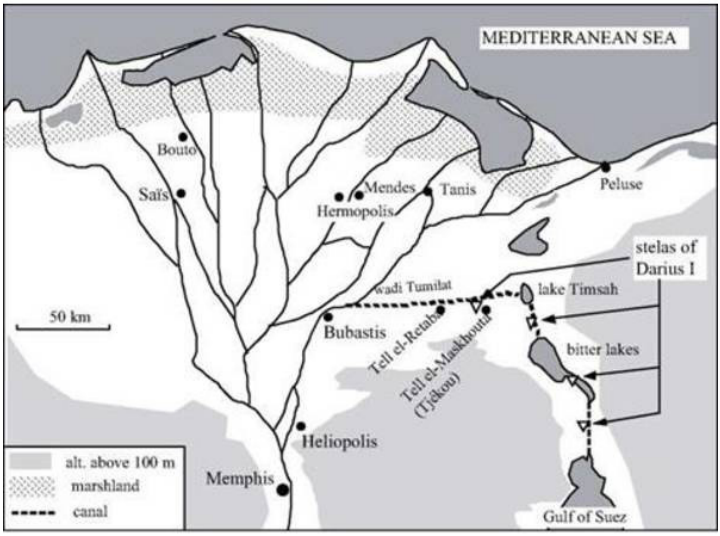
MEDITERRANEAN SEA
Bouto
Saïs
Mendes
Tanis
Hermopolis
Peluse
stelas of
Darius I
wadi Tumilat
lake Timsah
50 km
Bubastis
Tell el-Retaba
Tell el-Maskhouta
(Tjeku)
bitter lakes
Heliopolis
Memphis
alt. above 100 m
marshland
canal
Gulf of Suez

Canal of the Pharaohs

Beersheba
GOSHEN
On
Memphis
MIDIAN
NILE
RIVER
Mount
Sinai
RED SEA
St-Takla.org

Mediterranean
Sea
covered by
water in
ancient
times
L. Menzaleh
Alternate Israelite Route
L. Sirbonis
The Way to the Land of the
LOWER
EGYPT
Zoan/
Tanis
ancient
coastline
Khatana
Sile
Ra'amses
(Avaris)
L. Ballah
J. Magharah
Succoth
Ismalia
W. Tumilat
L. Timsah
The Way to Shur
Pithom
GOSHEN
ancient
canal
Great
Bitter
Lake
WILDERNESS
OF SHUR
J. Yeleq
Little
Bitter
Lake
Giza
On
(Heliopolis)
Alternate Israelite Route
(Darb el-Hajj)
Noph
(Memphis)
J. Sin Bisher
S I

مطعم
حضرموت
اليمني
MASSAGE

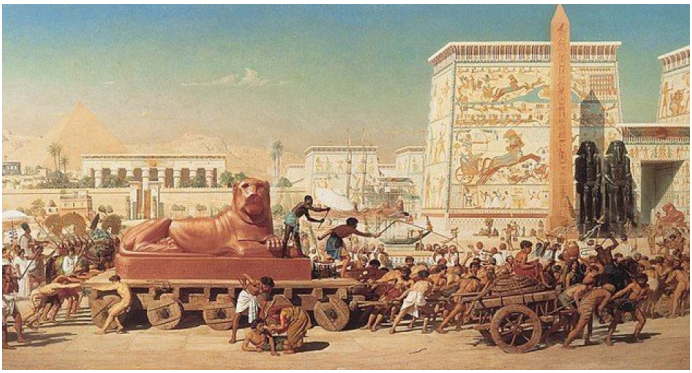

خـريطـة المدن المصـرية القـديمـة